محمد حسين يونس

على شفا الموت على شفا الجنون

محمد حسين يونس

على شفا الموت
على شفا الجنونْ

الناشر :
دار الثقافة الجديدة
٢٢ ش صبرى ابو علم/القاهرة
ت : ٧٤٢٨٨٠

تصميم الغلاف : الفنان بهجت عثمان

من لوحة حفل الدوسه لادواردلين (١٨٣٦)

« كل يوم يستيقظ الرجال فى الصـــباح لكى
يعانوا .. وليس للفقير قوة تنقذه ممن يفوقه..
تمر المصائب اليوم ولـــكن احزان الفـــد ليست
ماضية بعد »

نص لكاهن مصرى فى القرن ٢٠ ق.م

اهـــــــداء

الى صـــديق كـــل مصرى آمـــن بالحـــرية
والاشـــتراكية والوحـــدة الى الرمـــز الـــدائم
للنضال .

الى جمال عبد الناصر .. الزعيم الذى آمن
به جيلى دائما واختلف معه قليلا .

الفصل الاول

نحن الآن فى عصر الانفتاح .. وصديقنا انهى منذ لحظات طقوس اول جمعية عمومية ومجلس ادارة لشركته الجديدة .

لقد اصبح عضوا لمجلس ادارة شركة من شركات الاستثمار المصرية الامريكية الخاضعة للقانون ٤٣ لعـــام ١٩٧٤ والمعدل بالقـــانون .. الخ ستسأل ان لم تكن من عصرنا عن معـــانى الانفتـــاح والاستثمار والقانون ٤٣ وتعديلاته والتى اتحدث عنهما كما لو كانت من حقائق الحياة التى يجب ان يعرفها كل البشر .

ولك الحق .. كل الحق .. فان هذه المسميات محلية جدا وصاحبت فترة محدودة وخاصـــة من تاريخ بلدنا حتى أن المعاصرين لها لم يفهموها جيدا ولم يقدروا مدى خطورتها فى حينه .

وعموما ستتاح لنا الفرصة لحديث طـويل من المعنى الحقيقى لهذه الكلمات فيما بعد .

ستسأل لماذا بدأت اذن بعصر الانفتاح اذا كنت قد قررت الا أستطرد فى مناقشته ؟

واجيب بدون تردد لأن هذا الحدث الذى تم منذ لحظات هو النقيض لحياة صديقنا وقيمه وافكاره التى ترسبت عبر رحلته منذ ان ولد فى ربيع يوم من أيام الحرب العالمية الثانية وحتى هذه اللحظة !!

كان يتلقى التهـــانى من المحيطين به ... وقد لصق على شفتيه ابتسامة بلاهة ويفكر فى احتمالات المستقبل .

لقد قال له والده وهو فى العشرين .. «لماذا تعمل اثنتى عشرة واربع عشرة ساعة يوميا .. ماذا تريد أن تفعل ؟

واذا كنت فى سنوات قليلة ستمتلك الشقة والعربة والمكتب ورصيدا فى البنك فماذا ستفعل بباقى عمرك ؟

لقد كان لوالده دور هام ومؤثر فى حياته .. وايضا كان لصديقنا دور مواز فى حياة والده رغم الصراع التقليدى الذى نشأ بينهما فى فترات مختلفة من حياتهما .

كان بينهما احساس بالامتداد بالايستمرار جعله دائما يشعر بأنه امتداد لخط بدأ منذ آلاف السنين يمثل فيه والده أقرب ماض ويمثل فيه حاضره ومستقبله القريب .

جعلهما هذا الاحساس لا يفقدان أبدا رابطة الصداقة والثقة المتبادلة وأيضا الصراع .

عندما كان صديقنا صغيرا فى المركز الاضعف من الصراع كان والده يحبسه دائما فى حجرته الصغيرة ليستذكر دروسه يقهره ليكون الاول .

وكان الآخر يقاومه بالحلم — يهرب فى احلامه — يحلم بأن والده قد مات او ان منزلهم قد انهدم .. او انه قد صدر قرار بالغاء التعليم او أنه قد كبر بالقدر الكافى للاستقلال عن والديه .

ولم تكن احلامه الشريرة هذه تسبب له اى تأنيب ضمير ولم يجد لذلك تفسيرا الا بعدما درس تحليل سيجموند فرويد للأحلام .. ان موت والده لم يكن رغبة شريرة فى نفسه وانما كان وسيلة لامتلاك حريته .. لذلك لم يشعر بالحزن او تأنيب الضمير .. ان حلم الحرية محور خيالات طفلنا وهو فى التاسعة من عمره ظل المؤثر الاساسى فى كل تصرفاته وعلاقاته بالحياة بعد ذلك وللأبد .

وهو السبب الذى جعله فى وقت لاحق يوقع استقالته من مجلس ادارة الشركة التى كونها منذ لحظات ويبيع اسهمه فيها .

كان يقول — لا استطيع أن اشارك فى جريمة نهب مصر .

وهو امر متسق تماما مع نشأته .. لقد جاء الى العالم كما قلنا مع بدايات الحرب العالمية الثانية وما صاحب ذلك من تغييرات جذرية فى العالم اهمها انهيار الامبراطوريات القديمة الانجليزية والفرنسية وانبثاق قوى اخرى سيطرت على العالم عمالقة السوفيت وامريكا والصين ..

وبعد ذلك اضطرب العالم .. سقطت كل القيم القديمة ووسائل

الحياة وعلاقات الانتاج ووجد من لم يحصن نفسه بالمعرفة انه قد أصبح يعيش فى مقاهات .

اننا لا نختار جنسيتنا او لوننا او ملامحنا أو ديانتنا او بيئتنا .. ولكن هذه المعطيات تحدد بدايات ماهيتنا .. التى تتشكل بعد ذلك باختياراتنا .

ان وجودنا ليس قدرا لا يمكن تغييره .. بل يمكن تغييره باختيارنا هكذا قال سـارتر .. وعلى أساس مجمل اختياراتنـا .. يتحدد شكلنا النهائى يوم وفاتنـا .. كان يعى هـذا جيدا لذلك فلقـد كان حريصا فى اختياراته .

كان يمكنه أن يهاجر .. أن يغـير لغته .. جنسيته .. دينـه .. وحتى ملامحه كما فعل كثيرون ولكنه فضل ان يبقى بجواره .. لقد كان يعشقه ولا يطيق مفارقته .. فجمال عبد الناصر لم يكن قائدا فحسب .. لقد كان أملا عندما أمم قناة السويس كان صديقنا فى السادسة عشرة .. كان قد أنهى امتحان الثانوية العامة وتأهل للالتحاق بكلية الهندسة ليحقق حلما عزيزا لوالده .

أما والدته فكانت لهـا أحلامها الخاصة .. لقـد كانت مريضة مثله بأحلام اليقظة أو يكون قد ورث عنها هذه المادة وكان حلمها الأعظم أن تراه ضـابطا فى الحرس الملكى .. ثم .. ترى واحدة من اللائى يبـدأ اسماؤهن بحرف الفـاء ـ فريال ـ فوزية ـ فادية .. واحـدة من أميرات مصر .. تحبه .. تتزوجه .. فيصبح ابنها أميرا .

« حلم سندريلا مصرى »

لقد كان والده واقعيـا .. أما والدته فكانت رومانسية .. وورث عنهما كلا من الواقعية والرومانسية .. ولكن كيف يجتمع النقيضان .. لقد كانتا فى صراع دائم داخله .. وكانت لكل منهما تأثيراتها وقوتها لدرجة أن كلا منهما استقلت بجزء من شخصيته .. نمت .. تأصلت .. فرضت نفسها بعيدا عن الأخرى .. لقد أصبح شخصين أحدهما ذلك الذى وقع طقوس أول جمعيـة عمومية .. والآخر هو الذى أنهى عضويته فى هذه الشركة .

كان ذلك سببا فى أن يبدو فى بعض الأحيان شاذا .. ولقد تعود هو على هذا الشذوذ ـ اذا جاز هذا التعبير ـ .

ففى طفولته كان يأتى بأفعـال غريبة على سـنه .. لقـد طلب من مدرسته الراهبة فى يوم وكان فى الثـالثة من عمره أن يذهب الى دورة المياه .. فقهرته رفضت .. فما كان منـه الا أن رجع ثلاثة صفوف الى مكان غير مشغول بالطلاب وتبول دون أن تبتل ملابسه ثم عاد الى مكانه

ببراءة .. عندما اكتشفت الراهبة سرسوب الماء وتتبعته وجدته يبدأ من مكان خال .. اختبرت ملابس جميـــع الأطفال بمـــلا فى ذلك ملابسه .. فلم تعثر على الجانى .. فى فترة الراحة كان يقص قصته على زميل اكبر منه قليلا دون أن يكتشف الراهبة الواقفة خلفه تستمع الى القصة وتشد اذنيه .. ثم تستدعى والدته لتستسمحها فى نقله الى سنة دراسية اكبر من الحضانة لذكائه .

لقد كان ذلك غريبا .. ولكنه كان رد فعـــل طبيعى للانضباج المبكر الذى حاوله والده معـــه .. لقد كان يصطحبه فى رحلاته مع زملائه لدار الآثار لسقارة .. للأهرامات .. وللندوات والمؤتمرات التى كانت تعقدها « مصر الفتاة » تندد بالحكم الملكى وبالاستعمار وبأشياء كثيرة كانت عادة ماتستغلق على فهمه .

وكان لوالده صوت جميل يشيع فى منزلهم المرح والبهجة عندما يكون فى هـــدنة من شـــجاره المستمر مع والدته والذى كان موضوعه الدائم مصروف البيت .

فى هذه الأوقات كان يشعر بأن الأرض تميد تحت قدميـــه .. وكره النقود ولكنه فى نفس الوقت احترمها انى القـــدر الذى لا يجعله فى حاجة اليها فقط لقد كان يعيش من خلال ميزانية حـــددها لنفسه مسبقاً وتغنيه عن القروض .

وتولدت لديه قدرة غريبة على الاســـتغناء فمـــادام لا يستطيع ان يحصل على شىء فعليه وبشكل دائم وسريع الاستغناء عنه بترفع .

هكذا حدث له عندما كان فى اليمن .. لقد رفض أن ينجرف فى تيار الاستهلاك ويهرب البضائع والدلاورات من والى هناك .

وعندما قاوم قبل ذلك رشوة المقاولين وهو يعمـــل مهندسا مشرفا عليهم فى سيناء .

ولكنه كان ضعيفا جدا أمام عواطف الآخرين .. لقد كانت أمه .. وحضن أمه وأصابعها وهى تتخلل شعره المبتل بعد حمام الجمعة وأغانيها الحزينة وهى تحاول أن تجعله يتسلام مبكراً وهو مازال يحن لحمام ضيق ساخن يملأه البخار المتصاعد منصفيحة ممتلئة بماء يغلى فوق موقد جاز.. وصوت الشيخ محمد رفعت وهو يقرأ ســـورة مريم . أمه علمته أن الحب يصنع المعجزات مهما كانت الامكانات قليلة .

ففى شتاء شديد البرودة فيمـــا بعد الحرب العالمية الثانيـــة مباشرة وكانت الأسعار فى ارتفاع جنونى يشبه الارتفاع الذى حدث بعد حرب ٧٣ مباشرة أمسكت امه ببطانية قديمـــة وفصلتها معطفا لتقيه البرد .. كان

يكره هذا المعطف .. ولكنه بعد ذلك تعلم كيف يستطيع الحب ان يدفىء.. حب الأم لأطفالها مع عجزها المادى وهكذا تستطيع أن تشاهد تأثير هذا المعطف عندما يتصادف ويتواجد فى موقف يتعامل فيـــه مع أم غير قادرة فى زمن اسود لاحق من عصر الانفتاح .

لم يكن اختيار الشركة الأمريكية له ليصبح شريكا لها وعضوا لمجلس ادارة شركتها الجديدة فى مصر عفويا .. لقـــد كان له مبرراته .. فقـــد كان يتقن لغة العصر بعد أن تعلمها خلال عمله فى شركات القطاع العام وخلال عمله كمدير فرع شركة مصرية فى العراق تعمل فى المقاولات لقـــد تعلم مفردات الادارة الأمريكية وبرع فيها مبكرا عن عصر الانفتاح بحيث أصبح مؤهلا للتعامل مع الوحوش القادمة من الغرب لاستنزاف آخر قرش ناتج من عرق جبين المصريين .

اما الآخرون فكانت أسلحتهم هى قربهم من السلطة فاصبحت مهمتهم اسهل ولا تحتاج لدراسة او مؤهلات كل ما كان عليهم أن يفعلوه هو أن يلبسوا قناع الكومبرادور .

وما الكومبرادور يا صديقى .. هو رجـــل .. أو ســـيدة .. يتقن اللغة الانجليزية ويفضل أن تكون باللهجة الأمريكيـــة .. ويلبس ملابس مستوردة يفضل أن تكون فرنسية .. ويدخن ســـجائر مستوردة ويفرق جيـــدا بين أنواع الخمـــور المختلفـــة .. ويقـــود عـــربة فارهـــة من أحدث موديل ثم .. ثم ينفذ أوامر أســـياده القادمين من الغرب مستعينا بقربه من السلطة أو قدرته على رشوة من هو قريب منهـــا لتسهيل مهمة استنزاف الثروات .. وهـــو فى سبيل ذلك يحصل على قدر من هـــذه الثروات يسمح له بالتعالى على مواطنيه وارتياد أماكن لا يستطيع غـــيره تحمل تكلفتها وافساد الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى بلده.. وهو سعيد . لم يكن صديقنا كومبرادور! والا كيف يتسق هذا مع تربيته .

فى يوم من ايام يناير ١٩٥٢ كان عائدا مع والدته من زيارة وكانت القاهـــرة تحترق .. وكانت البضائع ملقـــاة فى الشوارع بالاكوام بمئات الجنيهات التقط من الاشياء الملقاة لعبـــة صغيرة عاد بهـــا الى منزله .. كانت أمه تبكى من الخوف وكان والده مهتاجا وهو يقول أن الملك والانجليز حرقا القاهرة .. وزاد اهتياجه عندما شاهد ماغنمه صغيره من الحريق ثمر اللعبة .. وضربه .. وأهانه .

ولم ينس صديقا أبدا انه لا يحق له أن يغنم شيئا لنفسه من خلال دمار بلده . فهل من الممكن أن يصبح صديقنا كومبرادورا يعيش على اطلال خرائب اقتصاد بلده ؟

كان من الممكن .. فعشرات بل مئات من أبناء جيله سمحوا لأنفسهم بأن يقتطعوا بعض المغانم خـــلال الفوضى .. ولكن مامنعه شىء آخر .

عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ كان صديقنا ولدا صغيرا .. لم يع بعد ما معنى الثورة .. ولكنه تحمس لها .. وأحبها عندما شاهد فى الجرائد صور صديقين لوالده من بين قادة الثورة .. كان يعرفهما جيدا .. وكانا يداعبانه عندما يزوران والده .. كان أحدهما واسمه عبد الحكيم يسأله دائما ما هو الأثقل رطل القطن أم رطل الحديد ؟

ورغم انه اجابه بالاجابة الصحيحة اول مرة الا انه كان دائما ما يسأله نفس السؤال .

أما الآخر وكان عبد الناصر .. فعندما قابله فى مدرسته حيث كان قادة الثورة يقومون بجولاتهم لتعبئة الجماهير بعد ثورتهم مباشرة ميزه من بين زملائه وأمسكه من يده وحمله تحياته لوالده .

وبعد ذلك لم يعد يراهما فى منزله .. لقد كان والده عزيز النفس لم يحاول التقرب منهما أو استثمار علاقته بهما .

كان يقول لم يعودا ملكا لأحد .. انهما ملك مصر .. حتى رغم ما حدث بعد ذلك .. عندما قسم رجال الثورة المناصب والنفوذ على بعضهم البعض وعلى صغار الضباط ظل والده بعيدا .. لقد شاهد هذا بنفسه .. كان الآخر يقول :

لقد قلت لهم أنا لا ينفعنى رئيس مجلس ادارة شركة .. وكيل وزارة .. او مدير مصلحة كبيرة .. أو أبقى فى منزلى .. انا لست أقل عن فلان وفلان وفلان ..

وكان والده يبتسم بسخرية وأدب .. ولكنه انفجر عندما انفرد بالطفل مبررا له انه متصور انها عزبة أبوه ثم مدافعا — لكن عبد الحكيم وجمال غير كده .. عبد الحكيم مؤمن وجمال ذكى ومخلص فعلا اما الآخرون فمصيرهم مذبلة التاريخ .. ولم يكن يريد أن يكون مصيره هذه المذبلة . لذلك سأل مدير الشركة الأمريكية — ولكن لماذا كل هذه الاضافات ؟

ان ربحية مناسبة وادارة علمية تستطيع توفير نسبة عالية من الفائد تجعل سعرنا مناسبا .

كان الآخر قد انفعل تماما لم يكن متصورا أن هناك مصريا مهما كان حتى ولو كان شريكهم وعضوا بمجلس الادارة يستطيع أن يناقشه بهذه الطريقة رد بجفاء — نحن ادرى بما نفعل .. كل ما هو مطلوب منك أن تجهز قائمة بقيمة وأسعار الخدمات المحلية .

أجاب بصبر — ولكن هل دورى هو تزويدكم بالمعلومات أننى مشارك فى الشركة ومتحمل مسئولية سياستها .

رد الآخر بتعال ـــ مشارك بماذا لقد اقرضناك نصيبك فى راس المال لا ننس هذا ـــ اذا ـــ اذا كنت تريد أن تستمر .

سقط من حالق .. لقد تصور انهم دعوه لمشاركتهم لخبرته فىالادارة ومعرفته بالسوق المحلية لذلك أقرضـــوه نصيبه من رأس المال ولكنه لم يتصور أن الهدف من مشاركته واقراضه هو اتمام الصفة القانونية لانشاء شركة استثمار تعافى من الضرائب لمدة خمس ســنوات وانه صيرة فقط اجبرتهم القوانين المحلية على اتباعها .. وقرر دخول المعركة .

كان الجنود الانجليز يجلســون على حافة الشبابيك نصف عــراة حمر الوجوه يقذفون المارة بقشر البرتقال والموز فى ميدان*الاسماعيلية .. وكان والده يكرههم .. كان يقول انهم مستعمرون وانهم أساس البلاء .

عندما خرجوا من القاهرة كان يبكى من الفرح ويتكلم عن اليومالذى يخرجون فيه من مصر كلها .. واليوم الذى ستصبح فيه القناة ملكنا .

وخرجوا بعــد ذلك من القناة وعادوا ثانيا .. كان قد أصبح شابا طالبا فى اعدادى هندسة .. وأغلقت المدارس والجامعات وهاجمت مدن القناة وسيناء قوات انجليزية وفرنسية واسرائيلية .. وثارت مصر كلها خرجت للشــوارع تحمى ثورتهــا وبطلها والتحق صــديقنا بفرق الدفاع المدنى .. اشترى خوذة من وكالة البلح وبقى فى الشوارع يحث المواطنين على اطفاء الأنوار والالتزام بتعليمات الدفاع المدنى ليلا .. وفى الصباح كان يجرى خلف الطائراتالمغيرة ويهتف لمصر .. حنحارب .. حنحارب.. كل النــاس حتحــارب مش خايفين من الجايين بالمــلايين حنحارب .. حتى النصر .. تحيا مصر .

واندحر العدوان .. ورسب صديقنا لأول مرة .

فى بعض الاحيان يصبح الفشــل افضل من النجــاح .. اذا اتاح الفرصة للانسان بأن يراجع مواقفه وعلاقاته بالعالم ويدفعه للتغيير .. للأفضل . وهكذا عنــدما اكتشف صــديقنا أن نجاحه فى تأسيس شركة استثمار كان نجاحا وهميا .. وأنه اندفع خلف احــلام سرابية صورت له انه باستطاعته التحالف مــع الوحش الامبريالى الأمريكى والاستفادة من خبراته وامكانياته والتعلم منــه .. عندما اكتشف أنه مخلب القط الذى سيستخدمه شركاؤه للحصول على الثمار الناضجة داخل اتون الحياة فى بلده الفقير المبطى .. عاد لمراجعة تصوراته وحياته تماما كما فعل عندما رسب لأول مرة بعد العدوان الثلاثى على مصر .

قلت لكم ان والد صديقنا كان يحاول أن ينضجه مبكرا وهو فى سبيل ذلك كان يحبسه فى حجرته الصغيرة ليستذكر دروسه ساعات طوالا مانعا

---

* التحرير الآن

اباه من اللعب مثل باقى الأطفال .. وكان هو فى مواجهـــة ذلك يلجأ الى الخيال وأحلام اليقظة يبنى من خلالها قصورا ولكنه كان أيضا يسرق .. يسرق القصص والكتب من مكتبة أبيه يخفيهـــا بين طيات كتبه المدرسية ويظل لســـاعات يقرأ .. وتعـــود على القراءة .. فكان يقضى معظم ساعات أجازته بالمكتبة العـــامة المجاورة لمنزلهم فى حجرة الأطفـــال يقرأ القصص السحرية ويعيش فى عوالم غريبة من ألف ليلة وليلة ومجموعات الكيلانى ومترجمات أدب الأطفال العالمى .. حتى التقطه أمين المكتبة فى يوم ما فوجهه لتوفيق الحكيم ليقرأ يوميات نائب فى الأرياف .. ومنذ ذلك اليوم تعرف صديقنا على باقى نوابغ الأدباء .. وبدأ يوفر من مصروفه الصغير ليشترى كتبا .

لقد كانت هذه هى السمة الرئيسية لعديد من أبناء جيل صديقنا فلم يكن التليفزيون والفيديو والكاسيت قد أفسدت ذوق الشباب بعد .. وكان الكتاب هو ملجأهم .

وهكذا عندما رسب صديقنا لجـــأ الى الكتاب يحـــاوره ويستشيره ويرجوه أن يفسر له أسباب نكسته .

بدأ بالبداية الطبيعيـــة .. الدين .. القرآن .. ووجد الهـــدوء والراحة ولكن كان صـــعبا .. وغامضـــا .. ان القـــرآن المسموع اكثر سهولة .. ولكن المكتوب يحتاج لتفســـير وشرح وكانت مكتبة والده التى ورثها عن جـــده مكتظة بكتب الشرح والتفسير .. وغاص صـــديقنا بين جنبات الأوراق الصفراء للبخارى والطبرى والغزالى وشلتوت .. ولكنها جميعا كانت تتكلم عن أحداث مرت عليها اربعة عشر قرنا .

ولم صديقنا .. ان العالم يتغير حوله بسرعة غريبة .. وهو لازال يبحث عن شروح وتفســـيرات .. حتى صادف فى مكتبة والده ايضا .. (هذا .. أو الطوفان) .. كتاب صغير لكاتب شيخ ثائر يسمى خالد محمد خالد .. وشغف به .. انه ضالته .. نظرة عصرية متدينة .. هذا هو ما يريده بالضبط .. وقاده خالد بين كتبـــه (لكى لا تحرثوا فى البحر) .. (من هنا نبدأ) .. (الديموقراطية أبدا) .. (معا على الطريق محمد والمسيح) . كان خالد ذا ثقـــافة دينية موســـوعية .. يتكلم عن المسيحية واليهودية وحتى عن الديانات غير السماوية وبدأ صديقنا يقرأ بشغف التوراة .. الأناجيل .. بوذا .. كونفوشيس .. زرادشت .. اخناتون .. الديانات المصرية القديمة .. الطوطمية .. الهندوكية .

أصيب بخيبة أمل فى بعض الأحيان .. وبسعادة فى احيان اخرى .. ولكنه كان دائما ما يشعر بالحب والاحترام لكتب القدماء .. حتى تعرف

عليه (سلامة موسى) .. وكان الف شمس قد اضاءت عقله .. لقد كان سلامة موسى بحق استاذ التنوير لجيل صديقنا .. لقد تعلم منه قيمة الاطلال على منجزات العصر الحديث .. نظرية التطور .. علم النفس.. وظيفة الفن والأدب .. اينشتين .. الاشتراكية .. المرأة ليست لعبة الرجل .

وبدا صديقنا طريقا لم ينته بين جنبات الكتب قدم له المعرفة التى منعته بعد ذلك من أن يكون كومبرادورا .

وهكذا راجع صديقنا علاقاته مع الأمريكان .. لقد كان مستشارهم.. نعرف عليهم عن طريق صديق عندما طلبوا منه اعداد دراسة لعطاء كانا سيتقدمان به معا هم وصديقه .. وكان قد تعلم من قبل كيف تدرس العطاءات وبنفس طريقتهم فى الدراسة .. تحليل البنود الى مكوناتها الرئيسية .. مواد وعمالة ومعدات .. حساب كميات المواد المستخدمة ونسب استخدامها وهوالكها .. تحديد أسعار هذه المواد ونقلها وتخزينها .. تحديد العمالة المطلوبة وانتاجيتها وأجورها وأعبائها من طعام واسكان وتأمينات اجتماعية وانتقالات ومكافآت .. تحديد المعدات المطلوبة وقيمتها ومقدار قيمة استهلاكها ووقودها وصيانتها وباقى مصاريفها .. والزمن الذى تستخدم خلاله .. ترتيب هذه المعلومات من خلال معادلات مختلفة ثم تحديد التكلفة .. ثم بعد ذلك تحديد المصاريف العمومية .. اجور الجهاز الاشرافى .. الاسكان .. المكاتب الورق .. التليفونات .. اللوكاندات.. السفريات .. قائمة طويلة من الانشطة .. ثم اضافة نسب التأمينات والمخاطر غير المنظورة ومعناها الرشاوى والاكراميات ثم الأرباح .. تجمع كل هذه التكاليف .. تحدد قيمة العملية ومقدار التمويل المطلوب .. ومنه يتحدد قيمة التسهيلات التى سيقدمها البنك واتعابه فى مقابل ذلك .. والذى يمتلك التمويل والتسهيلات هو الذى يتحكم فى العمل .. لأن البنوك لا تمنح تسهيلاتها الا بضمانات خاصة .. وهو الأمر الذى استغلته الطبقات التى اثرت بسرعة .. عن طريق مجموعة من العلاقات المتشابكة بالبنوك .

كان صديقنا يمتلك العلم الذى بواسطته يستطيع أن يدرس أما الباقون فقد كانوا يمتلكون الصلات التى بواسطتها يستطيعون أن يمولوا.

وقدم صديقنا لهم دراسة اقنعتهم واستطاعوا بواسطتها الحصول على اول عملية لهم فى مصر .. وبالطبع لم يكن يعلم فى ذلك الحين أن دراسته استخدمت كما هى وأن بندين وحيدين تم تغييرهما بالزيادة وهما غير المنظور والارباح .

وسعدت جميع الاطراف .. الأمريكان .. وشريكهم .. والذين حصلوا على غير المنظور .. وصديقنا .. حتى اختلف الشريكان .

يقول صديق لصديقنا ان المشاركة نظل قائمة متى كانت انتهازية الشركاء متساوية ولكن عندما نختل نسب الانتهازية تنفض الشركة .

وهكذا انفضت الشركة عندما اختلفت انتهازية الشركاء .. لقد حاول الشريك المصرى الحصول على هامش أوسع من شراء المهمات والمعدات وما يلى ذلك من زيادة العمولات التى يحصل عليها سرا .. واصر الشركاء الأمريكان على شراء جميع المهمات والاحتفاظ بالعمولات لصالحهم .

وانفضت الشركة .. وبدا الشركاء الأمريكان يبحثون عن بديل مصرى له مواصفات خاصة اهمها ألا يشاركهم فى عمولاتهم ويرضى بقليلة وكان صديقنا ضالتهم .

تصور أنهم اختاروه لاعجابهم بدراسته والحقيقة التى اكتشفها بعد ذلك انهم اختاروه لأن طموحاته أقل وسيرضى بالفتات .. وليحمد الله ان اتيحت له فرصة وظيفة كومبرادور فى شركة امريكية .

الفصل الثانى

وقف قطار العـــريش على المحطة .. واحتضنته عشرات الوجوه السمراء فهو الصلة الوحيدة بين بلدهم ومصر .. وهو يحمل الخطابات.. الطعام والمسافرين .. وفى موعد قدومه تعلن حالة الطوارىء فى البلد .

نزل منه شاب عمره اثنـــان وعشرون عاما .. حضر من الوادى ليعمل مهندســـا باســـكان ومرافق سيناء بعـــد أن قرر خوض المغامرة والمشاركة فى جيش العمل بنقاء أبناء الثورة .

كان يحمل خوفه من خبرته المحدودة .. وخوفه من عدم القدرة على التأقلم .. وخوفه الأعظم من الاعيب المقاولين .

لقد صوروا له ــ فمحاولتهم لاقناعه بالرضا والاستسلام لوظيفته فى المكتب العربى للتصميمات ــ مدى اجرام وخطورة المقاولين .. سيسرقون الحـــديد سيغشون فى الاسمنت .. ســـيخطفونك .. ســـيقتلونك .. سيلوثونك .

ولكنه كان يحمل معه حماس شاب خطا وطنه اولى الخطوات نحو الاشـــتراكية نحو الرفاهيـــة .. تخلص من الاستعمار .. ويقف شامخا مناطحا قوى التخلف والرجعية .

كان يحلم بالحق والخـــير والجمال والرفاهية والعـــدل وكل ماهو جميل وكان يتصـــور أنه مسئول مسئولية شخصية عن نجاح الثورة بأن يعمل بأن يقاوم كل القبح والحمق وجيوش الرجعية والاستغلال .

لقد كان الميثاق لم يجف حبر طباعته بعد .. وكانت كلمات العمـــل حق .. العمل واجب.. العمل حياة .. هى الضوء المتوهج الذى يدفع فى شرايينه وعشرات المئات من جيله بالأمل والرغبة فى المشاركة .

نزل صديقنا وكانت قد نبتت له شعيرات صغيرة أسفل ذقنه رتبها بنظام وعناية مرتديا بدلة رمادية لها فتحتان خلفيتان كأحدث موضة وبابيون أسود وبيده كتاب ضخم اشـــتراه من أول مرتب له بعـــد طول اشتياق لامتلاكه .

خطـــا خطواته الأولى على محطة العريش منتشيا من الكلمـــات التى كتبها نهرو لابنته انديرا غاندى فى لمحات من تاريخ العالم .. سكران من منظر النخيل القائم على شاطىء البحر مستمتعا بخروجه الأول من القاهرة متخوفا من تحمل مسئولية حياته من مأكل ومشرب وسكن وعمل .

سأل أحد الواقفين عن مستقبليه من هندسة الاسكان .. وهنـــا تنبه للصدمة التى أحدثها عندما التف حوله جمهرة من المستقبلين المنتظرين فى ترقب مشاهدة المهندس الجديد .

نفس الصدمة التى أحـــدثها عنـــدما رفض تقبيل يد البـــابا كرلس والشيخ الصاوى شيخ مشايخ الطرق الصوفية عندما قابلهما على التوالى بحثا عن اليقين بعد ما شوشته الفلسفة والعلم .

نفس الصدمة التى احدثها عندما ثبت أن وجهة نظره كانت الصحيحة وانهم قد خسروا العطاء وفقدوا مائة الف جنيه لأن الأمريكان لم يستمعوا الى ملاحظاته وتوصياته .

لقد كانت هوايته صدم الآخرين بتصرفاته وأفكاره وعلاقتـــه بالعالم كان مستقبلوه فى انتظار عجوز غير مرضى عنه ومنفى من القاهرة وكانوا قد أتقنوا التعامل مع هذا النوع .. فان بعض الخدمات الصـــغيرة كفيلة بجعله أداة طيعة بين ايديهم .

ولكن ذلك الشاب المنتفخ كالديك ترى كيف سيتعاملون معه ..

وبنفس الخطأ فى التقدير الذى حسب به ابن العم سام علاقته مع صديقنا تصرف مقاولو العريش وموظفو الاسكان .

طلب منه مديره مصاحبة احد المقاولين لاســتلام مستشفى العريش استلاما نهائيا .. كان أول أيام عمله .. ولم يكن يعرف ماهو الاستلام النهائى وكيف يتم .. ولم يشرح الآخر له .. مضى مع مجموعة من العربان فى سيارتهم لاستلام المستشفى .

فى الطريق قالوا له أنه قد تم استلامها ابتدائيـــا .. ولكن المحضر فى الاسماعيلية .. وانهم بانتظاره منذ مـــدة لاستلامها نهائيـــا وصرف التأمينات .. وان كل ما عليه أن يوقع بعض المستندات .. ثم اصطحبوه الى كابينة على شـــاطىء البحر .. والبحر فى العريش تحفة فنية رائعة

رمل ناعم .. مياه هادئة .. نخيل على الشاطىء والماعز ترعى الاعشاب في هدوء وســـلام .. لاضوضاء .. لا ازعاج .. ولا زحمة ولكن داخل الكابينة كان هناك ماجعله يشعر بالرعب .. لقد عرضوا عليه ان يمنحوه اياها بدون ايجار ليسكنها .. وتذكر ذلك المقاول الأســـمر السمين الذى قابله فى القاهرة .. كان يعرض عليه أن يعمل معه بمرتب مائة جنيه .. رقم لم يحلم به أبدا .. عندما تردد زاد الآخر المرض لمائة وعشرين .. أربعة اضعاف مرتبه .. جـــرى من أمامه وظل يجرى حـــتى اصبح فى الشارع .. لقد شعر بحاسة غير محددة أن هنـــاك شيئا ما خطأ .. والا فما الداعى لعرض هـــذا المرتب المبالغ فيه .. حفظه نقـــاؤه .. فجرى .. وفى كابينة العريش أيضا .. جرى حتىوصل الى العربة .. والآخرون يجرون خلفه متعجبين .

انها نفس طريقة لاعب الشـــلاث ورقات يداعب انتهازيتك فتتصور انك يمكنك أن تكسب مكسبا سهلا .. فتخسر كل ما تملك .. أن اى مكسب سهل لابد وان يجعل المرء يتساءل ولماذا ؟

انه لا يؤمن بالحظ .. والأمور لديه مسببة .. اذا فقدت سببيتها فقدت منطقها وبالتالى فهى فخ مختف لاصطياد الانتهازيين .

عندما عرض عليه ابناء العم سالم مشاركتهم تذكر ذلك ولكنهم ردوا عليه بانه كفاءة فهم لديهم المال ويحتاجون لخبرته .. وكان هـــذا أيضا فخا آخر .. لقد اصطادوه من ثقته الزائدة بنفسه .

عندما عاد لمدير المديرية مع العربان قدم تقريره من سطر وأحد ..

« نظرا لعدم وجـــود محضر التسليم الابتدائى فلا يمكن اســـتلام المستشفى نهائيا » .

ضحك الآخر .. ولم يخف تواطؤه معهم .

قائلا ـــ الم اقل لكم انه ليس سهلا .

ولكن لم تسلم الجرة فى كل مرة .. لقد كان عليـــه أن يتعلم الكثير وليس هناك من يعلمه .. وشعر بالمرارة والاحباط . ،ان أنصـــار الثورة لا زالوا ضـــعافا .. ان قلة خبرتهم ســـتؤدى الى التهلكة .. ان النظام القديم لازال قويا .. وهاهم يهادنونه .

ولجأ الى اصدقائه التقليديين .. الى الكتاب .. الى المواصفات المطبوعة وأصبح بيروقراطيا كريهـــا .. يصر على تنفيـــذ نصوص كتبت بدون واقعية .. وبغض النظر عن الظروف الفعلية .. واشتكى منـــه

المقاولون وزمـــلاؤه .. ومرؤسوه وكاد أن يستسلم .. أما للفوضى او للدوجماتية .. حتى وجده .

كان مهندس المقاولين شـــابا يكبره بخمس ســـنوات ولكنها كانية ليصبح اكثر مرونة وفهما .. بدأ يعلمه دون أن يجرح مشاعره .. ودون أن يشعره بجهله .. ودون تعال .. عرفه منه ما هى « الشدة » وكيف يستلمها .. وكيف يستلم حديد التسليح والشروط الواجبـــة لذلك وكيف يخطط موقعا والأهم كيف يعد مستخلصا لصرف دفعات المقاولين .

وهكذا ايضا عندما خرج من القوات المسلحة بعد أحالته الى المعاش علمه رئيسه بشركة المقاولات التى عمل بها بعد ذلك كيف يعد دراســة للأســـعار وكيف يحلل البنود وكيف يتابع الأعمـــال والأهم من ذلك كيف يطلع على أحدث علوم الادارة فى العالم ويستفيد منها فى تطوير عمله ليمتلك اللغة العصرية التى تجعله قادرا على التعامل مع المغامرين القادمين من الغـــرب .

وفى العريش استكمل صـــديقنا اساسيات بنائه الثقافى التى بداها بعد رسوبه الأول فى اعدادى هندســـة .. ان الفلسفة الوجودية التى جذبته بشدة وجعلته يحطم اغلاله .. اغلال الخوف ويواجه العالم بروح التحدى والمغامرة .

الفلسفة الوجودية التى تسببت فى أسوأ فترة لعلاقته بوالده عندما حاول الخروج عن دائرة تأثيره وأرادته .. تطورت لديه لتترك الفرصـــة للماركسية لتعيد بناء مجمـــوعة من القيم والأفكار الخاصـــة بمادية الكون وحركته وتطوره .

ان علاقات التبعية التى سادت ذلك الزمن بين الرجل والمراة تحطمت ايضا لتحل محلها مفاهيم جديدة عن حرية المـرأة وحقها فى الحياة بنفس القدر والتساوى مع الرجل .

وبدا صديقنا يطل على عوالم جـــديدة من الموسيقى والعلم والفن والفلسفة والحب والحياة عوالم ممتلئة بالأضواء والألوان والهواء النقى. وبدا يدرب نفســـه على ســـماع الموسيقى الكلاسيك واســـتيعابها وعلى تفهم الفنون الحديثة وتذوقها .

بعد ذلك عندما عاد للقاهرة كان المنـــاخ الثقافى والفنى فى القاهرة مزدهرا الى درجة لم تشهدها من قبل أو بعد .. لقـــد تكونت عديد من الفرق المسرحية عرضت مسرحيات طليعية وتقدمية كانت المدرســـة التى تربى فيها جيل صديقنا .

وصـــاحب ذلك بدء البث التلفزيونى وتكوين اول فرقة سيمفونيـــة ومعاهد للباليه والموسيقى .

لقد كان صديقنا يتحدث عن هـــذه الفترة باعزاز شـــديد خصوصا عندما يناقش شباب الانفتاح والفيديو .

وتطورت قدرات صديقنا الفنية لغـــد اصبح افضل مهندسى المديرية واحبهم للمقاولين لانه يقوم بواجبه على افضل وجه وباكثر درجات المرونة وفى نفس الوقت الشرف .

وانقطعت دخول اضافية لعدد من معاونيه ورؤسائه فاحالوا حياته الى صراعات دائمـــة .. ان قوة اغراء بضائع غـــزة ورفح القريبة .. ونقص المرتبات كانت عوامل ضغط غير متصور تأثيرها على موظفى هندسة اسكان ومرافق ســـيناء فى ذلك الوقت .. وكان هو العقبـــة امام مصادر الدخل الاضافى فقرروا ازاحته من طريقهم .

وهكذا دائما ما يصنع الصرع الاستهلاكى .. ان عصر « الانفتاح » العظيم كان المحصلة النهائية لعديد من التجارب الصـــغيرة التى تمت فى عصر « الانغلاق » المبارك .

التجربة الأولى كانت تتم فى الاجزاء الملاصقة لغزة ورفح اما التجربة الثانية فكانت فى اليمن .. عندما تحول الجيش المصرى الى مجموعة من التجار ومهربى العملة كما سنرى بعد ذلك عندما يسافر صديقنا لليمن . عندما كان يقص على والده ملاحظاته فى سيناء .. كان الآخر يبتسم فى اشفاق ثم يشحنه بمصل مضاد كان يقول له :

انت لازلت فى مستهل حياتك .. والعالم لم يبن فى يوم واحد لمـــاذا تتعجل الحياة الرغـــدة .. ما تتقاضاه اضعاف مضاعفة لمـــا يحصل عليه الاغلبيـــة العظمى من مواطنى بلدنا .. وانت افضـــل حظا انك مهندس وستصبح فى يوم ما فى مركز ممتاز وتحصل على مرتب كاف وتعيش بالشكل الذى تتمناه اما الثراء السريع عن طريق السرقة والرشـــوة والسمسرة فهو انتحار .. لن تستطيع أن تعيش متوافقا مع نفسك ابدا لو سقطت يوما امامها .. تستطيع أنتضحك على العالم كله عدا شخصا واحـــدا هو أنت .

وكان والده محقا فى جزء من كلامه .. ولكنه جانبه الصواب فى جزء آخر فكيف كان سيمكنه أن يعرف بعصر الانفتاح وما سيغيره من مقاييس خصوصا فى قيمة المهندس .. وقيمة الشرف .

فى النهاية قرر صديقنا امرا وهو يشاهد التليفزيون الجديد فى عيـــد الثورة والطوابير العســـكرية تستعرض امامه .. لقد قرر الهروب من

مقاومة جيوش الرشـــوة والسرقة والسمسرة فى العريش .. والالتحاق بالقوات المسلحة ضابطا مهندسا حيث المنـــاخ اكثر نقاء وأبعد ما يمكن عن السقوط الأخلاقى فهم بعيدون عن اغراءات التلوث المدنيـــة وهم فى نفس الوقت الذين توفر لهم الدولة أفضل مستوى معيشى بمرتباتهم الزائدة قليـــلا .

قبل أن يترك صديقنا مكان المعركة قرر أن يدمر الالغام المخباة فى هندسة اسكان ومرافق سيناء وذلك باللجوء الى السلطة .

فالسلطة فى ذلك الوقت كانت الملاذ للشرفاء .. السلطة .. التى جاءت بهـــا الثورة .. وطردت الانجليز .. قاومت العدوان .. وقضت على الاقطاع .. وهى التى رفعت رأس مصر عاليا فى باندونج وبريونى وكان عبد الناصر ممثلها هو احد ثلاثة عظام أقاموا حركة عدم الانحياز . وأجبر دالاس وأمريكا على الخضوع لرغباته .

ولم تكن السلطة فى نظره فى ذلك الوقت هى التى أوقفت الحيـــاة السياســـية ودمرت الديموقراطية وبثت الرعب فى قلوب البشر وحطمت مبادئهم الفردية والجماعية وجعلتهم يعيشون داخل بلدهم فى غربة .

فالاعتقالات السياسية للأخوان والشـــيوعيين ومفســـدى الحيـــاة السياسية من رجال الاحزاب القديمة لم تكن فى نظره اغتيالا للديمقراطية والحرية والشرعية والدستور وانما كانت اجراءات ثورية ضد أعداء الثورة. أما ما يتم من تجاوزات فهى تخص صغار البيروقراطيين والمنتفعين ولاتمس طهارة الثورة ورجالها وقائدها .

قلت ولجأ صديقنا الى السلطة الى الوزير بنفسه .. كان أستاذه فى الجامعة .. قابله شجعه استمع له .. ثم .. عرض عليه أن يعمل معه فى مكتبه عنـــدما علم برغبته فى الالتحاق بالقوات المسلحة .. ولكن امام اصرار صديقنا تمنى له الحظ السعيد فى خدمة وطنه .

وأعاد ترتيب وتجهيز هندسة أسكان ومرافق سيناء مستهديا بتقرير صديقنا الصغير .

ملأته هذه التجربة املا وثقة .. وغرورا .. لقد استجاب أستاذه لتقريره وهذا يدعو للعجب فلقد كان من الجيل الذى تمتع بمجانية التعليم وازدحام المدرجات فى الجامعات وفقدان الصلة بين الأستاذ وطلبته . فلم يؤثر فيه استاذ واحد طول فترة دراسته .

وكانت الجامعة بانفصالها عن المجتمع عبارة عن معهد لتفريخ المتعلمين نصف المثقفين رغم أنه لم يكن قد أصابها بعد تدهور عصر الانفتاح والذى حدا بصديقنا بعد ذلك الى اعتبار فترة دراسته فى الجامعة رغم انفصامها العصر الذهبى للتعليم الجامعى .

وكان من الجيل الذى انزاحت من أمامه الحواجز الى القمة فلم يعد هناك ابناء ملوك او امراء او وزراء او اعيان وانماطريق مفتوح بدون اشارات الا لمجهوده وقدرته واخلاصه وهو الأمر الذى لم يستمر طويلا بظهور امراء وملوك جدد . وهو أيضا من الجيل الذى سمحت له السلطة بالقراءة فى العلن ودون أن تفرض عليه المحظورات .. جميع الكتب فى المكتبات ودع مائة زهرة تتفتح ومائة فكرة تتصارع وهى الأمور التى قضت عليها سياسة الانفتاح الاقتصادى والفكرى والارهاب العسكرى والبوليسى وموجات اجهزة الاعلام الفائقة القوة والتاثير .

اقول ان صغيرنا وهو منتشى بما حدث فى مكتب استاذه الوزير سار واثق الخطى مقدما نفسه للكلية الحربية ليصبح ضابطا مهندسا .. ولم يشعر بالكارثة المتجه اليها بنفسه الا وهو فى حمام السباحة الخاص بالكلية الحربية ومجموعة من الصف ضباط الطلبة ينبحون حوله صائحين .. يا شخاخ .. يا عيل .. يا مستجد .

الفصـــل الثـــالث

كان يتحرك كما لو كان فارسا من فرسان السينما الأمريكية برشاقته وطوله .. وبنطلونه الكحلى ذى الخطوط الرفيعة والجاكيت الموهير الابيض وربطة العنق الزرقاء الحديثة .

كان قد خرج لتوه من بين يدى حلاقه بعد أن قص شعره على أحدث موديل وصل اليهم من بلاد الفرنجة .

لقد استسلم صديقنا لأجهزة صبغ الانسان العالمية واصبح نمـــوذجا من نماذجها .. وقديما قال هربرت ماركوس ان أجهزة الاعـــلام والموضة والدولة تصب الأفراد فى نمـــاذج من ابتكارها ليصبحوا نسخا متشـــابهة وتمسخ كلا منهم ليكون انسانا ذا بعد واحـــد يلبس ما يريدون ويستهلك ما يدفعونه لاستهلاكه ويفكر ويتكلم ويتصرف بشـــكل مخطط له مســـبقا كما لو كان قد كتب فى اللوح المحفوظ .

قاوم صديقنا طويلا عندما حاولوا صبه فى قالب عسكرى بالكليـــة الحربية وما بعدها .. ولكنه استسلم عندما قرر أن يكون رجل اعمـــال انفتاحيا فهو لكى يكون مقبولا من الانفتاحيين فيضمونه لناديهم عليه ان يمثل نموذج رجل الاعمال .. الملابس المستوردة على أحدث طراز .. السجائر الأمريكية .. العربة الفارهة .. وارتياد الأماكن الخاصـــة ذات التكلفة العالية وعليه أيضا أن يتقن الانجليزية حديثا وكتابة وقراءة .

هكذا قالت له .. وهى تحاول ان تقوده خلال دروب الغابة المتشابكة وهكذا رسمته قبل أن يقابل رئيس مجلس ادارة الشركة الأمريكية .

ألقت عليه النظرات الأخيرة وتأكدت من انه لم ينس شـــيئا .. ثم تقدمته الى حجرة الأمريكى .. الذى وقف مرحبا به بشكل متكلف .

قال ـــ لقد اختلفنا مع شريكنا المصرى .. وهو قد وافق على بيـــع أسهمه ولكن القانون يحتم أن يشتريها مصرى .. لابد وأن يكون للجانب المصرى على الاقل نصف الاسهم .. ولقد بحثنا طويلا .. واستقر الراى عليك فما رأيك ؟؟

رد صديقنا (وهو يبحث عن خطوط انتهازيته التىيجذبه منهاالامريكى) ولكننى لست مستعدا لاستثمار بهذا القدر .. !!

حسم الأخر الموقف بسرعة وكأنه يملى قرارات غير قابلة للتعديل .. سنمنحك قرضا يسدد على خمس سنوات .. وسيحدد لك مرتبا ألف جنيه شهريا وستكون مهمتك الادارة والاشراف على العمالة والانشطة المحلية .. وستتحمل نحن جميع التكاليف لحين الحصول على أعمال جديدة .. ســـواء كانت تكاليف دراسات أو سفر أو خلافه على أن نحصل على ستين بالمائة من الارباح .

كان العرض مغريا تماما .. خدر جميع مراكز المقاومة لديه فورا .. وكانت هى تبتسم فى سعادة فهى التى رشحته لهم .. وكانوا قد أعـــدوا صيغة عقد وقعها الجميع وأصبح مساهما فى الشركة المصرية الامريكيـــة بنسبة خمسين بالمائة .

لقد وضع قدميه على اولى سلالم النجاح والانطلاق بعد رحلة طويلة منذ أن واجهه مدير سلاح المهندسين قائلا :

والآن يمكننا أن نوفر لك مكانا اداريا .. اننى مشـــفق عليـــك ماذا ستفعل بعد أن تخرج من القوات المسلحة .. ؟

رد ـــ اننى مهندس .. وسأبدأ من جديد .

لقد جاهد كثيرا لكى يترك القوات المسلحة .. ومنذ أول يوم .. منذ زمن طويل بعـــد أن أجتاز الكشف الطبى وتقدم للجنة كشف الهيئة .

كانت اللجنة فى الماضى القريب هى البوابة للجنة هكذا تعلم ســـواء من قصص يوسف السباعى أو من الفضائح التى نشرت فى جرائد ما بعد الثورة عن الوضع قبلها .

لقد كانت لجنة كشف الهيئة ذات وظيفة خاصة وهى التأكد من أن ضباط القوات المسلحة من أصول ارستقراطية لضمان ولاء الجيش للنظام.

ترى ماذا ستكون وظيفة لجنة كشف هيئة ما بعد الثورة ، وظـل صديقنا يجهز ردودا لأسئلة توقعها من اللجنة الجديدة .

سيسألونه عن سابق خبرته .. وسيفيده طبعا خبرته فى سيناء .

كذلك سيسألونه عن القضايا القومية والوطنية وبالتأكيد سيسألونه لماذا يريد أن يكون ضابطا ؟؟

رتب الاجابات ولكنه توقف أمام السؤال الاخير .. هل سيقول لهم هربا من مستنقع الحياة المدنية .. هل سيقول طلبا للامتيازات التى يتمتع بهـا الضـباط هل سـيقول ايمـانا بالدفاع عن المكـاسب الوطنيـة والاشـتراكية .. !!

هل سيقول انه حلم كل وطنى ان يكون جزءا من جهـاز حمـاية بلده .. !!

وقطع عليه تأملاته من ينادى عليه للمثول أمام اللجنة .

حجرة واسعة جدا يتوسطها منضدة على شكل حدوة حصان .. مجموعة ضخمة من الفرقاء واللواءات بألوان ملابسـهم الزاهية المزينـة بعلامات حمراء وذهبية .. الاضاءة خافتة قليلا .. أحدهم يجره جرا الى وسط الحدوة أنفاسه تتلاحق .. ضربات قلبه تزداد نبضا .. يسمع سؤالا كأنه قادم من الحياة الأخرى عن اسمه .

ويرتبك أن اسمه مدون لديهم فلماذا ؟؟

سؤال آخر .. هل قريبك فلان .. الفلانى !!

ويرد .. لا تشابه أسماء .

أحدهم يهمس لآخر فيهز رأسه .. ثم يصرفه .. وأصبح طالبـا بالكلية الحربية .

لقد قال له أنه قريب أحد اللواءات الجالسين حول حدوة الحصان .

وهكذا أيضا فعلوا معه عندما قدم استقالته من القوات المسلحة بعد أن سمحوا لهم بتقديم استقالاتهم .

كان قد اتفق مع مدير سلاحه .. كما تعرفون .. وكان اجراء المقابلة شكليا ايضا لقد همس مدير السلاح للآخر فهز رأسه .. ثم صرفه ..

وأصبح مقيدا متقاعدا .. لقد قال له أنه ضابط مشـــاكس ومشـــاكله كثيرة .

لم تكن مشاكسة صديقنا ظاهرة جديدة عليه بعد حرب ٧٣ بل بدات منذ اليوم الأول لدخوله الكلية الحـربية .. وبعد تخـرجه من الكليـة الحربية .. وقبل ذهابه لليمن .. وبعد عودته من اليمن .. وبعد حرب ٦٧ وقبل حرب ٧٣ كانت تؤرقه فكرة أنه قد أصبح قاتلا محترفا .. بعد تخرجه من الكلية الحربية مباشرة .

رومانسيته ثانيا التى جعلته يبكى وهو يخلع اعواد الشعير فى سيناء ويضع بدلا منها الغاما .. يخلع الحياة .. ويزرع الموت .

قدم نفسه فى صباح يوم خريفى مشمس ومعه المصـــاريف للكليـة الحربيـة جلسوا حول حمام السباحة على المدرجات .. استلمهم نقيب يعمل بدون حماس .. استلم منهم المصروفات .. سلمهم للصف ضـباط الطلبة .

الشمس تنعكس على صفحة مياه حوض السباحة .. ونسمة هواء باردة تخفف حرارة الاشعة المسلطة عليهم .. وطوابير الطلبة القـدامى تتحرك على نغمات مارشات عسكرية فى نظام .. تحمس مـع الحركة المنتظمة للاذرع والسيقان .. تخـدر .. صاح الصف ضباط الطلبـة مجموعة اولاد تتراوح اعمارهم بين الثمـانية عشر والعشرين .. يربون شوارب كثيفة كى تظهرهم اكبر سنا ويضخمون اصواتهم .. ابتسم .. لقد كانوا يمثلون بدون اتقان شخصية رجل متزمت .. فلقى جزاءه فورا.. حكم عليه أحدهم بأداء التمرين رقم ٩ .. مثلـه له احـدهم انه تمـرين القرفصاء.. تضع كفيك فوق رأسك وتقفز لاعلى مبدلا ساقيك.. وانقطعت انفاسه مع مزاولة التمرين ثم اختفت الابتسامة .. وتبدد الحماس .. ليواجه أصعب يوم فى حياته .. لقد كانوا يحاولون أن يصبوه فى قالب عسكرى .. وبأسرع وقت .. ان يخلصوه من الاخلاق المدنية المرذولة .. أن يصنعوا منه رجلا .. هكذا برروا له تصرفاتهم عندما واجههم يسخفها بعد ذلك .

ولكنهم فى سبيل هدف اسمى يرتكبون جرائم لا حصر لها .. فهو عليه أن يتعود على اطاعة الاوامر بدون تفكير .. فيفقد القدرة على المبادرة او التصرف منتظرا التعليمات وهو فى عقله الباطن قد ترسب احساس بعـدم القدرة على اتخاذ القرار .. وايضا الاستقبال العقلى لاشياء غير منطقية كأن يقيس العنبر مثلا بأبرة خياطة .. او يضغط على الحائط ليزيحه من

مكانه .. او .. او .. وهو يتعود ايضا على تحمل الاهانة .. كأن ينادى عليه بلقب شخاخ .. وعيل .. ولقد لاحظ صديقنا تأثير هـذه التربية فى زملائه الضباط بعد ذلك .. وخصوصا عندما يتعاملون مع التكتيك وسوف ترى ذلك بوضوح عندما اقص عليكم ماذا حدث فى اليمن وسيناء بعد ذلك.
استلم صديقنا مهماته .. كيسا من الجلد .. ملأه بأحذية وشرابات وفانلة ضرب نار (بلوفر كاكى) .. وأفرولات غير مناسبة لجسمه .. وقايش وجتر وزمزمية وخوذة واشياء كثيرة .. كان عليه ترتيبها فى دولابه بالعنبر

وهناك ظل يبحث لساعات عن الجندارى والجندارى كما عرف بعد ذلك هو العلم الذى يتوسط الكلية الحربية ويلتفون حوله كل صباح يستمعون الى سخافات المساعد الطالب .. ولكنهم يسألون عنه الطلبة المستجدين دائما محيرين اياهم ومستخدمين حيرتهم كوسيلة للسخرية منهم .

زعق الطلبة .. وامتدت عشرات الأيدى تدفعه ليقف .. لقد دخل باشاويش السرية .. او الرقيب اول .. ولد فى التاسعة عشر يطلق شاربا كثيفا ويضخم صوته بحجم الشرائط الأربعة التى يعلقها على ذراعه .

سأله عن عمله..

ـ فأجابه : بانه مهندس .

وهنا اهتاج الآخر بشدة قائلا : مهندس دى فى البيت يا عيل ياشخاخ هنا طالب جامعى مستجد تحت الأختبار فاهم .

رد الآخر : ايوه .

فاهتاج ثانيا : هنا مفيش ايوه .. هنا أيوة يافندم .

ابتسم صديقنا بغيظ .. انهم يصبغونهم .. ولكن هل هـذه هى الطريقة المناسبة .

لقد قال ماركس .. أن التشوه يصيب الظالم والمظلوم .. القاهر والمقهور .. المعتدى والمعتدى عليه بنفس القدر .. ولكن بصور مختلفة .

وهكذا .. فان بعض الطلبة الذين كانت لهم سلطات لأ نهـائية فى الكلية الحربية مثل المساعد أو الرقباء الأول .. أصابهم تشوه الظالم بنفس قدر تشوه الآخرين فهو بعد تخرجه يصبح ملازما فى كتيبة هو أصغر من فيها وتسحب منه السلطات التى مارسها لسنين فى الكلية الحربية فيصاب برد فعل مضاد .

وهكذا صادف صديقنا عديدا من مشوهى الكلية الحربية . سواء كانوا قادتها أو عبيدها .. كانوا يقولون لهم .. لا تتكلم نيابة عن زملائك قل أنا فقط .. اسمع الأمر حتى ولو كان مستحيلا .. الاقدمية مقدسة والاقدم برقم يعلم بالتأكيد اكثر منك .. أهم ما فى الحياة النظام .

وتسقط كل هذه الدعاوى من أول يوم .. فالأولاد فى نهائى لا ينفذون هذه التعليمات ابدا .. وثار صديقنا تمرد .. وكان جزاؤه حمل المرتبة فوق رأسه والدوران بها يتابعه عريف ذو صوت مزعج .. قذف المرتبة فوقه ليقع على الأرض ويتبعه مكيلا له اللكمات والركلات .

ولم يفق الا على صوت مجموعة من الصف ضباط ملتفة حوله تنبح فى صوت واحد وأيدى كثيرة تمتد لتجذبه فى اتجاهات مختلفة .. ولم ينقذه منهم الا أبن لجار لهم جذبه الى حجرته وافهمه طقوس التعامل .

اذا اخذت الأمور بجدية فلن تستطيع أن تكمل .. انظر للتصرفات على اساس أنها مسرحية .. وامش بجوار الحائط .. نفذ التعليمات .. وسترتاح بعد ذلك .

وبدأ التدريب .. كان عليه أن يتعلم السير .. واحد .. اثنين .. واحد اثنين .. هوب .. هوب .. تبديل الخطوة .. خطوة تبديل .. النداء على الرجل الشمال .

كانت تضنيه فكرة انه ترك وظيفته .. وهيلمانه فى سيناء ليتعلم السير فى الكلية الحربية .. ولكنه عرف بعد ذلك العلاقة بين الاستماع الى النداء والتصرف على اساسه وما يصحبه من غرز عادة اطاعة الاوامر عندما ناقشه أحدهم فى فكرة الارتباط الشرطى بين الصوت والتصرف وان هذه احدى نظريات علم النفس السلوكى وخصوصا تجارب بافلوف .. ضحك كثيرا كان يقول انها نظريات الجيوش القديمة .. عندما كان على القائد أن يقود رجاله مئات الكيلو مترات سيرا على الأقدام ثم يدفعهم لمعركة مواجهة بالسلاح الأبيض ولكن فى اطار الحروب الالكترونية والقنابل التليفزيونية والصواريخ الموجهة تصبح هذه النظريات عذابا لا طائل من خلفه .

وانه لابد من اعادة النظر فى طريقة تربية الشباب بالكليات العسكرية لتتوافق مع العالم الجديد .. وللأسف ان ما يتعلمه هؤلاء الشباب يطبقونه على جنودهم فى وحداتهم وبشكل تعسفى .. بل .. وهو العجيب انهم يطبقونه فى منازلهم وتتحول زوجاتهم وأبناؤهم الى جنود .. عليهم أن

يطيعوا الأوامر بدون مناقشة .. انه كل حصيلتهم الثقافية والسلوكية ويتحول المجتمع الى الديكتاتورية ويخضع البشر وتحدث نكسة ٦٧ .. وهزيمة للشعب والديمقراطية والحرية .. وتأمرنا القيادة بأن نصبح اشتراكيين فنصبح اشتراكيين ثم تأمرنا بأن نكون انفتاحيين .. فنصبح انفتاحيين . وتخنق المبادرة والحماس .. وقوة الخلق .. ثم نضع أيدينا تحت ذقوننا ونتعجب ما الذى حدث للمصريين ؟؟

فى نهاية الخمسة وأربعين يوما المقررة لتحويل صديقنا من مدنى الى عسكرى كان قد تعلم كيف يتحرك .. وكيف يجرى .. وكيف يؤدى التحية العسكرية .. وكيف يفك ويركب البندقية الآلية .. وكيف يطلق النار من هذه البندقية .

احضروا لهم مجموعة من الترزية .. جهزوا لهم ملابسهم العسكرية ثم مروا فى طابور استعراض أمام اللواء قائد الكلية وأدوا له التحية العسكرية وخرجوا فى أول أجازة بعد دخولهم الكلية الحربية منذ خمسة واربعين يوما . كان يجلس على الكرسى المجاور لشباك المترو .. الهواء البارد يصطدم بوجهه الحليق .. بجواره طالب مستجد من طلبة الكلية الحربية خرج ليقضى أول أجازة له مثله .. وأمامه فتاة صغيرة تداعب الشاب بابتسامة بريئة وهو ينظر فى الفضاء نظرة تملؤها الأسى .. حزن عميق وانكسار لا يتناسب مع البدلة الكاكى بدلة السلطة .. وشعر انه ينظر فى مرآة انه يشعر بانكسار فى نظراته .. وتملكته رغبة عارمة فى الهروب وعدم العودة .. كانوا يحاصرونه من داخله .. فأصواتهم تدوى فى رأسه لا تخلع الكاب فى الأتوبيس .. لا تأخذ أمك بالحضن فلقد أصبحت رجلا لا .. لا .. ألف لا .. وكانوا هم أول من يخالفونها .. لقد تغير صديقنا فتحوله من مهندس لاسكان ومرافق سيناء .. ذلك الشخص الأكثر من هام فى بلد يعيش معظم أهلها على المقاولات . .خاصة فى عصر المد العمرانى الذى صاحب بدايات الثورة وبناء مئات المدارس والوحدات الاجتماعية.أقول فتحوله من هذا الوضع المتميز الذى كان يتيح لهالتحكم فى أرزاق مئات البشر الذين يتمنون رضاه .. الى الطالب الجامعى المستجد وما يلحق باسمه من شخاخ وعيل وخلافه من شتائم عسكرية كان لها تأثير مضاد .. فلقد شعر لأول مرة بالقهر .. ومدى ضراوة السلطة خاصة لو كانت فى أيدى غير مقتدرة لأهميتها .. وهو الأمر الذى أثر على معظم سلوكياته بعد ذلك .. لقد أصبح متمردا او فلنقل انتصر الجانب الرومانسى على الجانب العملى فى شخصيته فأصبح ثائرا متمردا . يهتاج لمجرد احساسه بأى تصرف يحتوى على ظلم .. سواء كان موجها له او للآخرين او حتى لحيوان .

وغرق صديقنا فى فلسفة تدعم أحاسيسه .. فهو دائما ما يفلسف .. وهو بدون الفلسفة لا يستطيع أن يتحرك لخطوات .

وفلسفة تمرد صديقنا وجدت صداها فى كتابات كولن ولسن « اللا منتمى » حتى انه وخلال عودته هرب كتابه هذا الى داخل الكلية الحربية .. وكان يقراه باستعذاب خلال الساعات المقررة للاستذكار .

وكره فكرة الحرب .. والمجتمع .. واى أرتباط .. حتى ابسطها كالأرتباط الأسرى .. كان يجلس فى حلقات الدراسة بجسده فقط أما عقله فلقد كان يستخدم حيل والدته فى الهروب بأحلام اليقظة .. وهكذا هو دائما منذ أن حاول والده انضاجه مبكرا بحبسه فى غرفته للاستذكار .

ثم تحول تمرده بعد قليل الى ظواهر .. فهو الذى لم يدخن أبدا حتى دخوله الكلية الحربية اصبح مدخنا شرها .. لأنهم منعوه من التدخين وكان يتحايل بشتى الطرق على تهريب سجائره لداخل الاسوار .

وبدأ يدعو لتمرده .. كان يناقش كثيرا حتى داخل الاسوار .. عندما طلبوا منه تجهيز مجلة الحائط .. صدرها بمقال تجمع حوله أعداد غفيرة من الطلبة عن « السيرياليزم واللامعقول واللا منتمى » .

ورغم هذا فان واقعية والده أجبرته على الأستمرار .. كان يتعامل مع الموقف كما لو كان تراجيدا من أعمال هوميروس عن صراع الانسان مع القدر والقوى الخفية الاكثر تسلطا وتجبرا .

لكن وحتى فى أصعب الظروف وفى احلك الأوقات يستطيع الانسان أن يجد ما يمتعه وكانت الخمس دقائق الراحة التى يمنحونه اياها بين كل طابورين مصدر سعادة دافقة له .. لقد كان يجرى ويرتمى فى ظل شجرة بجوار قناية صغيرة جدا للمياه الراوية لاشجار الحديقة .. وينام .. ينام بعمق لمدة خمس دقائق .. يبتسم .. لو عرفوا كم يستمع بدقائقة الخمس فى ظل شجرته لقطعوا جميع الاشجار .

كانت ليلة راس السنة .. وكان شركاؤه اولاد العم سام قد قرروا أن يحتفلوا بها ودعوه لمشاركتهم .. وكان قد انضم لنادى الانفتاحيين رسميا بعد ان اصبح عضوا فى غرفة التجارة الأمريكية بالقاهرة وهى المكان الذى يتجمع فيه مندوبو الشركات الأمريكية العاملة فى مصر .. و .. و ..

مجموعة من المغامرين المصريين المتأمركين . كانوا يجتمعون مرة كل شهر حول متحدث رسمى ذى سلطة يستمعون اليه وهم يتناولون الغذاء ثم يحاصرونه بأسئلتهم وفى بعض الأحيان تعقد صفقات .

وهكذا تصنع السياسة والاقتصاد فى بلاد الانفتاح .

فى تلك الليلة كان هنـــاك عديد من الأمريكيين رجالا ونســـاء .. وعديد من المصريين رجالا ونســـاء .. وهو بينهم يرتدى بدلة كحلة أنيقة اشتراها من نيويورك التى استوردتها من كريستيان ديور .. وقميصـــا ابيض خفيفا من قطن سويسرى وصنع جيفنشى وبابيون نبيـــذى محـــلى بالالماظ الصناعى اشتراه من روما وحذاء اسود لامعا بالطبع انجليزيا .. وشرابا بلون البابيون ومطبوعا عليه علامة بير كردان .

وكانت ترتدى فستانا حريريا ملتصقا بجسدها اسود طويلا عارى الظهر حتى منتصف جسدها الأسمر الفارع .. ذا فتحتـــين على جانبيه برزان ساقيها وحتى منتصف فخذيهـــا وكانت تغطى كتفيها بغـــراء ابيض يتوسطه بروش الماظ اصلى يضوى باشعاعات حمراء وزرقاء وبنفسجية وحذاء اسود قطيفة قادم لتوه من أمريكا .

كانت تضحك بسعادة .. وتنظر له محاولة اقتياده فى دروب العادات الأمريكية همست ـــ لكى تستطيع التعامل معهم يجب أن تعرف كل شىء عنهم .. احـــاديثهم المفضـــلة .. عاداتهم فى الاكل .. كيـــف يشربون وما أنواع الخمور التى يتناولونها .. أنس كل ما تعلمته من قبل .. يجب أن تقرأ رواياتهم خاصة تلك التى يطلقون عليها الاكثر مبيعا .. وتعـــرف فكاهاتهم .. هناك أشياء يضحكون عليها ونحن لا نفهمها .. فهم يقولون مثلا على الأمريكى الذى يرتدى ملابس رعاة بقر مبالغ فيها (ذو الرقبـــة الحمراء) ويضحكون بالنسبة لنا لا تعنى شيئا .. أما هم فيشـــيرون الى هؤلاء الذين نزحوا من المكسيك سرا عن طريق السباحة أسفل الماء بحيث لم يكن معرضا من جسدهم للشمس الا قفاهم الذى أحمرته الشمس فسمى بالرقبة الحمراء مثلما كان يقول الليبيون على المتسربين سرا من الأسلاك التى بين حدودهم ومصر السلكاويون .

كانت توليه اهتماما خاصا ولا تترك منـــاسبة الا وتنتهزها فرصـــة لتقريبه من أولاد العم سام .. وكان يتعامل معها بحذر فقد عودته الأيام الاخيرة انه لا يوجد تعاطف بدون ثمن .

ترى ما العائد الذى تتوقعه . .ظل يفتش داخل انتهازيته .. ترى

أين نقطة الضعف التى تجذبه منها والى أى مصير تقوده .. ووجد الرد على سؤاله عندما ازالت الخمور الحذر بعد ذلك فى لقاء خاص بينهما قصت فيه تاريخ حياتها وهى تبكى ألما او ندما .. أو فى محاولة للتعامل مع جانب الرومانسية الذى عرفته فيه .

ولكن لماذا أتكلم عن ليلة رأس السنة هذه لقد وددت أن أكلمك عن ليلة رأس سنة أخرى .. تلك التى قضاها فى الكلية الحربية قبل صباح تخرجهم كانت العنابر كلها مستيقظة رغم سماعهم لنـــوبة نوم منـــذ مدة طويلة .. وكان أبن جارهم قد استضافه فى حجرته حيث كانا يستمعان الى موسيقى نابعة من راديو ممنوع دخوله الحربية ويدخنان سجائر ممنوعة أيضا .. كان الآخر يعتذر له عن سوء المعاملة التى لاقاها أما صديقنا فلم يكن مصدقا أن الكابوس قد تقارب على الانتهاء كان يشعر انه شاهد فقط عرضا مجسدا من عروض بازوليني أو فلليني .. عندما عادوا من اجازتهم الأولى وقف المساعد فى طابور المساء متخفيا بالظلمة يؤنبهم .. كان يقول أن طلبة نهائى ارتكبوا مخالفات لاحصر لها وانطلبة متوسط انحلوا تماما.. لذلك يصير معاقبة طلبة اعدادى والمستجدين بطوابير تكـــدير حتى نوبة نوم . كان الآخر يضحك ويحاول فلسفة ذلك بانهم بعد عودتهم من الأجازة كان لابد من تذكيرهم بأنهم لازالوا عسكريين .

تذكر صديقنا هذا الحوار عندما ســـمع عن دفعة الضـــباط حديثة التخرج التى أرسلوها الى ميدان المعركة مباشرة ايام يونيو ٦٧ وكيـــف تصرف معظمهم بطفولة خلال المعارك فهم لم يتعلموا الا قيمـــا جوفاء فى كليتهم الحربية .

وهو أيضا لم يتعلم شيئا خـــلال مدة اقامته هنـــاك .. عنـــاوين الموضوعات فقط تكتيك .. اشارة .. هندسة ميدان طبوغرافيا .. وكلها درسها بطريقة سلانجة أعدوها لطلبة فى السادسة عشر من العمـــر .. ولا تليق بمهندس تجاوز هذا السن بخمس سنوات درس خلالها بالجامعة ولكن كل هذا يمكن أن يوضع بكفة وما تعلمه من مدير الكلية الحربية خلال مقابلتين بكفة اخرى لقد قال لهم ـــ أنهم بانضمامهم لمصنع الرجال (تعبير غريب فالبشر لا يعاملون كالمنتج .. ان البشر عـــلاقات وافكـــار ومزاج واختلاف ومبادرة وحيوية .. واخيرا عقل وارادة) .. ستتاح لهم فرصة الانضمام لباقى الرجال الذين سيحمون مصر .

وان كانت الفرصة قصيرة للتأثير فيهم وتحويلهم الى رجال (وبالتالى كان لابد من تعديل وسائل واشكال تدريبهم) ثم نأسـف بأن رغم هـــذه العيوب الواضحة الا أنهم سيكونون ضباطا وسيحسبون على الضباط ..وهو

لذلك وأمره لله يرجوهم ان يحافظوا على سمعة الضـــباط بأن يؤدى كل منهم التحية العسكرية للضابط الأعلى .. والا يتزوجوا بغايا الكباريهات .

يزاولون معهم الجنس فقط ولكن الزواج شيىء آخر .. ولا يتزوجون ايضا امرأة تلبس الملاءة اللف والا فكيف سيدخلون معها الى نادى الضباط لقد منعوا ضباط الشرف من دخول الاندية لذلك السبب « ضباط الشرف هم الصف ضباط الذين رقوا حتى رتبة ضابط بحد اقصى رائد » .

وان عليهم ايضا الا يشتروا الفجل والكرات والبطيخ ويحملوها وهم يرندون بدلة الجيش .. ثم كرر رجاءه .. بانهم محسوبون ظلما على رجال القوات المسلحة وعليهم الا يسببوا فضائح لهم .

كان الفتى يضحك وصديقنا يعلق على كلمات مدير الكلية .. وكان رغم سنه يعجب كيف يجرؤ انسان ما على مواجهة مهندسين بهذا المنطق.. لقد كان المهندس فى ذلك الزمن أملا .. كان يمثل نجـــاح خطط التنميـــة والأمل فى مستقبل يواكب الزمن والتقدم التكنولوجى .. لقد كان البطـــل فى السد العالى .. ومصانع الطيران .. والمصانع الحـــربية .. وقنـــاة السويس .. واستصلاح الأراضى .. فى الحـــديد والصلب .. ومصـــانع الاسمنت ومصانع الكيماويات .. والف مصنع آخر .. وكانوا يفنون له.. ويرفعون من شانه لذلك اندهش الفتى .

بالطبع كان من الممكن أن يكون حديث مدير الكلية الحربية صحيحا فى عصر الانفتاح بعد تنازل القيادة عن حلم خلق قاعدة صـــناعية فى مصر تخدم افريقيا والعرب والامم الاسلامية وتعتبر نموذجا لصمود دول العالم الثالث وتحديها لدول الصـــناعة فلقد انزوى المهنـــدس فى عصر الانفتاح وحل محله الكومبرادور .. السمسار .. الوسيط .. الممتلك لاكبر رصيد من المال المتطع من قوت ومعاناة الشعب..ففى عصر الانفتاح اصبحت هناك بطاله بين المهندسين .. خاصة المهندسات اللائى لا يســتطعن الســفر للخارج للعمل فى دول البترول .. ولكن فى ذلك العصر الذى كان أمل كل شاب أن يصبح مهندسا وأمل كل أب أو أم أن يريا ابنهمـــا مهنـــدسا كان غريبا .. ان يخاف مدير الكلية من زواج الضباط المهنـــدسين من بغـــايا الكباريهات الا اذا كان متأثرا بقصص يوسف السباعى .

كان الفتى يضحك بصوت عال غير عابىء بأنهما يتكلمان بعد سماعهما لنوبة نوم وصديقنا يحدثه عن مشاعره وهو يؤدى اختبار الثقة بعد عودتهم من المنـــاورة .

واختبار الثقة ان كنت لا تعلم هو ان يصعد الطالب الى أعلى برج منط حمام السباحة بالكلية الحربية .. بملابسه كاملة ثم يقفز الى المـــاء عموديا عند سماعه لأمر القفز .

كان صديقنا قد عاد من المناورة بعد قطع رحلة ســـير على الاقـــدام مقـــدارها عشرون كيلومترا ذهابا واخرى ايابا وبعـــد ان قضى ليلته فى حفرة صغيرة أعدها بنفسه فىالجبل خلالبرد ديسمبر اللعين للتدريب على تكتيك الفصيلة المشاة فى الدفاع وكان مرافقوهم من الضباط يتبعونهم راكبين ميكروباس ثم قضوا ليلتهم فى عربتهم بينما تركوهم ينامون فى العراء .

كان يقول هل يضربون لنا المثل فى كيف يكون الفارق بين الضـــابط والجندى لتصبح هذه الليلة ذريعة لنا حتى نترك جنودنا فى العراء ونبحث نحن عن أسهل وسيلة للراحة .

عندما صعد الى برج منط حمام السباحة .. ونظر من اعلى أصـــابه الرعب مبانى الكلية تبدو من أعلى صـــغيرة .. وهو لم ينجـــح حتى تلك اللحظة فى تعلم السباحة .. لقد خافت عليه أمه من الغـــرق فلم تمنحـــه نصف جنيه أشتراك فى الحمام خلال الأجازة الصيفية وبالتالى لم يتعـــلم السباحة مثل باقى زملائه ـــ هكذا كانت تدعى ـــ وأستمع وهو شبه متوم للأمر .. أقفز .. لم يدر ماذا يفعل ؟؟

حاول العودة .. ولكنه أرتبك فتقدم فخطا الى الهواء ليســـقط من من اعلى فى منتصف المسافة بين البرج والماء تذكر أنه لا يعرف السباحة .. رفع ذراعيه لأعلى للامساك بقاعدة البرج .. ولكن هيهات أستقبلته المياه بكرباج فغطس الى أسفل الحمام وارتفع مرتين وبصـــعوبة استطاع أن يمسك بالحبل الذى قذفوه له لانقاذه .

فى بداية العام الجديد .. كان يقف وزملاؤه فى صـــف طويل امـــام مدير الكلية الحربية وباقى ضباط التدريس ليؤدى اليمين العســـكرى ـــ أقسم بالله العظيم .. بالمحـــافظة على الســـلاح .. والأرض والجـــود بالنفس .. واطاعة القادة .

ولم يوفوا بهذا القسم بعد ذلك بخمس سنوات مع احداث حـــرب ٦٧ للأسف .

وخرج صديقنا فىذلك اليوم من الكلية الحربيةلآخر مرة مرتديا ملابســه العسكرية وعلى كتفيه فى كل ناحية نجمتان صغيرتان تنبئان بانه قد أصبح ملازما أول فى القوات المسلحة .

الفصـــل الـــرابع

شاهد دموعها بصعوبة وهى تنحدر على خديها .. فالضوء الاحمر الخافت جعل الموجودات حولهما تبدو كالأشباح .

كانت موسيقى الوسترن بدقات رعاة البقر الرتيبة والصوت المبحوح للمغنى الامريكى وكأسا المنهاتن اللذان سبقا زجاجة النبيـــذ التى قاربت على الانتهاء .. قد أثاروا أشجانها .

كانت تتكلم عن وحدتها التى تضنيها رغم كل مظاهر الترف والرضا التى تحيطها العربة المرسيدس التى اشترتها لها الشركة على احدث طراز والشقة الفاخرة التى أجرتها لها الشركة تحت اسم شقة الضـــيافة .. والفيديو كاسيت وأحدث الأفلام الأمريكية التى تمتلىء بها مكتبة الشقة .. وعشرات المتقربين لها فى محاولة لعقد صفقة ما .. والالف وخمسمائة جنيه التى تحصل عليها أول كل شهر .

كانت تتكلم بالانجليزية اللغة التى تتقن التعبير بها عن نفسها وتقول أنها فقدت القدرة على التواؤم .. فهى مصرية بالمولد . ولكنها أمريكية بالتربية رغم عدم زيارتها لأمريكا .. وأنها فقدت كل هوامش الاتصـــال بالآخرين . الأجانب يتعاملون معها على أنها جزء من مغامرة ساحرة للشرق وأبناء وطنها على أساس أنها أكثر تأمركا من الأمريكيين .

أدهشته دموعها كان يتصور أنها راضية عن حياتها .. وأن الجـــانب الأكبر من أمريكيتها قد كونته بارادتها .

وكانت هى أيضا تبدى دهشتها .. لقد حصلت على ما خططته لنفسها تماما لقد وثقوا بها لدرجة أنها الوحيدة بين جميع العاملين التى حملـــت كارت « أمريكان أكسبريس » .. وهى بواسطته تســـتطيع أن تصـــبح

مليونيرة .. ولكنها لن تخذلهم لقد بنت ثقتهم بها بعد عناء .. أن ملاحظاتها وتقاريرها مقدسة لديهم وهى بذلك تستطيع أن تطيح بمن تريد وتقرب من تريد أيضا كانت تبكى وتقص عليه قصتها لعله يستطيع تفسير أسباب عدم رضائها أنها أبنة مهندس .. عاصر الوقت الذى كان للمهندس فيه قيمة عالية ومستوى معيشة متميز .. أصرت أمها على أن تتعلم فى المدارس الأجنبية هى وأخوتها .. حيث اتقنت الانجليزية .. والعادات الخاصة بطبقة كانت تتميز وتتشكل فى تلك المرحلة .. تلك الطبقة التى ورثت الارستقراطية الاقطاعية بعد قيام الثورة .

ان المتامل فى تلك المرحلة من تاريخنا فى حاجة الى ان يمتلك خيالا علميا وقدرة على ربط الظواهر المختلفة .. التى أرتبط بعضها ببعض بشكل جدلى بحيث لا يمكن تفريغ ظاهرة منفردة ومناقشتها الا فى أطار الظواهر الاخرى . لقد حدث انقلاب فى تاريخ البشرية سواء العلمى أو السياسى أو السلوكى أو الاجتماعى .. عصف بكل الموازين والقيم المتوارثة فتخبط الكثيرون وخاض كل منهم تجربته متصورا انه امتلك القدرة على ايجاد التوازن الصحيح . فعندما كان الكون تقتسم السيطرة على ارضه انجلترا وفرنسا .. كانت الحياة مستقرة .. مستعمر وآخر يعانى من الاستعمار .. مستغل وآخر يعانى الاستغلال .. منتج للمواد الخام وآخر مصنع لها .. وكان العالم يعيش ثقافة وحضارة الاقوى .. وكان فى بلدنا ارستقراطية اقطاعية امتلكت ثروتها ونفوذها بعد الاحتلال الانجليزى لبلدنا وتوزيعه الأرض على الخونة الذين قدموا له عرابى وبلدهم على مائدة اطماعهم .. وكانت الاستقراطية تتمثل بأولياء نعمتها .. تكلم لغتهم .. وتلبس ملابسهم .. وتتبنى تقاليدهم . كانت الأرستقراطية تعيش فى اوروبا فترات اكثر من التى تقضيها فى بلدها وفى فترة ما .. حاولت دول اخرى مشاركة المستعمرين الاساسيين للأرض .. وقامت حرب طاحنة اعقبتها حرب أخرى ضارية هى الحرب العالمية الثانية فى هذا الوقت جاء صديقنا الى الحياة .. وفى وقت لاحق قريب جاءت صديقته الباكية .

خلال الحرب العالمية الثانية ظهرت الحبابة .. والطائرة والصاروخ والقنبلة الذرية تلك التى دمرت بها أمريكا هيروشيما ونجازاكى .. وبدأ السباق بعد أن تغيرت خريطة العالم .. وتميز الى أقسام ثلاثة .. أمريكا وحلفائها والاتحاد السوفيتى وحلفائه ..ودول العالم الثالث التى كانت مشغولة فى مشاكلها الاساسية وهى مقاومة الاستعمار القديم .

عندما التحق صديقنا بكلية الهندسة .. دارت معركة بورسعيد انتهى فى اثرها الاستعمار القديم وبذلك دقت بلده اول مسمار فى نعش هذا الاستعمار وحذا حذوها الكثيرون .. ولجأ اليها الكثيرون .

وتوالت الانتصارات .. الجزائر .. دول افريقيا .. دول أمريكا اللاتينية .. دول اسيا والصين .

وتنافس العملاقان الجديدان على اقتسام الأرض كل منهما يحمل تراثه الفكرى فى مقاومة الاستعمار القديم .. الاتحاد السوفيتى وتعليمات لينين وماركس وانجلز .

وامريكا مع وثيقة حقوق الانسان .. وليس غريبا ان يتعاون العملاقان فى ايقاف العدوان الثلاثى على بورسعيد .. وانهاء عصر الامبراطوريات التى لا يغيب عنها الشمس .

كان عبد الناصر هو فارس هذه المرحلة .. واملها .. قاد القوات المسلحة للقضاء على الاستعمار القديم والارستقراطية الطفيلية وتوقف ليسأل نفسه وبعد !! قادته الأحداث المتغيرة والمتطورة بسرعة اكبر من تصوره وتمزق فى الصراع بين العملاقين .. فى البدء عندما لجأ لحاملى حقوق الانسان .. قالوا قف لقد انتهى دورك .. بانتهاء مقاومة الاستعمار القديم .

عندما لجأ لحاملى تعليمات لينين قالوا .. نعطيك السلاح والغذاء والتكنولوجياو تعليمات الرفيق .

عندما لجأ الى اتحاد المظلومين — وكادوا أن يكونوا قوة يحسب حسابها سحقه العملاقان .. أحدهما حامل وثيقة حقوق الانسان .. دمر قواته المسلحة فى اليمن .. ثم انهى عليها فى سيناء .. ثم اغرقه فى بحر الاستهلاك والحاجة .. والآخر سانده الى القدر الذى لا يمتلك فيه قدرته على اخذ القرار الذاتى .

وهكذا تغيرت المفاهيم والأفكار والسياسات ثلاث مرات وبشكل جذرى خلال فترة قصيرة هى عمر صديقنا .

مقاومة الاستعمار واذنابه (هذا هو التعبير السائد فى تلك الأيام) الاشتراكية العربية .. ثم الانفتاح الاقتصادى .. ولكن وفى كل مرحلة كانت هناك طبقة ما قادرة على ان تحافظ على مكاسبها وارستقراطيتها

ورغد حياتها وباكيتنا كانت من اسرة امسكت بكل الطرق والأساليب التى مكنتها من ذلك قالت ان امهـــا اصرت على تعليمها واخوتها فى المـــدارس الأجنبية جنبا الى جنب مع ابناء الأرستقراطية المدحورة . وان امها ايضا اصرت على أن تكون الأسرة عضوا بنادى الجزيرة .. جنبا الى جنب من ابناء الأرستقراطية المنهارة .. وابناء الطبقة الجـــديدة البازغة والمتكونة من أعضـــاء مجالس الادارات ومديرى المصالح وضـــباط القوات المسلحة السابقين واللاحقين .

ان اصرار والدتها هـــذا كان مكلفا للأسرة .. بل فوق طاقتهـــا الاقتصادية . اذا علمنا ان المشـــير عامر قائد الجيش فى ذلك الوقت منح الضباط عضوية جماعية مجانيـــة لجميع اندية مصر الارستقراطية وغـــير الارستقراطية .

وفى المدرسـة والنـــادى اعانت باكيتنا من فوارق لا يشعر بهـــا الا الأطفال فوالدها المهندس يستطيع أن يقدم لها المدرســـة الجيدة والملبس المناسب والطعـــام الصحى والمصروف المتوسط أما ابنـــاء الارستقراطية القديمة والجديدة فكان يمكنهم أن يتمتعوا بما هو أكثر من ذلك .. الملابس المستوردة والطعام النادر مثل الشيكولاته السويسرى والتفاح الأمريكانى والفستق اللبنـــانى .. وأيضـــا باستطاعتهم أن يمتلك كل منهم عـــربة خاصة .. وكان لا بد لها من أن تصارع وتمثلت الفرصـــة فى ذلك الشاب القادم للزواج منهـــا .. كان مناسبا جـــدا مع طموحها .. فهو من أسرة متوسطة لن يباهيها بأصـــله وفى نفس الوقت من ذلك الجيل الذى اصبح الطريق امامه مفتوحا للقمة .

لقـــد أزيح من امامه ابناء الطبقة الارستقراطيـــة الوارثة للمناصب الاساســـية فى الدولة .. وهو قد عاد لتوه من الولايات المتحدة الأمريكية حاملا الدكتوراه .. وينتظر الأرض المفروشـــة بالزهور ليصل الى قمـــة الهـــرم .

لقد كان مناسبا لها خاصة انه وبعد الفترة التى قضاها فى الولايات المتحدة اصبح متمدينا فى نظرها ولن يعاملها بنفس الطريقة المتوحشة التى يتعامل بها الرجل المصرى مع زوجته .

وبعد فرح صغير تزوجت باكيتنا وتركت دراستها بالجامعة الأمريكية أو قل أجلتهـــا .. واصطدم الدكتور العـــائد من بلاد حقوق الانسان .. بأبناء الطبقة الجديدة .. كانت هناك مؤامرة غير مخططة .. لكسر اعتزازه

بنفســـه .. واعادته الى الحظـــيرة وتوالت النكسات .. آخرها هزيمة ٦٧ .. وهرب الدكتور ومعه باكيتنا الى بلد عربى ليكونا نفسيهما ويعودا .

فى تلك الأيام كان صديقنا قد أنهى دراسته فى مدرســـة المهندسين العسكريين حيث تعلم عناوين مواضيع أخرى اضافها لسابقتها عن الالغام والمفرقعات وتسوية الطرق والتكتيك الخاص بسلاحه .

كان عليه أن ينسى كل ما تعلمه بكلية الهندســـة ويعد نفسه ليصبح مهندســـا عسكريا يرص حقول الألغـــام وينسف المنشئات ويجهز الطرق والكبارى المؤقتة وبعدما اجتمع بهم مدير الســـلاح للترحيب .. ندم على ذلك اليوم الذى هرب فيـــه من مستنقع الحياة المدنيـــة الى أتون الحياة العسكرية .. فلقـــد كان من الواضح أن ذلك الضخم السمين ذا الكرش المنتفخ لا يعى ما يقوله .. قال ان عليهم نسيان عائلاتهم وأسرهم فالسلاح هو عائلاتهم الأســـاسية وانه قد اختـــارهم بحيث يملأ كل منهم فراغا محددا .. فمهندس الفلزات اختاره خصيصا للورش .. والمعمارى الوحيد اختـــاره لمكتب تصميمات أسسه حديثا وكان صـــديقنا هو ذلك المعمارى الوحيد الذين اختاروه لسلاح المهندسين بدلا من الاشغال .

ولكن وقبل أن تنتهى الجلسة اكتشف كذب المدير .. لقد كان واحدا من ثلاثة ضباط تم توزيعهم على كتيبـــة مهندسى الفرقة الثالثة بسيناء ، عندما أسر بذلك لزميل أقدم منه قليلا تصادف وجوده بجواره أثناء تناولهم طعامهم فى الوليمة التى جهزها لهم المدير بعد المقابلة .

ضحك الآخر بصوت عال لفت الأنظار له .

ثم قال ـــ عيب جيلكم انه نقى جدا ويصدق كل ما يقال .. ان هذه طريقة سيادة اللواء دائما .. فهو لا يصـــدق الا فيما يخص الولائم فقط هل صدقت ما قاله من ان الهندســـة لا وجود لها فى مصر الا فى ســـلاح المهندسين وانه لايجد منيشغل البعثات المخصصـــة للسلاح سواء الخارجية او الداخلية وأن هناك مكتبات متنقلة على مجل توصل الكتاب حتى الخندق يا ابنى لو كان لديك واسطة « كوسة » .. لما ذهبت الى سيناء ... ومع ذلك فلقد كان صديقنا سعيدا بعودته لسيناء عسكريا بعد أن خذلها مدنيا رغم صدمته الأولى فى قيادته .

بعـــد ذلك اكتشف صديقنا أن أسلوب ســـيادة اللواء مدير السلاح كان الأسلوب السائد ليس فقط فى جميـــع أجهزة الدولة ولكن الأخطر فى الجيش عندما قصوا عليه كيفأن المشير عامر غداة حرب الأيام الست قال

لمجموعة من الضباط اجتمع بهم فى ســـبناء .. انه لديه اقوى سلاح طيران فى الشرق الأوســـط ... وانه قادر على حماية مصر والانتصار فى سيناء واليمن .

وكيف انه قال لعبد الناصر عندما ناقشه فى امكانيـــة تحقيق نصر فى سيناء ـــ رقبتى يا ريس .

كانت هذه الأفكار تصدمه بعنف وهو يستمع اليها من خلال دموعها المنهمرة .. ان هروب الدكتور من مصر وهى معه .. كان أحد الانعكاسات التى نمت فى مواجهـــة التسيب والكذب وعدم الجـــدية التى لازمت تلك الفترة .

ولكن كيف وصلت الأمور الى هذه الدرجة.. خاصة بعد أن انتصرت الثورة واصبحت مثلا يحتذى به فى مقاومة الاستعمار القديم .. وبعـــد أن تخلصت من الاقطـــاع وفساد الحكم .. وبعـــد أن راس جمهوريتها اول مصرى بعد آلاف السنين من حكم الدخلاء .

يقول صـــديقنا انه حكم الفرد .. رجل واحد وحزب واحـــد .. وصوت واحد يسيطر على أجهزة الأعلام وأجهزة السيطرة .. انهالخطأ الأول والاخير لحبيبه وقائده عبد الناصر .

لقد أصبح النفوذ والمال والحياة الرغدة كلها مرتبطة بالاقتراب من راس السلطة وكانت فرصة الاقتراب تزداد كلما كان الانسان قادرا على خداعها لقـــد أخطأ عبد الناصر بعـــدم استثماره لثقـــة الجماهير بثورته واعتماده على أهل الثقة من المخربين .. أخطأ فى اهـــدار الديموقراطية واحلال الديكتاتورية الرشيدة محلها .

لم تكن هذه وجهـــة نظره فى تلك الايام الأولى لعمله بسيناء فقـــد تصادف بعد عودته من أجازة ميدانية أن التقى بمقدم أسمر جمع حوله ثلاثة ضباط صغار السن يحدثهم من حكمة الحياة ويوجزها فى ان الحياة طموح . ومجد وثروة .. وأن الانســـان تتحدد قيمته من خـــلال ثروته وقدرته على الكسب وطال الطريق . فبدأ يشرح فلسفته فى التعامل مع الجنس الآخر وانه جنس لا يستقيم الا بالضرب .. ثم ينتقل الى مقـــال لمحمـــد حسنين هيكل فى الأهـــرام وكان يمثل صـــوت السلطة فى ذلك الوقت .

كان صديقنا يقرا مجلة الطليعة فى تلك اللحظات وبالذات مقال لطفى الخولى عن اعادة انتخاب عبـــد الناصر .. فتدخل فى الحديث مستعيرا جزءا من وجهة نظر الطليعة .

غضب الآخر .. ثم تمـــادى فاختطف الطليعة من بين يديه وقلب صفحاتها وهو يزوم .. الم نقـــل لا داعى للقراءة لهؤلاء .. ثانيا .. العـــالم .. والخفيف .. وابو سيف يوسف .. ثم واجهه بسؤال .. لمـــاذا تقرا لهؤلاء ؟ هل انت شـــيوعى .. ؟ ثم ادانه مباشرة .. انت شيوعى .. واضـــح من لهجتك.. نظر له المستمعون برعب ثم ابتعدوا عنه كما لو كان أجرب ولم ينقذه الا رائد أبعده عنهم لينصحه .

ـــ ما الذى دعاك لمناقشته سياسيا .. هل انت شيوعى فعلا .

ـــ رد الآخر بصدق ـــ لا .

ـــ بتشترى الطليمة ليه .. !!

ـــ احنـــا فى بلد اشتراكى .. ولا بد ان يثقف كل منا نفسه حتى يصبح خلية ثورية تشع فيما حولها .

التقط المقدم الاسمر الكلمات ثم صاح مقاطعا ـــ

حضرته عايز يعمل خلية .. والخلية دى داخل الاتحاد الاشتراكى أم خارجه .

وتعقدت الأمـــور .. فانسحب صديقنا مؤثرا عـــدم اضافة كلمات جديدةتجعل هذا المهووس يجمع حوله شباكه .. مفكرا لماذا ارتعب ذلك المقدم من الطليعة ومن كتاب علميين مثل الخولى ـــ والعالم ـــ والخفيف وهل هؤلاء فعلا شيوعيون .. اذا كانوا شيوعيين فالشيوعية مبدأ جيد بحيث يقتنع بهـــا مثلهم واذا كان هنـــاك خطر منهم او من مجلتهم فلماذا يصرح لها .. وتطبع وتتداول .

كان لهذا الحدث أثر حاد فى مستقبل صديقنا .. فعندما وصلوا الى العريش وجد فى استقباله رئيس العمليات الذى ساله المقدم الاسمر .

ـــ هل هذا الضابط من كتيبتك .

رد الآخر

ـــ أيوه يا فندم .

ـــ ده ضابط شيوعى .

رد الآخر غير مصدق

ـــ مش معقول يالندم .

رد الآخر بثقة غريبة

ـــ شـــوف بيقول ايه .. بيقول عايزين نعمل خـــلايا ثورية خارج الاتحاد الاشتراكى .. ثم أردف .. هـــل تتصور انه يقرأ للطفى الخولى والعالم والأشكال دى .

ومنذ ذلك اليوم اصبح صـــديقنا معروفا فى ســـلاحه بانه ضابط شيوعى مشاكس .

كانت لاتزال تبكى وهى تقص كيف أن زوجها تغـــيرت معاملته لهـــا بعد أن أصابه الاحباط فى مصر .. وكان لابد لهـــا من أن تسافر معه الى دولة عربية حيث يمكنهم تقديره علميا وماديا .. ولكن

ورغم تضحياتها بدراستها ورغم أنها وفرت له كل الوســـائل للراحة والنجاح فى الغربة .. فانه قابل ذلك بالقسوة عليها التى وصلت الى درجة ضربهـــا .

واندهش صديقنا هل يمكن أن يحدث هذا فعلا ... ؟

دكتور .. حامل دكتوراه من أمـــريكا يضرب زوجته .. خاصة اذا كانت تلك الجالســـة أمامه .. تبـــكى فى وداعة .. وانفصـــلا .. ثم سكتت . لقـــد كان لانفصالهما قصـــة غريبة لم يكن يتصـــور أن تحدث أبدا .. فى هـــذا الوسط .. عرفها بعد ذلك .. تدخلت فيهـــا النيابة والبوليس والمحاكم .. وتبادلا الاتهامات واســـتولى كل منهما فيها على ما وصل يديه ووجدت نفسها تبدأ من جديد ومعها طفلة صغيرة عليها الاهتمام بها دون مساعدة والدها .

الفصل الخامس

معسكر الكتيبة عبـــارة عن مبنى من دور واحـــد من الهـــاردبورد والطوب يستخدم لمبيت الضباط .. ملحق به مطبخ وصالة معيشة .. وعلى بعد مائة متر توجد مكاتب الضباط والمخازن وفى نهاية المعسكر مطبخ الجنود وخيام اعدت لمبيتهم وميز من الخشب والهاردبورد للجنود ملحقبه كانتين وفى النهاية المقابلة توجد (الحملة) جراج العربات والمعدات .

كل هذه المبانى متناثرة وسط صـــحراء لا حدود لها .. والمعسكر محاط بسور من السلك الشائك له بوابة يحرسها جنديان .

وصلوا المعسكر قبل غروب الشمس بقليلعبر طريق غير ممهد كثير الحفر والمطبات كان السبب فى تغطيتهم بطبقة رقيقة من التراب .

استقبلهم الضباط القدامى فى صـــالة المعيشة بترحاب يشوبه الملل والرثاء . ثم امروا الجنود بتقديم الطعـــام لهم وهـــذه عادة الضباط فى الصحراء اكرام الضيف وتقديم الطعام له حتى او لم يطلب .

كانوا يحاولون ابتلاع الكشرى بدون امراره على اســـنانهم لامتلائه بالرمل ويلهبون شهيتهم بالطرشى الحـــار .. ويحاربون ضد الذباب كى لا يشـــاركهم وجبتهم .. ويتاملون المكان الذى سيصبح مقرهم لعدد من السنين يعلم الله مداها .

عنـــدما توقفت ســـيارة جيب امام الميز .. تبعها توتر خفيف بين الضباط القدامى .. ثم دخول شاب اسمر ممتلىء يتناثر الشيب فى شعره الاســـود الخفيف ... عالى الصوت يقهقه وهـــو يداعب الجنود بمرح بواسطة عصا صغيرة فى يده .. لقـــد كان قائد الكتيبة .. رحب بهم بسخرية .. فقـــد طال انتظاره لهم لسد العجز فى ضـــباط الكتيبة ..

سالهم عن تخصصاتهم .. قال صديقنا انه معمارى .. علق القائد .. يعنى فنان يادى المصيبة كفاية علينا فنان واحد ثم نظر تجاه نقيب ابيض يبتسم بتكلف .

قال الآخر انه بترول والثالث انه كيمياء .

علق القائد بخفة دم قائلا ـــ

عندما كنت فى سنكم وذهبنا لمقابلة قائد الكتيبة سألنى عن تخصصى عندما قلت له ميكانيكا .. قال تمسك الحملة .. وعنـــدما رد زميلى بانه بترول قال بجدية تمسك البنزينة .. ثم ضحك وسأل الشاب الصـــغير هل نمسكك البنزينة .

كان صديقنا يتأمل القائد الضاحك ويعجب .. لقـــد علموه فى الكلية الحربية وفى مدرســة المهندسين بان الضحك جريمـــة .. الادهى من ذلك ان الضباط الاقل رتبة يضحكون ايضا معه ويتبادلون النكات .

سالهم .. ماذا تريدون أن تعملوا ... ؟

رد صديقنا

ـــ بل ماذا تريدوننا أن نعمل .. ؟

ثم أردف .. نحن نريد أن نكون مهندسين .

رد القائد بصراحة غريبة

ـــ هندسة .. لا .. مش فى هـــذا الدكان .. متلقيش يابنى .. لكن اذا كانت لديكم القدرة على بذل الجهـــد .. واذا كان لديك الشرف لتراعى ضميرك وتقـــدرب وتدرب جنودك .. فلن تنـــدم على دخولك الجيش .

كان واضحا منـــذ اللحظة الاولى انه شخص مختلف عن الآخرين وهذا ما ظهر بعد ذلك بوضوح فى مواقف كثيرة كان اهمها عندما صدرت الاوامر لكتيبتهم بالسفر لليمن .. اذ اجتمـــع بجميع الضباط وبدأ حديثه بانه لن يســـمح بازالة نقطة دم واحدة لاحـــد من الجنود نتيجة لاهمال ضابط وانه سيتعامل بعنف مع الاستهتار بارواح الجنود السائد هناك .. ثم صرح بأن من يرد السفر فبهذه الشروط .. ومن يرفضها فليعلن عن رغبته فى عدم السفر .. وسيحل محله آخر بقدر المسئولية .

فى ذلك اليوم دار بينه وبين صديقنا حوار غريب بعد ان اعلن عدم رغبته فى السفر .. عن أن حرب اليمن حرب قومية .. وانها دفاع عن

حرية الانسان وأن هناك العديد من الضباط والجنود الذين يحاربون المعركة من جهة نظر سياسية شريفة .. وأن الذين يذهبون لاى هناك لرغبة فى ثراء أو تحسين أحوالهم المعيشية قلة مبالغ فيها .. ورفض التصديق على عدم سفر صديقنا .

استدعاه رئيس عمليات الكتيبة ليلقنه مهام منصبه بعد أن تم ترحيل زميليه الى المواقع الامامية للمشاركة فى التجهيز الهندسى لمقر الفرقة فى المعركة .

قال — انتم دم جديد على الكتيبة وعادة مع قدوم دم جديد ننتهزها فرصة لزيادة الضبط والربط وللاندفاع بالكتيبة الى أفضل صورها .. لا تستمع الى شكاوى ويأس الآخرين.. أنت شاب وعليك اثبات مقدرتك ولن يحدث .هذا الا بالعمل الشاق لقد اخترناك لتصبح قائد فصيلة الاستطلاع وضابط الأمن بالكتيبة .

ثم سلمه بعض الأوراق لدراستها وفهم مهام فصيلة الاستطلاع وضابط الأمن .

سأل أحد الضباط القدامى عن مهام ضابط الاستطلاع .

فقال — ولا حاجة .. همبكة .. ضابط الاستطلاع هو جوكر الكتيبة ولا مهام له الاعلى الورق .

سأل آخر .. فرد عليه بخبث .. بأن القائد يريده بجواره لأنه علم بقرابته لأحد اللواءات الهامين فى السلاح .

سأل رئيس العمليات ..

فقال ان القائد مهتم جدا بهذه الفصيلة التى لا وجود لها الآن .. ولكنك ستشكلها من الجنود المستجدين لتقوم بدورها الحيوى فى المستقبل وأنه اختارك لأنه توسم فيك الجدية .

كان عليه انتظار قدوم الجنود الجدد .. وحتى يتم ذلك كلفه رئيس العمليات باعداد الفصول التدريبية وتجهيز مساعدات التدريب .

وعكف صديقنا على دراسة مهام كتيبة المهندسين .. ليستطيع تجهيز مساعدات التدريب المطلوبة منه بدءا من العدم .. وفى مدة قليلة كان قد ألم بما لم يتعلمه أبدا فى مدرسة المهندسين العسكريين .

وبدأ يملأ حجرات التدريب بلوحات عن الألغام وطرق استخدامها ورصها والفارق بين الألغام المضادة للدبابات والأخرى المضادة للأفراد..

ولوحات عن التحصـــينات والمرتفعـــات .. وطرق الاخفـــاء والتمويه .. وغرق فى بحر من الالوان واللوحات والأطر .. حتى أتم فصول التدريب واستدعى القائد ورئيس العمليات لافتتاحها .

كانت بداية مناسبة له . .لقد عوض عجزه بالدراسة المكثفة .. ثم انه بدأ حياته العملية بأعمال محببة له الرسم والكتابة وتجهيز ما يشبه المعرض لقد كانت هذه بدايته دائما فى كل عمل جديد .. الدراسة النظرية أولا ثم التطبيق .. وهذا ما حدث له عندما عمل فى شركة مقاولات بعد احالته للمعاش من القوات المسلحة .. لقد قرأ كل ما وقع تحت يديه من كتب .. ثم وضعها بعد ذلك فى التطبيق بحيث تجاوز الفارق بينه وبين باقى زملائه العاملين فى هذا اجال من بدء تخرجهم فى مـــدة وجيزة وكان النجاح الذى حققته صديقنا فى اعـــداد مساعدات التدريب حافزا لقائده أن يوكل اليه مهمة تدريب الجنود الجدد .

اجتمع معه رئيس العمليات وبعض قادة السرايا .. جهزوا برامج تدريب مكثفة أعاروه ثلاثة صف ضباط قدامى .. وسلموه خمسين جنديا جديدا .. بحيث يعدهم للتوزيع على السرايا خلال ثلاثين يوما .. وعلى أن يختار من بينهم فصيلته .. وبدأ برنامج التدريب .

لاحظ أن الجنود لا يستوعبون الكلمات التى يشرحبواسطتها الصف ضباط المعلومات .. ثم انهم ينهكون سريعا .

وبعد يومين .. استطاع أن يحدد الأســـباب بالصدفة .. ان اكثر من ثمانين بالمائة منهم يجهل القراءة والكتابة وبالتالى لا يعرف الا الفاظ لهجته المحلية .. وأكثر من ستين بالمائة مرضى بالباهارسيا .

عندما واجه رئيس العمليات بذلك .. والمقترح أن يبدأوا بتعليمهم القراءة والكتابة وعلاجهم ثم تدريبهم ضحك الآخر بسخرية .. ثم شرح له أسباب رفضه..أن تعليم القراءة والكتابة ليست مهمةالقوات المسلحة..اما علاجالبلهارسيا فأمامه عقبتان الأولى ..انالعلاجمحدود..والأخرىأنعلى المريض ان يستريحفى اليوم التالى للعلاجاى انهم سيخسرون نصفمدةعمله فى العلاج وفقد صديقنا حماسه .. وهكذا هو دائمـــا يريد أن يعمل فى ظروف مثالية وهى عادة سببت له كثيرا من المشاكل بعد ذلك خاصة فى تعامله مع شركائه الأمريكان .

ولكنه عندما اختار جنوده المستجدين حاول قدر جهـــده أن يكونوا من المتعلمين والأصحاء .

كان صـــديقنا قد أصيب بخيبة أمل لالتحاقه بالقوات المسلحة بعد تجربته فى الكلية الحربية وحديثه مع مدير السلاح وكانت نظرات الحزن والاحباط التى يلاحظهـــا فى عيون الضـــباط الأقدم الأثر فى خفض روحه المعنوية لقـــد أصبح يشـــعر بأنه تم تضليله .. ان الحيـــاة العسكرية لا تناسبه .. وردود فعل رؤسائه على حماسه كانت تضئيه .. لم يكن هذا شعوره منفردا وانما زميلاه أيضا .. عند عودتهما من مأمورياتهمـــا بالجبل كانا ينقـــلان له عدم رضـــائهما وندمهما على الالتحاق بالقوات المسلحة .. وبدأت نظرة الحزن تزحف الى عينيه .. وأصبح صامتا .. هادئا .. انطوائيا .

حتى استدعاه قائد كتيبته فى ليلة ربيعية من ليـــالى الصحراء .. كان جالسا منفردا على كرسى « فوتى » بجواره منضـــدة صغيرة عليها زجاجة ويسكى اشتراها له أحد الضباط من غـــزة .. وقطع من الثلج فى ترموس وبعض السلطات .

دعاه لمشاركته فى كأس.. ولم يكن صديقنا قد تناول أى مشروبات كحولية من قبل .

عندما اعتذر بعدم تعوده على شرب الكحوليات ـــ ابتسم الآخر .

كان القمر بدرا ونسمة هواء جافة تحاول عبثا الاطاحة بالموجودات الغريبة التى ظهرت فجأة فى الصحراء ولكن لضعفها لم تؤثر الا فى بعث النشوة فى الجسدين المتواجهين .

قال القائد .. ولماذا لا تجرب .. يجب أن يكون لديك المرونة على أن تجرب أشياء لم تتعودها .

انا لا اتكلم عنالويسكى .. انما اعنى كل ما يحيطك .. هل تتخيل ان كل البشر يأكلون الملوخية بالأرانب .

ابتسم صديقنا .. أكمل الآخر .. انهم يقتلون الأرانب فى استراليا بواسطة الألغام ليمنعوا عدوانها على المزروعات وفى نفس الوقت لأنهم

لا ياكلونهـــا وفى اليمن يسمون الملوخيـــة حق الحمير .. وفى العـــراق يسمونها مالة البهائم .. فى اوروبا .. لايأكلون الحمام ويتركونه طليقا.. اليست هذه الذ الاكلات لدينا .. فى فرنسا يستمتعون بأكل الضفادع .. ورجال الصناعقة يلتذون بأكل الثعابين .

ان بالعالم آلاف الجنسيات .. وكل جنسية لها عاداتها وتقاليدها وافكارها هـــل كل العادات والافكار والتقاليـــد التى تخالف ما تعودت عليه باطلة .

كانت كئوس الويسكى التى تناولها القائد قد رقت مشاعره واطلقت لســـانه وجعلته قريبا من قلب صـــديقنا .. ولمعت نجمه فى السماء .. صمت كلاهما كان للصمت فىالصحراء صوت غريب .. صوت الخواء.. وصفرت نسمة هواء فى مكان ما .

اكمل القائد .. هل سافرت الى الخارج من قبل .. ؟

اجاب صديقنا انه كان مهندسا لاسكان ومرافق سيناء .. وانه زار رفح والشيخ زويد والعريش وبئر العبد والطور .. فقد كان يشرف على مبانى تنشأ هناك .

سأل القائد ـــ لا .. أقصد هل سافرت خارج مصر .. ؟

اجاب صديقنا ـــ بأن اول مرة يغادر القاهرة كان سفره لسيناءمرتين الاولى كمهندس والثانية كضابط .

ضحك القائد بصوت عال .. ثم اكمل ـــ

ان الاوربيين يدفعـــون آلاف الجنيهات كى يعيشـــون اياما مثل التى نعيشها لماذا لا تستمتع بالتجربة ؟

كان القمر قد سقط الى طرف الســـماء .. فأضاء وجه القائد بهالة من نور .

اكمل ـــ انت شاب ذكى .. لا تتصور اننى اخترتك هنا لانك قريب سيادة اللواء لقد اخترتك لانك الشخص المناسب لان تصبح اركان حرب عمليات الكتيبة .

.....كان هذا اللقب جديدا عليه .....

اكمل القائد .. اركان حرب العمليات هـــو ديناميو الكتيبة .. هو ضابط الامن والتوجيه المعنوى والخدمة الاجتماعيـــة وهو مساعد رئيس العمليات فى تجهيز خطط التدريب والقتال ويجب ان يكون مثقفا انسانا.. ذكيا .. وهو ما اتصوره فيك أن لم اخطىء .

صمت قليلا ثم اكمل وقد ملأ للآخر كاسا ووضع فيه بعض قطـــع الثلج وقدمه له .

اخذ صديقنا رشفة ثم امتعض .

ضحك الآخر مشجعا له .

اخذ صديقنا رشفة اخرى .. واخرى .

ضحك الآخر قائلا .. على مهلك .. لتستمتع اكثر .

كان تتأثر الليل .. والسكون .. والفجر .. والهواء الجاف البارد والكحول الذى بدأ السريان فى دم صديقنا .. أن استيقظت رومانسيته وواقعيته كلاهما فى نفس الوقت .

كان يرى ان الأمر يستحق التجربة .

قال ـــ وماذا تريد منى .. ؟

رد الآخر .. أن تبتسم .. وتعمل بجدية .. وتقيم الموقف. بعدذلك ستصبح ضابطا ممتازا .

استلم رجاله .. خمسة عشر رجلا .. كان عليه أن يحولهم الى جنود استطلاع حقيقيين .. وعندما بدأ الشرح لهم فوجىء بأنهم نائمون .. لا يستوعبون ما يقول لقد كانوا يرفضون مثله فكـــرة الجندية . كـــانوا يتصرفون كما لو كان عليهم أن يضيعوا عددا من السنين من عمرهم حتى يستطيعوا الحصول على شهادة اداء الخدمة العسكرية .

ولم يجد وســـيلة للاقتراب منهم الا طريقـــة قائده .. نحى خطة التدريب جانبا وقضى وقته فى الحديث معهم.. كانت المناقشات عن قراهم وأسرهم ومهنهم وأحـــلامهم وظـــروفهم الشخصية أكثر امتـــاعا لهم .. واستيقظ النائمون واستوعب الرافضون .. واقتربوا جميعا بعضهم من بعض .. كان صديقنا من خلال المناقشات يصحح لهم بعض الجـــوانب من وجهة نظرهم .. كان يساعدهم على حل مشاكلهم .. بواسطة تحليل الموضوع لاجزائه الأولـــية ثم اعادة تركيبه بأكثر من طريقـــة .. واصبح هناك حوار انسانى وفكر مشترك فى اكثر من موضوع .

انتقل بعد ذلك للمرحلة التالية.. وهى تعويدهم على تحمل المسئولية والعمل كفريق .. لم يكن هناك افضل من الرياضة .

كون صـــديقنا من رجاله فريقين للعب الكرة الطائرة .. ومن خلال المباريات كان يلاحظهم ويصنفهم .. فمنهم من كان يستطيع تحمل المسئولية وآخر ســـلبى والثالث انتحارى .. والرابع شـــديد الاعتزاز بنفسه .. وهكذا . خلال اسبوعين .. اصبح الرجال يكونون فريقا متجانسا يعرف امكانيات كل منهم بدقة .

استخدم صديقنا طريقـــة اخرى لفتح حوارات مشـــتركة .. وهى دعوتهم لمشاهدة افلام سينمائية .. وادهشته طريقة تلقيهم لموضوع الفيلم بعضهم كان لا يستطيع استيعاب اى معـــنى .. والبعض كان يستوعب جـــزءا ما وآخرون كانوا يسقطون ما يحدث على الشاشـــة على حياتهم الخاصة .

وكان هو يحلل لهم الفيلم ويلفت نظرهم الى بعض النقاط التى غفلوا عنها وفى بعض الاحيان يناقشهم فى امكانية تغيير القصة .

وانتشرت اخبار صديقنا فى الكتيبة .. بعضهم كان يقول انه يضيع وقتـــه وآخرون كانوا ينتقدون تغافله عن برامج التـــدريب .. اما الجنود والصف ضباط فلقد شعروا بتعـــاطف معه .. حاول كثـــيرون الاقتراب منـــه .

أما قائد الكتيبة ورغم شكوى باقى الضـــباط المستمرة انتقادا لسلوك صديقنا فقد تركه ليكمل خطته .. كل ما علق به ان ذكره بأن موعد تفتيش هيئة التدريب سيحل بعد شهر .. وان عليه أن يكون مستعدا لاستقبالها.

وبدأ صديقنا بعد أن تكونت بينه وبين جنوده علاقة ودودة أن ينتقل لمرحلة تالية وهى التدريب العملى واختار ضرب النار .

فى ميدان ضرب النار خلف الكتيبة وبكميـــات الطلقات الزائدة التى لم تستخدم فى التدريب وتم استهلاكها على الورق فقط .

كان هناك ستة عشر رجلا يتدربون .. بدأوا بالطرق التقليدية .. ولكن كانت النتيجة مخيبة للآمال .

وظل صـــديقنا يراقب أســـباب الفشل .. فوجد ان بعضهم يخاف البندقية والبعض الآخر يتوقى الهزة المرتدة من البندقية بعد اطلاقها .. وآخرون يغمضـــون أعينهم .. ولم يكن هناك وسيلة لعـــلاج ذلك الا ان يتعودوا جميعا على السلاح .. وبدأوا يطلقون الرصاص فى الهواء ..

وعلى اهداف غير عسكرية كعلبة صفيح او زجاجة او قطعة من الخشب.. بدأ باهداف كبيرة ثم اصـــغر .. وقام بينهم تنافس حتى تعـــودوا على السلاح .. خلال ذلك كان يرشـــدهم اضغط على البندقية فى كتفك .. اكتم نفسك اثناء الضرب افتح عينيك .. فليكن الهدف وسن نمل الدبابة والمشقبية على صف واحد وهكذا خلال اسبوع كانوا يستطيعون اجتياز اختبار ضرب النار بامتياز . الخطوة التـالية لذلك التدريب على اللياقة البدنيـــة .. طوابير الجرى .. واختراق الضـــاحية .. والتدريبـــات الســـويدى .

كان صديقنا يهتم بغذاء جنوده .. كان يستلمه بنفسه من المطبخ ويتأكد من ان كميته كافيـــة ونظيفة .. ويهتم بمكان اقامتهم ويتأكد من أنه مريح ومرتب ونظيف ومعتنى به .. ولكن مـــع ذلك فان ثلاثة من جنوده رغم أن مظهرهم الخارجي يوحى بالكمـــال لياقتهم الا انهم كانوا سريعى التعب .

ذهب معهم الى العيادة الميدانية وهناك اكتشف أن احدهم مريض بالاسكارس والآخرين بالبلهارسيا .. وكان لابد من علاجهم .

كان احدهم يهرب من العلاج .. خوفا من حقن الطرطريك .. كان يقول أن ساعده يصيبه الورم فى مكان الحقنة .

سأل صديقنا .. فعلم ان بعض النقط من المادة المختون بها أن لم تحقن فى مكانها تتسبب فى الورم .. وأن اهمال المرض هو السبب .

صادق المرض .. أوصاه على جنوده .. ومع ذلك فالجندى يتعلل بحجج واهية .. وكان لابد من الحزم .. تجاهله .. حرمه من مباريات الكرة الطائرة ومن مشاهدة الأفلام .. وعاقبه .. اثمرت هـــذه الطريقة وفضل الجندى عذاب الحقن من تجاهل فائده .

وهكذا اصبحت فصيلة صديقنا جاهزة لتلقى التدريب .

فى معسكر خارج الكتيبة .. كون نقط استطلاع .. حفرها جنوده بانفسهم ثم قسمهم لقسمين قسم للهجوم وآخر للدفاع .. ومن خـــلال التدريب العملى كان من السهل فهم جميع التعبيرات النظرية .

ولم يعد صـــديقنا من الجبل الا وهو متأكد أن جنوده قد استوعبوا تماما المهام التكتيكية لفصيلة الاستطلاع الهندسية فى الهجوم والدفاع .

عندما عادت فصيلة صديقنا من الجبل .. كانوا قد أصبحوا رجالا آخرين غير هؤلاء الذين حضروا للكتيبة منذ شهرين .

كانوا يتحركون بثقة فى صفوف منظمة بخطوة سريعـــة مثل خطوة الصاعقة ويصيحون صيحات متوافقة فيملأون الفراغ الذى يحيط بكتيبتهم باصـــوات رجال اصبحوا لائقين لأن يكونوا جنود فصـــيلة الاســـتطلاع الجديدة كما حلم بها قائد الكتيبة .

اصطفوا امام مكتب القائد مشدودى الاجســاد . ،مرفوعى الراس ممتلئين ثقـــة كان منظرهم يبعث الى البهجـــة والحماس لدرجة أن اكثر من ضابط طفرت عينـــاه بالدموع وهو يشـاهد صديقنا يجـــرى بخطوات متحمسة ثم يقف أمام القائد مشدودا يؤدى التحية العسكرية .

كانت المهام التالية أكثر سهولة .. تدريب الفصيلة على رص ورفع الالغام التعرف على المفرقعات .. مبادىء الاخفاء والتمويه .

لقد اصبحت العقول قادرة على تقبل المعـــلومات بسهولة ادهشت لجنة هيئة التدريب لدرجة ان فصيلة صديقنا من المستجدين كانت الفصيلة الأولى من بين فصائل كتائب مهندسى المنطقة الشرقيـــة . ،وكان صديقنا افضل قائد فصيلة .

كانت هـــذه التجربة المبكرة فى التعامل مـــع البشر هى التى شكلت اسلوب صديقنا فى الادارة طبقها فى بناء سد حرض باليمن وفى سد نقص العمالة المدربة بشركة المقاولات التى عمل بها بعد ذلك .

وكان دائمـــا ما ينصح مرءوسيه بان يعدوا الرجال لتنفيذ مهامهم ثم يوكلوها لهم وهم متاكدون أنهم سيؤدونها بافضل الطرق .

عندما قص عليها تجربته مع جنود أول فصيلة يقودها ابتسمت فلقد كان ذلك هو ما فعلته بعد انفصالها عن زوجها .. كانت قد تحطمت ..

فقدت الثقة فى نفسها وفى البشر .. لقـــد اختارت افضل اختيار لشريك حياتهـــا حامل دكتوراه من أمـــريكا .. وقدمت له كل ما تستطيع زوجة أن تقدمه لرجل بعد أن حصرت دورها فى الحياة بأن تكون المـــراة التى خلف العظيم .

وكان جزاءها أن كون ثروة .. ام تشاركه فى نتائجها .. وضربها فى النهاية واصما اياها بأقذع الأوصاف .. لقد كان جزاءها ان تقـــف أمام المحاكم تحاول اثبات اعتـــدائه عليها .. ونقص ادق تفاصـــيل حياتهما

كان من الممكن أن تتقوقع على نفســـها فى منزل والدها منتظرة رجلا آخر يتحكم فيها .. ولكنهم نصحوها بان تعمل لتنسى .

فى تلك الأيام كانت الشركات الأجنبية قد بدأت تفـــد الى مصر .. وكان هناك طلب متزايد علىسكرتيرات يتقن الانجليزية.. توسط لها قريب لتعمل فى شركة أمريكية .. بدأت السلم من أوله .. تعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة ثم التلكس .. ثم اكملت دراستها بالجامعة الأمريكية وبهرتها الحياة مع الأجانب .. الانطلاق .. السهرات .. الســـفر للخارج .. المرتب المرتفـــع .. الهـــدايا المستوردة .. ثم الحرية .. والعـــلاقات المتعددة .

من خلال معاناة شديدة وانتقال من شركة لأخرى استطاعت فىالنهاية أن تصبح مديرة مكتب شركتهما .

كان الليل قد انتصف .. والدموع قد جفت .. قبلته من خدية مكافأة له على استماعه لها .. وغادرته .

الفصل السادس

أصبح جنود فصيلة الاستطلاع التى يقودها صديقنا مميزين بين جنود الكتيبة تعرفهم من مظهرهم ونظافة ملابسهم ومن اعتزازهم وثقتهم بأنفسهم ومن حركتهم السريعة ونشاطهم ومن ضبطهم وربطهم العالى .. كانوا قد أحبوا قائدهم ووثقوا به .. وكان يبادلهم الحب والثقة .. فأصبحت علاقتهم مثلا يحتذى به يثير غيرة الضباط ويجمع الصف ضباط والجنود حول صديقنا .

وكان النجاح يزيده حماسا . وحب الجنود يزيده رغبة فى خدمتهم وتحسين أحوالهم .. كون منهم فريقا للتمثيل وآخر للغناء والفكاهة وفى بعض الأحيان للرقص .. وقامت هذه الفرق باعداد مسرح واحياء حفلة انتهاء مدة تجنيد دفعة من الجنود نالت اعجاب ضباط الكتيبة وآخرين دعاهم القائد من قيادة الفرقة .. ثم كون فريقا لاصدار مجلة شهرية كانت تطبع على الرنيو .. ضم اليه عديدا من الشعراء والقصاصين ورسامى الكاريكاتير .. وتفجرت مواهب لم يكن يتصور أن يجدها فى القوات المسلحة .

وانعكس هذا على علاقة قائد الكتيبة بصديقنا .. لقد ازدادت الثقة بينهما فاوكل اليه الاشراف على التوجيه المعنوى والخدمات الاجتماعية بجوار اعماله الأخرى .

كان صديقنا فى تقدم مستمر .. ان التفاف الصف ضباط والجنود حوله واحترام قيادته له .. ساعداه على ان يتعلم .. كان يسأل كثيرا ويقرأ كثيرا ويتعلم فى كل يوم جديدا سواء كان فى مهنته كضابط مهندس .. أو فى أسلوب التعامل البشرى .

حتى ذلك اليوم الذى عاد فيه مع رئيس العمليات من العريش بعد ان قضى اجازته الميدانية بالقاهرة .. كان الآخر يعامله كما لو كان طفلا

صغيرا قد أخطأ وعليه مواجهة والده .. وكان صديقنا يتعامل مع الموقف بمنطق الذى لم يخطىء .

فحتى هـذه اللحظات لم يكن يدرى ما يدور فى بلده .. لقـد كان يتصـور أن الثورة لازالت قائمـة تدفع به وبكل شريف الى العمل لتحقيق أحلام الرفاهية والعدل .. كان قد صدق ما يدرسه عن قناعة لجنوده فى طوابير التوجيه المعنوى عن الحرية .. والديموقراطية .. والاشتراكية.. والعدل .. لم يكن يتصور أن بلده تحكم حكما عسكريا بوليسيا وأن على البشر أن يخافوا من المعتقـلات والسجون والمباحث والتعذيب .. ومن أين له أن يعلم ؟

ان أجهزة الاعلام لا تتحـدث الا عن الانتصارات وفى الشارع كانت كل الأفكار مطروحة فى كتب متباينة المنهج والاتجاه .. أما هو فدوره جندى من جنود الثورة الذين يعملون فى أمان تحت مظلة قيـادة وطنية مخلصة غيـورة على مصلحة وطنـه مثقلة بأعباء الصراع ضـد قوى الرجعية والاستعمار .

كان قد حاول طـول الطريق أن يشرح موقفه لرئيس العمليات ولكن الآخر زجره بعنف متسـاءلا ـ هل كان من الواجب أن « ينجن » من لسانه أمام هذا الرجل الذى تم ترقيته استثنائيا مرتين فى اليمن لوشياته بزملائه الذين كانوا يثرثرون ثرثرة عادية عن عدم جـدوى ذهاب جيشـنا لليمن وضياع الأرواح والعتاد والمصاريف .

لم تمض ساعات على وصولهما الكتيبة حتى استدعاه قائدها .

قال له ـ يا ابنى انا اليوم رائد .. وفى النشرة القـادمة سـاكون مقدما مرتبى سبعون جنيها فى مصر واعيش فى شقة مؤسسية جيدا وسعيد فى حياتى وانا غير مستعد لان افصل واتشحط فى الشوارع علشان حتة ملازم زيك مش عارف يمسك لسانه .. وعليه .. تترك عملك كضابط امن وتوجيه معنوى وتسافر فورا الى القسيمة لتعمل فى التجهيزات الميدانية لموقع العمليات وهذا اجراء مبدئى حتى أتأكد اذا كان قد أبلغ المخابرات أم لا .

ثم أردف وبالمناسبة البقية فى حياتك قريبك اللواء توفى أمس .

كانت شمس أبريل الدافئة تنبىء عن انتهاء الشتاء وبداية فصـل الربيع . وكان قد أحضر كرسيا وضـعه فى صندوق العربة الزيل بجوار سريره ومرتبته وصندوقه الحديدى الذى يحتوى على مهمـاته .. كان جالسا فوق الكرسى يستمع الى موسـيقى هادئة منبعثة من الراديو تبثها الاذاعة الاسرائيلية .

تضايق من اهتزازات الكرسى ففرد المرتبة علىأرضية صندوق العربة وتمدد مستمتعا بالشمس والهواء والموسيقى .

كانت العـربة متجهة الى القسيمة حيث نفاه قائد الكتيبة خوفا منه على مستقبله وكان يشعر بلذة تطهره من كل مشاكله واحـزانه المتراكمة منذ الأمس يحاول أن يفلسف ما يدور حوله .

كانت النسـاء العربيات يرعين الغنم بهدوء .. وكن عند ملاحظتهن للعـربة الحربية يدرن ظهـورهن للطريق كى لا يشاهدهن الجنود رغم ملابسهن الثقيلة وحجبهن التى يضعنها على وجوههن .

لقد كان مظهرهن غريبـا على قاهرى عاش فى النصف الثانى من القـرن العشرين حيث تخلصت النساء فى بلده من حجبهن منـذ مـدة طويلة .. وحيث أصبح ارتداؤه رمزا للتخلف .. حتى فى الاحياء الشعبية حيث كانت سائدة عادة ارتداء الملاءة اللف والبرقع .

وشعر بالاشفاق عليهن .. فرغم حياتهن الشـاقة ورغم سعيهن المستمر فى الأرض بحثـا عن الرزق ومتطلبات الحيـاة البسيطة الا انهن يكبلن انفسهن بملابس ثقيلة بالتأكيد تزيد عذابهن عذابا سـواء من حرارة الجو او صعوبة الحركة تذكر هذا المظهر بعد ذلك عنـدما كان فى طريقه من الحديدة الى حرض لبنـاء السـد هناك .. لقد كانت النسوة اليمنيات يواجهن الجنود ونصفهن الأعلى عارى تماما من اى ملابس او أغطية بما فى ذلك الثديين وحتى أسفل البطن .

لقد كان يتصور أن الحجاب والملابس الثقيـلة التى ترتديها نساء العرب فى سيناء سببها التخلف الحضارى .. ولكن هاهو تخلف حضارى آخر ترك أجساد النساء عاريات حتى الجذع .. وبالتـالى فالأمر يتصل بتقاليد خاصة بكل منطقة تنبع من تاريخها .

فالحجاب فى مصر انتشر بقـوة بعـد الاحتـلال العثمانى .. حيث اصدر سليم الأول فرمانين احدهما يحرم على النساء الخروج الى الشارع كاشفات وجوههن وفى حالة خروج احـداهن .. تركب حمارا بالعكس وتزف فضيحتها فى حوارى القاهرة واما الفرمان الثانى فهو مصادرة جميع أراضى مصر لصالح السلطان . وللأسف خرجت المظاهرات فى الشـوارع تدعو للسلطان المؤمن حامى حمى الدين .

منـذ ذلك العصر انتشر الحجاب فى مصر بقوة القـانون وحبست النساء فى بيوتهن بعد ان كن يمثلن قوة عمل هامة فى الانتاج القومى خاصة فى الريف .

وبمرور الزمن وبعد أن تغيرت القيم الاجتماعية والجمالية والانسانية نتيجة الاحتلال تركى طويل .. تميزت الطبقات بحيث اصبحت الارستقراطية والطبقات المتوسطة تتمسك بالحجاب .. والفلاحات خلعنه ليتمكن من العمل فى الحقول واصبح الحجاب رمزا ليسر الحال والانتماء للارستقراطية تتمسك به النساء قبل الرجال .

حتى سافر ارستقراطيو مصر الى اوروبا بعد الحرب العالمية الاولى والثانية واختـــلاطهم بالأوروبيات فى ذلك الوقت ونتيجة لنقص الرجال فى اوروبا اثناء وبعـــد الحربين لانضمامهم الى الجيوش المحـــاربة .. حلت النساء مكانهم فى العمل خالعات الحجاب والملابس الثقيلـــة .. وتطورت شخصياتهن باستقلالهن الاقتصادى وبهرت نساء اوروبا رجال الشرق.. وتزايدت زيجات المصريين بالأوروبيات .

وتنبهت المراة المصرية للخطر الذى حاق بها .. فخلعن الحجاب فى اوروبا ثم حرقنه فى ميناء الاسكندرية ثم لم يرتدنه لمدة طويلة .. وامتدت الدعوة لخلع الحجاب كالنار فى الهشيم .. وكافحت المصرية .. تعلمت .. تطورت عملت .. ارتدت ملابسها حسب تطور الملابس فى العالم المتحضر .

واصبح الحجاب رمزا للتخلف حتى ان صديقنا وخلال رحلة عمره وحتى تلك اللحظات لم يشهد اكثر من ثلاث او اربع محجبات من الجدات .

وها هى الثورة تكمل المسيرة فتصبح السيدة وزيرة وعضوا بمجلس الشعب ... ومهنـــدسة وقاضية والاهم ان لها صـــوتا فى الانتخاب .

ان الفارق الحضارى الواسع بين وادى النيل وسيناء هو الفارق بين سيدات مصر العاملات المثقفات ونساء سيناء اللائى يدرن ظهـــورهن لعربات الجنود . عندما ناقش احد الصف ضباط الراكبين معه على ظهر العربة فى ذلك .. ابتسم قائلا ــ لا تظلمهن لقد اعتدى عليهن اكثر من مرة مجموعة من الجنود ولذلك فهن يخفن منهم .. ولا يطمئنن الا اذا شاهدن ضابطا فى العربة . ثم اضاف ــ انه الحرمان يا فندم فالجندى ياخذ اجازته كل ستين يوما حضرات الضباط كل ثلاثة وعشرين .. وفى بعض الاحيان تتسبب الجزاءات فى حرمان الجنود من اجازتهم ليستمر حرمانهم لثلاثة او اربعة شـهور تدخل احد الجنود فى الحديث بخيال اثاره الحرمان والكبت ..

ــ سمعت يا فندم ان فى مدن يصرفون امراة كاوتش لكل ضـــابط ونصف امراة لكل جندى وكانوا يملأونها بالمياه الدافئة ويناموا معها .

رد آخر ــ وليه كاوتش م جنبنا نسوان زى الرز فى اسرائيل بس احنا نتجدعن ونروح ناخدهم .

العربة تتجه الى القسيمة .. عبر منطقـــة تسمى الحســـنة حيث توجد نقطة مياه وطريق ضيق بين مرتفعين يرتفع باســـتمرار لاعلى .. فيتسبب فى ارتفاع صوت موتور العربة .. الطريق بعد ذلك ممتـــد على جانبيه سهول فسيحة من الرمال لا حياة فيها الا فى فترات متباعدة حيث يتم مشاهدة جمل ومعه اعرابى او مجموعة من البدويات يرعين الغنم .

بالقرب من القسيمة تظهر الجبال ثانيا شامخة بألوان يعجز اى فنان عن توظيفها فى لوحته تعكس ظلالا مختلفة لنتوءات رائعة كما لو كان شكلها مثال متخصص .

سحره المكان .. لماذا لم يعمر أهل الوادى هذه المنطقة ان الميـــاه متوفرة والطبيعة معطاءة .. ولا ينقصها الا السواعد .. لو كانت هذه العربة تحمل عمالا ومعدات للتعمير الم يكن افضل للأنسانية .

أن المياه تتفجر تلقائيا من عين الجديرات مياه عذبة كمياه النيل ..

ماذا لو تدخل العلم الحديث فى البحث والتنقيب وحفر الابار وروى هذه المساحات الشاسعة .. ولكننا نضـــيع عمرنا واموالنا فى صراعات لا طائل خلفها ونترك الأرض تصرخ طلبا للحياة .

شفت روحه تماما .. الشمس تميل للغروب تاركة الوانا رائعة على جبال شامخة وسهول مهجورة .. والهواء يزداد برودة فيضم ملابسه على جسده ليتوقى لسعة البرد .. وافكاره تعذبه برده الى رومانسيته التى كاد أن يتخلص منها خلال شهوره التى قضاها فى تدريب رجاله واعـــداد الكتيبة للتفتيش .

صدمه رد فعل قائد الكتيبة ورئيس العمليات لحديثه مع المقدم الاسمر تجعله يراجع قيمه وأفكاره عن نقاء الثورة ونقاء القوات المسلحة .. انه لازال يعيش فى نفس المستنقع الذى هرب منه فى الحياة المدنية .. ولكنه الوجه الاخر الاكثر عذابا .. الخـــوف .. الرعب .. من اشـــباح غير معروفة .. كرعب العربويات من جنود لا يعلمن اذا كان يصحبهم ضابط ام لا . وقطع عليه تسلسل أفكاره انحراف العربة من الطريق الاسفلتى ثم دخولها فى مدق ترابى جعل الرمل الخفيف يتصاعد خلفها محدثا غمامة من مواد دقيقة التصقت بكل جزء عارى من جسده ثم اخترقت ملابســـه الثقيلة لتكون غلالة من الاتربة تلتصق بجسده المندى بالعرق .

لقد وصلوا الى نهاية الرحلة .. مقر المأمورية التى عليها تجهـــيز ثلاثة مواقع دفاعية لرئاســـة الفرقة تســـتخدمها فى حـــالة الدفاع عن ســـيناء .

استقبله نقيب أبيض صامت تدل ملامحه على انتمائه الى جنود الغزاة الاتراك وضابط أسمر رفيع قادم من وسط الصعيد حاملا ملامح جدوده قدماء المصريين استقبله بالأحضان فلقد كان أحد زملائه الذين وزعتهم ادارة السلاح على الكتيبة معه .. أمر الجنود بتجهيز سرير صديقنا ليشاركه خيمته كان الليل قد غطى الصحراء بملاءة سوداء واصبح من الصعب فى غياب القمر ومنجزات المدنية التعرف على المكان.

وكان زميله سعيدا بحضوره فسيجد من يشاركه وحدته وان لم يمنعه هذا من مداعبته .

استدعى الجندى المراسلة وأمره يحفر حفرة بعيدا عن خيام الضباط ودفن قشر الفاكهة خوفا من الثعابين التى يجذبها رائحته .. ثم تنظيف الأسرة جيدا والتاكد من خلوها من العقارب التى لدغت أحد الجنود فى اليوم السابق وانقذوه بصعوبة بعد نقله الى المستشفى .

كاد ان تزعجه مداعبات زميله لولا أن قاسها بعقله فسأله .. وكيف يعيش كل هؤلاء بين الثعابين والعقارب .. رد عليه ضاحكا .. ايه انت م خفتش ؟

جلس كل منهما فى سريره متقابلين .. قص صديقنا على زميله اسباب نقله الى القسيمة .. واهتم الآخر بالجانب الخفى من القصة .. لماذا خاف القائد ورئيس العمليات من مجلة الطليعة .. وملأ السر الذى اهاج المقدم الأسمر عندما رأى أسماء الذين يحررون المجلة .

كانا كمراهقين يتآمران لسرقة بعض الكتب الخارجة التى يخفيها والدهما عن أعينهما .. كانا يودان أن يفهما .. ثم يقررا .. وكان هذا هو موقف عديد من شبابجيلهما لقد استكملوا وعيهم فى ظل ثورة طردت الانجليز والرجعية والخوف ولم يكونوا قد استوعبوا الخوف الجديد بعد الذى كتمه عنهم الاكبر سنا .. لذلك فلقد كانوا مخاطرين مجاذفين يرتادون أصعب البحور وأخطر الطرق بقوة نابعة من غفلة عما يحيطهم من شراك قاتلة وهو الأمر الذى جعل هزيمة ٦٧ تصيبهم بهزة عنيفة أثرت فىاتزانهم العقلى والعاطفى بعد ذلك .. وجعلت من السهل الانتقال من أقصى اليسار الى اقصى اليمين فى عصر الانفتاح وما صاحبه من مظاهر فجائية غريبة على التطور الاجتماعى كعودة عديد من الآنسات والسيدات الى الحجاب طوعا وتمزق أخريات فى حفلات المجون التى اقامها رجال الانفتاح القادمون من الغرب وأمريكا .

لم يتصور هذا .. ان السيدة الجادة المحترمة التى عرفها فى العمل يمكنها أن تجلس على ساقى ذلك الأمريكى تقبله أمام الجميع .. وكأنها

تعلن على الملأ بفخر علاقتها بصاحب الشركة الأمريكى .. حقا كانت قد ابتلعت زجاجتى ويسكى على الأقل .. ولكن السكر ليس مبررا لما فعلت .

لم يكن صاحب الشركة هو أول صديق لها .. لقد مرت على عديد منهم خلال تنقلاتها من شركة لأخرى بعد انفصالها عن زوجها المتأمرك .. وكانت كلما بددت سأم أكبر عدد من المغتربين تقدمت الى أعلى فى السلم الوظيفى لشركات الانفتاح حتى أصبحت سكرتيرة مكتب شركتهم وحتى اصبحت لها سلطات لا نهائية على العاملين من المصريين وبعض الأمريكيين .

وحتى أصبح لديها عربة مرسيدس وشقة فاخرة .. وهدايا لا حصر لها ومرتب ابتدائى مرتفع يتضاعف بالمكافآت والحوافز ليرفع أرصدتها فى بنوك الانفتاح بشكل متصاعد لم يحلم ببلوغه هو نفسه عندما قرر أن يؤسس شركته الجديدة .

لم تكن فتاة كباريه من اللائى اضطرتهن حياتهن الى احتراف البغاء خلال فترة الاحتلال الانجليزى لمصر .. ان الأخريات اضطرتهن ظروف الحياة الصعبة التى نتجت عن الحرب العالمية الثانية لاكتساب قوتهن عن طريق تقديم أنفسهن لجنود الاحتلال .

اما هى فقد كانت تستطيع ان تعمل فى شركة أمريكية انفتاحية دون تبذل ولكن الانفتاح لم يكن انفتاحا اقتصاديا فقط .. لقد كان سلوكا .. وعلاقات وتقاليد غزت بلدها مع كل دولار .. لقد انتشرت أفلام البورنو فى كل قرية ومعها قيم المباراة الأمريكية التى فرضت نفسها على السلوك والذى امتصته سيدتنا من خلال محاولاتها المستمرة لفهم الانسان الامريكى لتتعامل معه .

عندما رأت نظرات الدهشة فى عينى صديقنا صرخت بالعربية فى وجهه ماذا تريدون منى ؟ اتركونى أعيش حياتى .. هل ستتصرف مثل البيه اللى كان مستعبدنى .. ؟ أنا حرة .. أنا حرة .. أنا حرة ..

الفصـــل السابع

ظهرت الشمس وتسللت أشـــعتها الحمراء من فتحات الخيمة التى يسكنها الشلابان ومع الفجر تنفست الصـحراء بنسمات نقيـــات فانتعش صـــديقنا .. قفز من سريره وغادر الخيمة يتعبد فى جمـــال الطبيعة .. الجبال البنفسجية تلمع مع الاشعة المنعكسة على الصخور الملساء والوادى يمتد مسطحا تتخلله تباب صغيرة يداعبها الهواء فتطرد قليلا من رمالهـا على هيئة ســـحابات خفيفة والحركة بدأت تدب فى المعســـكر الراقد فى حضن السحر .

حياه جندى شلاب يلف فوطة صفراء حـــول راســـه وأذنيه بابتسامة ودودة .. ثم اقترب منه عارضا خدماته بحب .

كان كل ما يحيطه يبعث على البهجـــة .. وشـــعر بالطمئنان غريب وهدوء .. قدم جندى آخر يهرول .. فلقـــد كان المكلف برعايتهما حاملا معه جركن ممتلئا بالمياه ليساعده فى تنظيف نفسه .

كان يدلك أسنانه بواسطة الفرشاة والمعجون ويتامل المكان (الذى نفى اليه) فى ضوء الشمس .

حلق شعر ذقنـــه .. غسل وجهـــه .. ارتدى ملابس نظيفة .. واستعد لاستقبال يومه .

استدعى قائد المأمورية زميله .. طلب منه أن يصاحب الكومبرسور لاصلاحه بالورشة ثم اختفى .

جال صديقنا فى المعسكر بدون هدف .. التقى برقيب أسمر حزين يطلق لحيته كان يعرفه اثناء تواجده بالكتيبة .. فهو شاعر .. ينظـــم قصائده بالعربية الفصحى وعلى المنهج القـــديم ثم يحرقها — رغم أنهـــا جيدة المستوى — بعد تلاوتها مباشرة .. فقد كان يمتاز بعزة نفس تمنعه من أن يقدم نفســه لمن لا يقدره .

رحب به .. سارا سويا .. كان الرقيب قد تبرع بتفسير ما يحدث حولهما عندما لاحظ جهل الضابط بالموقف وتفرع الحديث بينهمـا فجلسا فوق ربوة تطل على المعسكر ليتلو الرقيب فى لغة عربية سليمة وصوت قوى قصيدة من قصائده عن تجربته فى حرب اليمن يطـل منها التشاؤم عندما عاتبه على المراره التى بقصيدته .

انفجر الآخر منفثا عما يطويه داخله قائلا ـــ

أنتم تتصورون أن حربنا فى اليمن عبـارة عن نزهة عسـكرية .. وانها فى سبيل القيم العليـا .. والاخوة المشتركة .. ولكن المهازل التى قام بها الضباط والجنود المصريون لا يمكن أن تقترب من المثل العليا ابدا .. احراق القرى والقتل الجماعى والتعـذيب للأسرى .. لا يمكن أن يكون اخوة مشتركة .. ان التدمير لم يلحق بالشعب اليمنى فقط ولكن ايضا بالجيش المصرى .. لقد تفتت الجيش بشكل لا يمكن تصوره وتضاربت الأوامر لدرجة اننا نحن صغار الصف ضباط كنا نعجب من الفوضى غـير المحكومة .

ثم اكمل مدللا ـــ هل تتصور سيادتك أن فصيلة مهندسـين مثـل فصيلتنا هذه تصدر لها الأوامر بالهجوم على نقطة فى الجبل كما لو كنـا مشاة .. لقد مات نصف جنـود الفصيلة لأنهم لم يدربوا على واجبـات المشـاة .. هل تتصـور اننى كونت عصابة من جنـود السرية لسرقة التعيين .. لقد أوكلوا الينا مهمة انشاء طريق جديد وتركونا مع معداتنا بدون أى طعام لمدة طويلة كان الضباط ياكلون فى ميزات ضباط الوحدات المختلفة القريبة من الطريق على امتداد تقدمه .. ونحن لم يفكر اى منهم فى اننا نحتاج لوقود لنعمل اضطررت لسرقة الدقيق والطعام وحفرت حفرة ضخمة تحت الخيمة دفنت فيهـا المسروق واسسنلا مطبخا خاصا لنا .. لاطعام الجنود .. ولم يسالنا ابدا الضباط من اين نأتى بطعامنا .

حضر أحد الصف ضباط يستأذن فى ايقاف العمل لكى يتناول الجنود افطارهم الذى وصل لتوه من كتيبة الصاعقة الملحقين عليها فاذن لهم .

أكمل الرقيب لصديقنا .. لقد كان اهتمام الضباط .. ثم تردد قليلا واضاف والصف ضباط والجنود هو أسعار البضائع فى سـوق الملح .. واسعار استبدال الدولارات بالريال اليمنى .. كان الجندى ياكل ويدخن ويعيش على حساب الجيش وكل « بكشة » (مليم يمنى) يحصـل عليها يحولها الى معدات كهربائية أو ملابس أو اى بضائع يستطيع بيعهـا فى مصر بأضعاف ثمنها .

سرح ببصره قليلا ثم اضاف لقد كانت مهـــزلة .. ثم اصفر وجهه ووقف مرتبكا ناظرا تجـــاه قول من الســـيارات الجيب المخصصة للقيادة وهمس بصوت متحشرج قائه الفرقة .

هبط صـــديقنا من فوق التبة واتجـــه الى المكان الذى توقفت فيـــه العربات ليجد عميـــدا ومعه مجموعة من الضـــباط .. كان سائق احـــد البلدوزرات قد ترك افطاره وقفز الى معدته يديرها .. وحدث هرج بين الجنود الذين يتناولون طعامهم .

وصاح العميد فى صديقنا ـــ لماذا لا تعملون ـــ ؟ يبدأ العمل عندما نحضر .

أجاب صديقنا ببرود .

ـــ اننا نعمل من السادسة صباحا.. الآن فترة راحة لتناول الافطار الذى وصل لتوه ..

ثم اضاف بصوت منخفض ـــ لقد أعطيتهم الأوامر بالتوقف .
علق احد الضباط المتحلقين حول العميد ـــ

ـــ اذا كان الامر هكذا .. فلماذا امرتهم بالعودة للعمل عندما رأيتنا

رد صديقنا باستفزاز ـــ انا لم اصدر الأوامر ببدء العمل .. انما هو رعب سائق البلدوزر من العربات الجيب .

اقتنع العميد بتسرعه فى اللوم واتجه الى الحفر التى أعدتها السرية لتركيب الملاجىء .. ووقف أمام احداها وسأل ـــ هل هذا ملجأى .. ؟

رد صديقنا ـــ أنا حضرت امس فقط وقائد المأمورية يمر على الاعمال الاخـــرى .

تجاهله العميد وسأل سؤالا آخرـــ هل المدخل من هنا ؟

صـــمت .

ـــ هل هو ملجأ خفيف أم ثقيل .. ؟
وعندما وجد أن الآخر لا يرد عاد الى هياجه .

ـــ أنت شـغلتك أيه .

ـــ مهندس .. يا فندم . .

رد بضراوة ـــ انت ولا حصلت حتى عسكرى .. اذهب لاحضـــار قائد المأمورية ..

تركه منـــدهشا .. فالمفروض أن يفهـــم ما معنى حضـــوره امس فقط .. وكانت تتبعه تعليقات باقى الضباط عن انحلاله فهو لم يؤد التحية العسكرية ولا يحترم الرتب الاكبر .. وعن جهله أيضا فهو لا يعرف ما فى الموقع .

أنقذه حضور قائد الكتيبة .. الذى قابله العميد شاكيا له من ضابطه الصغير المنحل .

سأله قائد الكتيبة عن قائد المأمورية ..

فرد أنه لا يعرف أين ذهب ؟؟

تعجب القائد ـــ فالآخر يعلم بقدومهم ومع ذلك لم ينتظرهم ولم يلقن الصـــــغير ..

جلس بعيـــدا عنهـــم منزعجا .. يفكر فى الأسباب التى جعلت قائد المأمورية يتصرف على هذا النحو .

اقترب منه الرقيب الشاعر وكان يرقب الاحداث من بعد .

قال مسريا عنه ـــ هكذا هم دائما .. يتصورون القيادة صراخا . ابتسم صديقنا .

رد الآخر بهجوم لا يتناسب مع الموقف ـــ وستتعلم أيضا أنت هذا .. لقد كانوا جميعا مثلك عندما حضروا لأول مرة .

وتعلم صديقنا الصراخ بأسرع مما يتوقع شاعرنا .

كان يقف وزميله فوق ربوة يراقبان الشمس فى غروبها وكان كل منهما يقص على الآخر أحداث يومه .. وكان صديقنا ينتقد قائد المأمورية الذى هرب من مواجهة ضباط القيادة لتأخره فى تنفيذ البرنامج فترك ضابطا صغيرا لمواجهتهم بجهله. عندما حضر جندى معه ورقة صغيرة .. عندما قرأها صديقنا ثار غضبا وطواها ثم دسها فى جيبه وأمر الجندى بالأنصراف .

كانت الورقة تحتوى على أمر من قائد المأمورية للصغيرين بحفـــر ثلاثة ملاجىء بالابعاد المطلوبة تخريما وتكسيرا وحفرا .. وكان يقف بعيدا عنهما بمائة متر فقط .. اى يمكنه أن يحدثهما فيما يريد .. وبدون اوراق وامضاء بالمعلومية وخلافه .

عندما وصل الجندى حتى القائد .. سمع صديقنا صياحه وتوعده للجندى بالضرب فى حالة عدم العودة بالورقة موقعا عليها من الضابطين .

وهنا حقق صديقنا نبوءة الرقيب الشاعر .. لقد صاح فى الجنـــدى العائد بصوت أعلى من قائد المأمورية بل شرع فى ضربه تنفيثا عن ضيقه .

فى الصباح لم يستيقظ صديقنا فى السادسة مثل زميله .. وتركه قائد المأمورية فقد كان يعلم أن القائد سيحضر ثانيا فى ذلك اليوم .

وحضر القائد .. واستمع الى شكوى قائد المأمورية من صديقنا .

زاره فى خيمته .

ـــ سأله عن سبب تأخره فى النوم ..

رد الآخر ـــ مريض .

سأله القائد عن مرضه ..

رد الآخر بخبث ـــ مرض سياسى .

ضحك القائد فلقد كان هذا التعبير شائعا فى تلك الايام وبصـــوت يتخلله احساس أبوى دافىء خاطب صديقنا .

ـــ يا بنى يجب أن تكون مرنا مثل الشجرة .. تنحنى مع العاصفة لتقف ثانيا ثابتة لا تكن جامدا فتكسر ولا لينا فتعصر .. كل ما أطلبه منك المرونة .

أن قائد المأمورية رغم ما يبدو عليه من عنف الا أنه طيب .. وماحدث امس لم يكن ضدك .. لقد كان ضدى انا .. ولكنه ليست لديه الشجاعة لمواجهتى .. عموما لو لم تعمل معى فى الكتيبـــة ولو لم أعـــرف قدراتك لكان لى حساب آخر معك .

يا بنى لا تتصور أن هذا العالم أبيض أو أسود .. هنـــاك رماديات بدرجات مختلفة وهى الصفة الغالبة علينا جميعا .. ان ما ورطنا فيـــه خلال مناقشات قطار العريش .. وردود افعالك مع سيادة العميـد ومع قائد المأمورية لا تتناسب أبدا مع ذكائك الاجتماعى فى التعامل مع الجنـــود والصف ضباط . يكفيك ضربة واحدة بما فعلناه معك عقب وشاية المقدم الأسمر .. وسنعطيك فرصة أخرى .. ستعمل منفصلا فى تجهيز الموقع الخلفى وستكون مسئولا أمامى عن تطور العمل .. على أن ينتهى خلال شهر واحد .. هل سمعت .. !

كان عليه ان يجهز خلال ساعتين فقط مطالبه وينهم مهمته .. ويرحل الى الموقع الجديد مستقلا عن قائد المأمورية .. قبل أن يرحل قائدالكتيبة

سارع فى نشاط تجاه الرقيب الشاعر .. يستشيره .. الذى جهـــز له كل الطلبات والكشوف .

صدق القائد على الكشوف والطلبات ثم أصطحبه الى الموقع الجديد حدد له المهام المطلوبة منه بدقة واستمع الى اسئلته .. ثم غادره متمنيا له التوفيق وهكذا فعل تماما قائد الكتيبة عندما اوكل اليه انشاء سد حرض فى اليمن فقد ذهب معه الى الموقع .. بقى فى خيمته عاريا الا من ملابسه الداخلية لمدة أسبوع يتابع تطور العمل ويناقشه وزميله فى المشاكل التى تعترضهما .. ويقترح الحلول .. حتى تأكد من أن العمل يسير فى تطوره الطبيعى .. فعاد الى الحديدة ولم يشاهداه بعد ذلك الا اثناء الاحتفال بتحويل المياه .

لقد تولدت بينهما صداقة غريبة من نوع العلاقة التى قامت بين صديقنا ووالده فى بداية حياته .. الحب والصراع او كما يقول الماركسيون الوحدة والصراع .. كان والد صديقنا يقول لقد تعلمت من ابنى ما لم أتعلمه من الآخرين .. عندما أفتقدت روح العلاقة بيننا وحل محلها صراع دائم .. تسللت الى حجرته واستعرت بعضا من كتبه .. ومنها اكتشفت عوالم جديدة .. لم أكن اتصور أنها قائمة فى واقعنا .. قبل قراءتى فى كتبه كنت لا اتخيل أن هناك من هو افضل من طه السباعى ولطفى المنفلوطى واحمد شوقى .

ولكننى أكتشفت سلامة موسى ومحمد عبد الحليم عبد الله وعلى احمد باكثير ويوسف ادريس ونجيب محفوظ وابليا أبو ماضى وصلاح عبد الصبور من خلال كتب ابنى .. وبعدها أصبحت لنا لغة مشتركة .

وهكذا قال له قائد كتيبته بعد ذلك ـــ

كنت أعرف أن خبرتك محدودة أن لم تكن لا شىء ولكن كان هناك ما يميزك هو علاقتك الطيبة بالصف ضباط والجنود .. وكنت أعرف انهم يمكنهم تدريبك وأنك لن تتعالى على التعلم منهم .. عندما قرأت كشف الصف ضباط والجنود الذين اخترتهم تأكدت أنك سوف تنجح فى أداءالعمل. فلقد كانوا فى حاجة الىوجوه جديدة ودم جديد يدفع الحماس بينهم فى مقابل العنف والبيروقراطية التى كان يدير بهما قائد المأمورية العمل .. وكنت متأكدا أيضا أن المنافسة التى ستقوم بينك وبينه ستجعله يغير من طرقه فى الادارة ويتنازل عن جزء من صلفه حتى لا يفشل فى تحقيق معدلاتك .. لقد أستفدت منك كثيرا .

صعد صديقنا الى ربوة عالية فى الموقع الجديد ليخطط العمل كان معه رقيبان أحدهما تعرفونه انه الشاعر الناقد لحرب اليمن .. أما الآخر فقد كان المسئول عن تشغيل المعدات .. شاب من بورسعيد ذو شخصية مرحة وحازمة بحيث كانت له سطوة غريبة على الصف ضباط من سائقى المعدات .

كانوا يحترمونه ويقدرونه ويخافون منه .. وكان دائما يدافع عنهم وعن حقوقهم أمام الغير حتى ولو كان هذا الغير قائد سرية المعـدات .. وويلهم منه اذا أخطأ أحدهم .. كان يديرهم بطريقة رب الصناعة القديم.. وكان كل ما يرجوه أحتراما متبادلا بينه وبين الضباط الذين يقـودونه كى يسوس جنوده ويستخرج أقصى طاقة بهم فى العمل .. وكان قد سمع عن صديقنا وأحبه بدون أن يتعامل معه .. وهو الذى أوحى للشـاعر بأن يضيف اسمه الى المأمورية حتى يتخلص من ضغط رئيسه .. ويحـرجه بمعدل الأنتاج المالى الذى قرر ان ينجزه فى الموقع المنفصل .

وهكذا كان لدى ثلاثتهم الحماس والرغبة فى تنفيذ عمـل من نوع جديد .

أختار صديقنا مكانا ينصبون فيه خيام الجنود .. ولكن المخضرمين اعترضا قالا ان هذا المكان سيردم بنانج الحفر .. فاتجاه الريح يجعلهـا تحمل ناتج النسف والحفر الى الخيام .. واقترحا مكانا عكس اتجاه الريح والحفر فوافق صديقنا .

وحول الخيام قرروا خندق لتنصب عليه ادبخانة ميدانية ومكـانا لنوم الضباط وخيمة تستخدم كمكتب للأدارة ومخازن للمفرقعات ومكـانا لتجريج المعدات وصيانتها واصلاحها .

كانت الأماكن التى أختارها الضابط متباعدة وهنـا اعترض الرقيب الشاعر قائلا :

أن معنى ذلك اننا سنضطر لتنظيم خدمتى حراسة مما سيرهق الجنود ويخفض انتاجهم فى اليوم التالى .

وبذلك قاربوا بين عناصر المعسكر بحيث تستطيع خـدمة حراسة واحدة حراستهم ليلا .

واستغرقوا جميعا فى تنظيم المعسكر والأستحمام وغسيل الملابس حتى نهاية اليوم .

أجتمع بهما فى المساء .

قالا له ــ نرجوك الا تزعج نفسك بالعمل .. نحن سنقوم به بالكامل ولا حاجة لك للخروج من الخيمة .. « أصل الكلمة الحلوة بتأسر » .

رد عليهم بتواضع حقيقى ــ ولكننى أريد أن أتعلم فلا تحرمونى من هذه الفرصة .

قال الرقيب الشاعر بخبث ــ العفو يا فندم بس حضرتك ضابط .

اجاب الآخر متجاهلا خبثه ــ ضابط حقيقى ولكننى فى حاجة للتعلم.. وساتعلم منكم جميعا حتى أصغر جندى .

ليلا تجمعوا فى خيمة الصف ضباط بعد يوم مرهق .. وتطرق الحديث الى المواهب التى أكتشفها صديقنا فى الكتيبة .

وتبرع أكثر من فرد بتعريفه باشخاص لهم مواهب أخرى .. أحدهم يغنى وآخر يتلو التواشيح وثالث يرقص ..

وبدأ يستعرض المواهب .. يشجعهم بابتسامة خفيفة وتصفيق .. وتجلت المواهب .. حتى العاشرة .

كانوا جميعا سعداء .. ولم يغضبوا حين نبههم أن ساعة النوم قد حانت فسيستيقظون مبكرا لبدء العمل .

فى طريقه الى خيمته كان أحدهم يقارن بينه وبين قائد المأمورية الذى كان يتسلل الى خيامهم ومعه الكشاف لابسا حذاء كاوتش ليتأكد من أستتباب الأمن وعدم التهريج فى المأمورية .

أستيقظ فى السادسة صباحا ليجد جنديا واقفا أمام خيمته .. فتحها لف المدخل وربطه لتمتلىء بضوء الشمس والهواء النقى .. أحضر من داخلها فوطة وصابونة وجركن مياه .. بدأ يصب الماء على راسه ليغسل وجهه ويديه واثناء تجفيفهما .. أحضر من الداخل الافرول وشرابا نظيفا والحذاء لمعه بقطعة من القماش وانتظره حتى حلق ذقنه ثم ساعده فى ارتداء ملابسه .

اخذ ملابس النوم رتبها ثم علقها .

ساله .. من الذى كلفك بهذا العمل .. ؟

رد .. بأن الرقيب المسئول عن المعدات أرسله لمساعدته .

وجد الرقيب الشاعر قد جمع الجنود وسلمهم معدات التخريم والتفجير وأن الرقيب الميكانيكى قد جهز الكومبرسور واستعد للعمل وان البلدوزر قد بدأ يطقطق ايذانا بتشغيله ..

كان الشاعر حليق الذقن يبتسم على غير عادته .

قال لصديقنا بحب ــ صباح الخير يا فندم لعلك أسترحت فى النوم .

أجاب الآخر بود ــ شكرا ــ ماذا سنفعل الان ؟ .

كان يمكن سماع دقات قلبه من أخر مكان بالمعسكر .. لقد كانت تجربته الأولى .. أن يكون على قمة هرم المسئولية .. ولم يكن يعرف من

أين يبدأ كان التحدى يدفعه .. ولكن عدم الخبرة تعرقله .. لقد فكر كثيرا خلال ليلة امس ..ترى ماذا يستطيع ان يفعل .. وتصور بشكل منطقى خطوات العمل تخريم الأرض .. حشوها بالمفرقعات .. تفجير العبوات .. ازالتها بالبلدوزر كان يحاول أن يجهد ذهنه ليتذكر الأبعاد المناسبة بين خرم وآخر واطوالها لتعطى العمق المطلوب من التفجير .. كانت هناك معادلات معقدة تختلف من نوع أرض لأخرى ومن نوع مفرقعات لاخرى ومن طريقة نسف لأخرى .. وتاه .. وتمنى لو أن مهندس المقاولين الذى علمه فى العريش كان معه .

رد الآخر ـ قلت لسيادتك أسترح ونحن سنقوم بكل العمل .. حدد لنا سيادتك مكان الملاجىء والباقى علينا .

وقرر أن يبدأ من حيث انتهوا .. فليتركهم ينفذون العمل بنفس الطرق التى تعودوا عليها .. وخلال العمل قد يستطيع تطويره .

واصبحت هذه وسيلته للتعرف على الاعمال كلما بدأ من جديد .. الانتظار والمراقبة .. ثم النقد والتطوير .. وهو الأمر الذى لم يفطن اليه رغم بساطته كثيرون .

فقد لاحظ بعد ذلك أن أى مسئول او قائد يتولى قيادة جديدة .. يبدأ بهدم كل ما تم قبله .. ثم يفرض وجهة نظره التى لا تكتمل أبدا اذ يهدمها من يأتى بعده .. قد يكون ذلك بسبب الثقة الزائدة فى النفس والتى افتقدها صديقنا فى بداية عمله بالقوات المسلحة .. وقد يكون لأختلاف وجهات النظر السياسية بين قائد وآخر .. وقد يكون احساس المسئول بان فرصته فى البقاء فى منصبه محدودة وعليه أن يترك بصماته .. ولكن صديقنا تعلم من مأمورية انشاء الملاجىء بالقسيمة أن يكمل البناء ويطوره بدلا من أن يبدأ التجارب من جديد .

بدا الأفراد يعملون بحماس خلية النحل .. كما لو كانت خيوط غير مرئية تحركهم .. كل منهم يعرف مهمته جيدا .

الملجأ يخطط مكانه بواسطة الشرائط والجير .. الأخرام يحدد مكانها بحيث تفجر دائرة قطرها متر .. الخراطيم تركب فى الكومبرسور .. الشواكيش تركب فى الطرف الآخر .. جنديان يتبادلان استخدام الشاكوش الواحد فى التخريم .. البنط يتم استبدالها حسب الاعماق المطلوب تخريمها .

تبادل صديقنا الحديث مع الجنود .. كان يسأل كلا منهم عن طبيعة عمله فيجيب بفهم وكان رقيبهم ينظر اليهم بفخر .

كان الرقيب الميكانيكى منهمكا فى اعطاء التعليمات لسائق البلدوزر .. الذى يرتشف الشاى ويدخن سيجارة ويستمع الى رئيسه باهتمام .

عندما لمح صديقنا رمى سيجارته على الأرض وحياه بود ، سأله .. هل أرسلت جنديا لخيمتى ؟ .

رد الآخر ــ نعم يا فندم .

ــ لمـــاذا ؟

ليساعد سيادتك .

ــ ألم يكن له عمل سيتعطل .

ــ وهل ستبقى سيادتك من غير مراسلة .

ــ ولما لا .. ؟؟

ــ مش ممكن طبعا .. لقد عملت بالقوات المسلحة منذ خمسة عشر عاما ولم أر او اسمع أن ضابطا يمكنه أن يعيش بدون مراسلة .. من الذى سيغسل ملابسك ويحافظ عليها ويرتب سريرك ويصب عليك الماء .

قال الآخر بتردد ــ لقد تعلمت كل هذا فى الكلية الحربية .

ــ ميخلصناش يافندم .. سيادتك واضح انك ابن ناس .. وكلنا نخدمك بعنينا .

كان ضميره يؤنبه لا يمكن ان يعطل قوة عمل ويحجزها بجواره لكى يصب عليه الماء صباحا .. وفى نفس الوقت لم يجرؤ على تغيير نمط حياتهم بشكل مفاجىء .

وجاء الحل من الجندى نفسه .. فقد تطوع أن يساعده صباحا .. ثم يقوم بدوره مثل باقى الجنود خلال اليوم .

كان يتكلم معهم ويلاحظ الشواكيش والبنـــط وهى تشـــق الأرض لتحفر اسطوانة رفيعة فى الصخر .

أكتشف أن سرعة اختراقها للأرض عالية فى البداية .. ثم تواجهها مقاومة بعد ذلك فتنخفض السرعة .. وبالتالى فالطبقات الأولى من الأرض لا تحتاج لتفجير .

وكان يلاحظ البلدوزر وهو يعد أماكن حفر الخيام لقد كانت سرعته عالية وتصل الى أعماق كبيرة .

عندما نقل ملاحظاته لمساعديه واقتراحه بأن يبدأوا الحفر بواســـطة البلدوزر حتى الطبقات الصلبة التى يفجرونها بالمفرقعـــات .. لم تلـــق قبولهما .. ولكنهما وافقا على اجراء التجربة أرضاء له .

كان التخريم يستغرق ثلاث ساعات واعداد الحفرة للنسف تستغرق نصف ساعة وكان النسف والتطهير يستغرق ساعة أخرى .

وكانت الحفرة الواحدة للملجأ تحتاج للنسف على مرتين اى ثمـــانية ساعات بدأ يجرب طريقته .. استطاع البلدوزر أن يصـــل الى الارض الصلبة بعد نصف ساعة .. واستغرق تخريم ونسف وتطهـــير الجـــزء المتبقى ثلاث ساعات ونصف .. وبالتالى وصلوا الى نفس النتيجة الســابقة فى أربع ساعلات .. أى كان بامكانهم مضاعفة الأنتاجية .

كانت للتجربة الجديدة فعل السحر فى نفوس جميع الأفراد .. لقد كان واضحا الفرق بين الطريقتين :.

كان صديقنا سعيدا أن أصبح له دور فى تقـــدم العمـــل .. وكان الرقيبان أكثر سعادة .. لقد وجدا قيادة تستطيع تطوير العمـــل .. اما الجنود فلقد أكتشفوا من الوهلة الأولى أن صديقنا ليس بالضابط المؤدب الذى يعاملهم معاملة انسانية فحسب بل ايضا قيادة تستطيع دفع عجلـــة الأنتـــاج .

وأحتفلوا جميعا فى المساء بانتصارهم لقد أنجزوا حفـــر ثلاثة ملاجىء بدلا من ملجأ واحد ونصف .. وهم نصف قوة المأمورية فقط .. انهم لم ينجزوا ابدا بكامل قوتهم أكثر من ملجأين يوميا .

تجمعوا فى خيمة الصف ضباط وبداوا يضـــحكون من المواقف التى حدثت خلال اليوم .. كانوا جميعا يتكلمون ببساطة وحب .. حتى فاجاه رقيب السرية بأطباق الطعام التى وصلتهم .. لقد كان فولا بكمية قليلـــة وعسلا أسود تستطيع تمييز رائحة الحموضة فيه من على بعد .

سأله ـــ هل من الممكن ان يتناول أنسان مثل هذا الطعام ؟

ولم يجد صديقنا المبرر الان يدافع عن القوات المسلحة .

رد ـــ لا .

ـــ هذا هو ما أحضروه لنا كى نأكله .

غلى الدم فى عروق صديقنا .. لقد كانت تجربة جديدة عليه ..كيف يتصرف ؟

لاذ بالصمت .. وعاد الى خيمته ليجد طعامه .. أرزا ولحما وخضارا وفاكهة .

سأل الجندى المتطوع بخدمته من الذى أحضر الطعام ..

رد الآخر ــ من كتيبة الصاعقة المجاورة فنحن ملحقون عليها .
فى الصباح وبعد ان أطمأن على سير العمل .. وبعد أن اكتشف أن افطار الجنود هو نفس عشاءهم .. تسلل من المكان وذهب الى كتيبة الصاعقة وقابل قائدها .

وبعد أن شرح له مدى الجهد الذى يبذله جنوده .. ثم قلة الطعام ورداءته استدعى القائد جندى المراسلة وسأله عن عشائه وأفطـــاره .. فاكتشف أن جنوده قد تناولوا أصنافا اخرى من الطعام .

استدعى رقيب المطبخ .. واجهه بالفارق بين طعام الملحقات (أى جنود المهندسيين) وبين طعام جنوده فتلعثم .. ثم قال انها اوامر رئيس الشئون الادارية .. وظهر السبب .

لقد كان هناك عجز فى عهدة رئيس الشئون الادارية .. وكان لديه بعض الأصناف التالفة .. فوجدها فرصة لتسوية العجـــز والتخلص من التالف بارساله الى جنود الملحقات غير واضع فى الاعتبار ان بينهم رقيبا سرق التعيين فى اليمن لأطعام جنوده .. وقائدا رومانسيا يقتله ظلم الانسان لأخيه الانسان كان صراخ قائد الصاعقة يكاد يصل الى القاهرة .. لقـــد ضبط متلبسا .

وتم عزل رقيب المطبخ وتأخير أجازة رئيس الشـــئون الادارية .. ودعوة صديقنا للغداء فى ميز الضباط .. وتحسن طعام الغـــذاء لجنـــود المأمورية ..

على مائدة الغـــذاء بدأ أحدهم بالحـــديث عن الذبابة التى وقعت فى الشوربه فأخرجها والتقص ما علق بها ثم رماها وتبعه آخر بالحديث عن الخنفساء عندما تدخل النار وتطرقع مستفيضا فى وصف العروق والحنايا القـــذرة .

وكاد هو أن يفرغ ما فى معدته .. ولكنه لاحظ نظراتهم له وترقبهم لردود افعاله وتذكر أن رجال الصاعقة لا هم لهم الا المبـــاهاه بقـــدرة احتمالهم وأكلهم للثعابين والسحالى .. وقرر أن يفسد خطتهم ..

فتدخل فى الحديث ليقص قصة مختلقة عن أحدهم الذى كان عليـــه تنظيف مجرور واستفاض فى وصف شكل الفضلات ورائحتها .. ثم قال أن الرجل فى هذه الأثناء عطش فشرب من المجرور .

وتعالت الضحكات .. ثم علق صاحب الذبابة .

ــ الله يقرفك يا أخى .. ده كلا مقلوله على الاكل ..

أعتذر قائد الكتيبة بأن عادتهم مع الضيوف على الاكل أن يكتفوا بقصة الذبابة ولكن عدم مبالاته واستمراره فى الاكل جعلهم يتمادون .

فى المساء كانوا قد أتموا حفر ثلاثة ملاجىء أخرى وأعدوا ملجـــأين للنسف المبكر صباحا .

كان صوت اسرائيل يذيع أغنية كلماتها يا حبيبى واحشنى وروحى فيك وبقالى زمان .. وتنهـــد الجالسون حـــول المذياع وبدا كل منهـــم يقص أشجانه ثم غنى العريف سائق البلدوزر بعض التواشيح .. لقد كان مداحا محترفا قبل تجنيده كان له صوت قوى وحساسية غنية ورثها من أجداده قدماء المصريين مباشرة لم يستطع الزمن أن يغيرها هى او الألحان التى يشدو بها .

فى ماريوت عمر الخيام .. كانت نغمات بحيرة البجع تنساب بهـــدوء اللحن الذى يصاحب ظهور البجعة .. وكاد أن يرى البجعـــة البيضـــاء ترفرف عبر النوافذ العالية خوفا على أميرها ومنقذها من أن يستسلم للبجعه السوداء ابنة الساحر .. فتفقد حبيبها وتفقد أملها فى الحرية وكانت تجلس أمامه مباشرة على يمينها ويسارها أمريكيان حضرا لاســـتكمال دراســـة العطاء الجديد الذى سيتقدمون به .

كان أحدهما يتصرف كالطاووس لقد كان مندوب الشركة الأنجليزية التى أشترت الشركة الأمريكية .. ومفوضا منها بالادارة .. وكانت هى تحاول الاقتراب منه فلقد أصبح مركز السلطة الجديدة .. أما صـــديقنا فقد كان مستفزا منه لقد دار بينهما حوار منذ دقائق عن الرمل المغســـول أستفز كليهما .

سأله الانجليزى الأمريكى عن سعر الرمل المغسول فى مصر ليضمنه دراسته ورد صديقنا .. بأنهم لا يستخدمون فى مصر هذا الرمل المغسول.. بل يستخدمون الرمل الصحراوى .

قال الآخر ـــ ولكن المواصفات تتطلب رملا مغسولا .

رد صديقنا ـــ المواصفات خطأ .

ثار الآخر ـــ حتى لو كانت خطأ أريد أن أعرف سعر الرمل المغسول.

رد الآخر بهدوء ـــ هذه المواصفات جهزت للولايات المتحدة الأمريكية حيث يؤخذ الرمل من مصبات الأنهار أو شواطىء البحر وبالتالى يستلزم غسيله لتنقيته من الشوائب والمواصفات الأمريكية تصر على غسيلة ليلائم الخرسانة أما فى مصر فنحن نستخدم رملا صحراويا خاليا من الشـــوائب وجميع الأساتذة والمعامل توصى بعدم غسيله .

أجاب الأنجليزى فارغ الصبر ــ ومع ذلك المطلوب منك السعر دون فلسفة .

رد الآخر بيأس ــ اضف للسعر جنيها قيمة الغسيل .. ولكن احذرك ستستخدم نصف مليون متر مكعب رمل أى ان سعرك سيزيد عن المنافسين بنصف مليون جنيه .

أستفزت المناقشة كليهما .. اصبحا كديكين فى حلبة صراع الديوك .. كل منهما نفض ريشه وأستعد للهجوم .

وكانت هى ترقبهما بدهشة .. لم تكن تتصور ان هناك مصريا يجرؤ على مصارعتهم .

حاولت أن تحرز مكسبا من الصراع لصالحها .. أقتربت من الانجليزى عسى أن يشفع لها أقترابها منه لدى المالك الجديد .. هاجمت صديقنا ووصفته بضيق الأفق رغم انه فى الجانب الصحيح .. طلبت منه أن يتعلم كيف يتعامل معهم .

همست ــ انظر لى اننى أكاد أن أعمل كخادمة لهم ولكن ذلك لمدة محدودة هى فترة تواجدهم .. أما بعد رحيلهم فأنا ملكة متوجة لى جميع السلطات . علينا أن نصبر قليلا ولا داعى للعنجهية الفارغة التى لن تكسب من ورائها شيئا .

الفصـــل الثـــامن

ان لانعكسات اشعة الشمس فى مصر سحرا خاصـــا .. فى مراحلهـــا المختلفة من الشروق حتي الغروب .

ولقد تنبه قدماء المصريين لهذا فكانت تصاحب حركة الشمس لديهم طقوس خاصة كانوا يعتقدون أن الشمس تولد فتية ثم تكبر وتقوى حتى منتصف النهار لتبدأ فى الضعف حتى تموت فى المغرب .. لتسقط فى المياه المقدسة وترتد لها الحياة فى اليوم التالى مع الشروق .

وكانوا يتصورون أن فى كل مرحلة من مراحل حياتها القصيرة تتعرض لالهة الشر تحاول أن تخنقها .. وليقوا الشمس من عدوها كانوا يقـــومون بحرق البخور وتلاوة الادعية والسحر خمس مرات فى اليوم .

فى الفجر والظهر وما بين الظهر والمغرب وفى المغرب وما بعد المغرب حتى يكتمل سقوطها فى المياه المقدسة وكان يقوم بهذه الطقـوس كهنـــة متخصصون يرصد بعضهم حركة الالاهان حورس وآمون..وينادى على زملائه عندما يصل الى المكان المحدد للقيام بالطقوس .. وترسب ذلك الاحترام والحب فى نفوس أحفادهم ومنهم صديقنا فقد كان يزاول طقوسا خاصة به لرؤية الشمس والاستمتاع باشعاعاتها وتاثيرها على الموجودات حوله .. خاصة فى فترة الغروب .

فى ذلك اليوم كان رئيس العمليات قد مر عليهم واندهش من السرعة التى أنجزوا بها العمل .. وأمر بتزويدهم بالملاجىء لكى يركبوها فى الحفر المعدة لذلك .

عندما شكر صديقنا .. استدعى الصف ضباط والجنود وارجع لهم الفضل فى تنفيذ المهمة على اكمل وجه .

لم يتعود رئيس العمليات على هذا السلوك فأختلى به فى خيمتـــه ينصـــحه .

قال ــ ارجو الا يكون العناد مع قائد المأمورية او حتى الرغبـــة فى النجاح مبررا لتفعل هذا .. !!

اندهش صديقنا لقد كان أخر ما يتوقع سماعه .

اكمل الآخر ــ ان جلوسك يوميا بين الجند وتبسطك معهم والتهريج يقلل من مكانتك كضابط .. اليوم يجلسون معك .. باكر ينادونك باسمك بعد ذلك لا ينفذون أوامرك وتصل فى النهاية لضربك .

لا تضحك فهذه تجارب حدثت فعلا فى الجيش .. أمس مثلا كانت هناك محاكمة لضابط ورقيب تضاربا .

طظ فى الشغل اذا كان على حساب مكانتك كضابط ارجو أن تتعلم من قائد المأمورية .

كان كونشرتو الأبوا والأوركسترا لهايدن ينبعث من المذياع .. كانت تذيعه اذاعة لندن .. وكان قد أسترخى تماما مع النغمات المتتالية المترابطة للأبوا ردا على اللحن الأساسى الذى عزفته الأوركسترا .. وكان يتـــأمل الشمس فى غروبها وتطن فى رأسه كلمات رئيس العمليات .. عندما فوجىء بزميله يهزه .. لقد عاد من أجازته وانتهز فرصة انتهاء العمل فاســـتأذن لزيارته فى موقعه .. كان يحمل له مفاجأة .. كتابا عن الماركسية اســـمه « أصول الفلسفة الماركسية » لقد بحث عنه حتى وجده فى مكتبة بوســـط المدينة تسمى « مكتبة الشرق » متخصصة فى بيع الكتب الشيوعية .

قال له انه قد التهم الفصل الأول عن المادية الجدلية وانه كلام علمى يعجب لماذا يخافون منه أو يهاجمونه .

كانت الأبوا لازالت تصارع الأوركسترا وكان واضحا انها قد انتصرت لقد رقت الى أقصى درجة .. ورقت معها مشاعره حتى انه لم يســـتطع التحكم فى دموعه .. كان قلبه ينخلع خلعا .. يقفز الى اعلى كما لو كان يرغب فى التوحدمع اللحن او أن يستبقيه الى اقصى درجة يملأ اذنيه .

وكان يضغط على عينيه يحاول استيعاب كل لحظة من لحظات العزف عندما بدأ زميله يلخص له ما قرا .

قال بشكل مفاجىء ــ كل شىء مرتبط ببعضه تمام الارتباط بمعنى ان كل ما فى الكون من جزئيات مادية او معنوية مرتبط كل منهما بالآخر يؤثر فيه ويتأثر به .. وهو فى حالة حركة مستمرة هذه الحركة سببها تراكمات كمية بطيئة يعقبها تغير نوعى سريع .. وان هذه التراكمات تحدث من خلال صراع الاضداد .. كل شىء يحمل نقيضه يصارعه .. وعن طريق التراكمات الكمية البطيئة لكلا النقيضين يحدث تغير نوعى لتثبيت بداخله التناقضات ثانيا لتتصارع .

بمعنى ان الحياة فى حالة وحدة وصراع .

و

كانت نقلة سريعة لم يستعد لها صديقنا .. حاول ان يلفت انتباهه الى السحر الذى حولهما .. الشمس .. الصحراء .. الابوا .. والاوركسترا .

ولكن الاخر كان قد شغله اكتشافه عن اى شىء .

كان يتكلم بسرعة ــ انظر انه قانون الحياة الحقيقى .. وهو صحيح على المواد الجامدة كما انه صحيح على مستوى الحياة والفكر .

الحركة يا صديقى من خلال الوحدة والصراع .. التراكم الكمى ثم التغير النوعى .. هل تعرف ما معنى هذا خذ مثلا قدرا من الماء فوق النار هناك صراع بين البرودة والحرارة يحدث تراكم حرارى يعقبه تغير نوعى الماء يتحول الى بخار .. يحدث تراكم برودة .. يعقبه تغير نوعى .. الماء يتحول الى ثلج .. وهكذا حياتنا داخل جسم الانسان هناك صراع بين الموت والحياة .. يحدث تراكم كمى للضعف يعقبه الموت .. يحدث تراكم كمى للقوى يعقبه نمو وانتقال الطفل الى شاب فرجل .. فكهل .. الا ترى كان رد فعل صديقنا فاترا مما خفض حماس زميله ولكنه ترك الكتاب جواره ورحل سريعا .

جاءت الملاجىء وتم تركيبها وتغطيتها بالخيش والردم عليها وتركيب الهوايات والابواب واخفاؤها .. فى وقت قياسى .. ولم يغير صديقنا علاقته بجنوده ولم يضر به أحدهم .

وكان لابد من الاعتراف بأنه قد نجح ومجموعة العمل التى يقودها .

كان القائد قد تأكد بأن المقدم الاسمر لم يوش بصغيره بعد .. نناقش معه بطريقته لقد داعب انتهازيته فأفهمه أن الصغير قريب لعدد من اللواءات المهمين بالقوات المسلحة .. او بمعنى آخر ليس كل الطير من يؤكل لحمه .. وبانه قد عاقبه بارساله الى القسيمة .. واقنعه بأن يترك الامر له ليعيد تربيته .. وكان القائد لا يخفى اعجابه بصغيرنا .. بل يفتقده لذلك فلقد أعاده الى مقر الكتيبة توطئة لأن يقوم بأجازته الميدانية .

قطار الحرب يقوم من محطة الابطال فى السادسة صباحا وكان عليهم أن يسافروا من مقر الكتيبة فى الثانية صباحا حتى يستطيعوا اللحاق به . كان الضباط والجنود يحملون لفافات كثيرة اشتروها من غزة ورفح .. أطقم صينى خلاطات .. ملابس مختلفة .. علب كمبوت أنلاناس .. تنباشب زنوبة اشياء غريبة يهتم بها كل منهم حسب امكانياته المادية ولم يكن مع صاحبتا الا حقيبة بها ملابس متسخة سيبلى بها والدته .

كان بجواره ضابط مهندس تصادف انه كان قائد الرقيب الشاعر فى اليمن حاولا قضاء الوقت بالمناقشة .. بدأت بمأمورية القسيمة ثم انتقلت للرقيب الشاعر . قال الضابط — ان الرقيب الشاعر ممتاز ونشط .. ولكن عيبه لسانه انه يتكلم كثيرا .. ويحرض الجنود على السرقة .. لقد سرقوا فى اليمن معزة .. وصفيحة سمن وشوال رز وشوال دقيق .. وجعل موقفهم سيئا للغاية .. وكاد أن يحاكمه قائد اللواء .. وبدلا من أن يعتذر تبجح قائلا :

« العساكر جعانه نعمل ايه غير اننا نسرق . »

كاد صديقنا ينجر من لسانه .. لكنه تذكر درس الاجازة السابقة. ولكنه لم يمنع نفسه من التفكير .. ماذا كان يفعل وهو يرى جنوده جوعى ؟ لقد قال عمر بن الخطاب .. لا حد على سارق فى مجاعة .. !! انه لم يسرق الا ليأكل هو وجنوده .. لم تعجبه سجادة مثلا فى مدخل ميز الضباط فى صنعاء فلفها ووضعها فى عربته وركب بها الطائرة ليسافر الى مصر لولا انهم لحقوا به فى اخر لحظة كما فعل زميل لهما مشهورة قصته ومحروم من الذهاب لليمن كجزاء .

كان الآخر قد استرخى فى الكرسى المريح واستسلم لتكييف الهواء فنام . وكان هناك ضابط يقرأ مجلة جنسية تنشر الصور العارية وتتحدث عن فضائح ممثلات السينما .. ظل يتأمل صورة الغلاف لممثلة عارية ... وبفكر ترى كم من الجنيهات تتكسبها هذه العاريات لقاء حياة لغريزة دافئة.. وكم من الملاليم يكسبها رقيب أو جندى فى الجيش لقاء حياة مهلكة وأكل

عفن . ووجد نفسه ينقاد فى استنتاجاته .. له حق الرقيب يسرق الخبز والضابط يسرق السجادة ومدير الاسكان يأخذ الرشوة . .هناك قانون عجيب يحكم هذه الحياة .

كان هناك شجار بين مفتش الجمارك وأحد الضباط الذى أحضر معه خمسين شرابا (كروان دوبل استيك) المفتش يريد جمركتها والضابط يصر على انها للأستعمال الشخصى .

استيقظ زميله على الشجار . .وتعجب عندما عرف القصة .. لماذا لم يفرقها على الجنود ثم يلمها منهم بعد مضى المفتش .

وارتبك الضباط كل منهم يحاول أن يخفى ممتلكاته وعاد النقاش بين مفتش الجمرك وضابط آخر يدعى انه يحمل نصف طقم أطباق صينى والمفتش يصر على انه طقم كامل .

عندما فتح حقيبة ملابس صديقنا .. ولم يجد فيها الا ملابس مستخدمة اندهش .. نظر اليه بشك .. لقد كان شاذا بينهم وانقلبت المقاييس كما لو كان الطبيعى ان يحمل كل منهم بضائع يحاول تهريبها والشذوذ هو ان يحمل ملابسه فقط وهكذا الحال دائما مع صديقنا فهو الشاذ رغم ان سلوكه فى الغالب المفترض أن يكون طبيعيا .

فى القنطرة تغير المنظر قليلا .. أولاد وبنات فى السادسة عشر تقريبا يجرون فى القطار وكل منهم يحمل شوالا ممتلئا باللب .. يهربونه من القنطرة شرق الى القنطرة غرب .. كان الكمسارى ينظر لهم بخوف .. لقد ماتت عروس فى عمر الورد امس وهى تقفز من القطار .. غلابة .

بعد الاسماعيلية كانت المناجاة .. معلمة ضخمة ترتدى كمية هائلة من الذهب حول ساعديها وعنقها .. تمر فى القطار وخلفها رجلان معهما كيسان كبيران وهى تنادى .. اشترى زنابيب .. اشترى شرابات .. سجاير بلاطى غزة يا جدعان من جنيه لمية .. مين عايز فلوس .. فلوس .. فلوس .. فلوس يارجالة .. فلوس .

هل استمعت الى السيمفونية ٤٠ لموتسارت .. ان صديقنا يعشقها بنفس القدر الذى احبها به الاخوان رحباني فاستعاروا لحنها الرئيسى لاغنية من اغانى فيروز .. ولكنه كلما استمع لها لم يستطع ان يمتع نفسه من امرين. .اولهما ان يردد كلمات اغنية فيروز مع اللحن .. والثانى انيذكر ان بمصر مائتين وخمسين الفا من المليونيرات .. منهم خمسون يمتلكون اكثر من الف مليون جنيه .

كانت اصوات السيمفونية تأتى من بعد رقيقة تهدهده وكان يستعد لان يردد كلمات الأغنية معها فى داخله — فهو لا يستطيع ان يغنى وضيف ندوة الغرفة التجارية الامريكية يتكلم — عندما اوقفت الارقام المفزعة

استبعادة الكلمات كان الأخر يقول ان حجم الدين الرسمى على مصر قد قفز فى سنوات معدودة من عشرة مليارات جنيه الى عشرين مليارا ..وأن السبب فى ذلك (الدعم) ذلك الميراث المرعب الذى تركه لنا الحكم المطلق

كان يقول انه لابد من ايقاف النزيف .. واعادة الأمور الى نصابها لقد كان المتكلم مصريا مسئولا — لابد من الانتهاء من ما يسمى بمكاسب العمال ..

فليتركونا نتعامل مع عمالنا حسب قانون العرض والطلب .. وبالتأكيد سيكون هذا افضل لهم .. ان مليونين من المصريين يعملون فى السعودية والكويت وباقى الدول العربية ولا تظلهم قوانين المكاسب العمالية وهم سعداء . لابد من التخلص من اعباء الدعم .. ومجانية التعليم التى أوصلتنا الى هذا الحد المرعب من تخريج انصاف المتعلمين .

لابد من التخلص من القطاع العام فلقد ثبت عجزه عن خوض معركة الانتاج وأغرقنا ببضائع غالية الثمن منخفضة المستوى .

ان اول خطوات التقدم الاعتراف باخطاء الماضى وفشل سياسة الشمولية . بعد ان اصبحت الأحزاب حقيقة ما الداعى لنسب العمال والفلاحين فى المجالس النيابية .. نحن فى حاجة الى افضل العناصر المثقفة لتقود سياستنا الخارجية والداخلية . كان يتكلم بلغة انجليزية واضحة وكان المستمعون حوله فى قاعة عايدة يهزون رؤوسهم اعجابا .. وكان صديقنا قد اصابته القشعريرة .. كيف يحدث هذا ؟؟ ان اخواننا العمال والفلاحين سيتفهمون هذا جيدا .. ان مصلحتهم مرتبطة بتقدم بلدنا ولن يحدث التقدم الا اذا وثق الغرب فى اقتصادنا

علينا ان نعوم الجنيه المصرى لتصبح قيمته فى السوق هى القيمة الحقيقية ولا داعى لدفن الرؤوس فى التراب .

كان هناك اكثر من مسئول يستمعون اليه .. وكانت السيمفونية فى نهايتها تكرر لحن اغنية فيروز الشهير .

وكانت تجلس الى جوار صديقنا تدفعه فى ساقه ليستوعب ما يقوله كأنها كانت سعيدة .. انه ينادى بمبادئها .. ما الذى يفهمه هؤلاء العمال والفلاحون لكى يصبحوا اعضاء لمجلس الشعب .

وكان هناك امريكى يناقشه .. ولكن هل تعتقد أن العمال والفلاحين سينقلون عن حقوقهم بسهولة أم انك تدعو لوسيلة اخرى للتغيير ؟؟

وفهم المتحدث قصده ـــ قال نحن مجتمع يؤمن بالتغيير السلمي .. وفي يوم ما تغيرت سياستنا سلميا الى الاشتراكية او ما يسمونه اشتراكية وفشلوا والآن علينا أن نغير سياستنا سلميا الى الراسمالية الرشـيدة لنصبح اكثر تمدنا واكثر قدرة على مواكبة العصر .

قال له سائق البلدوزر الذى كان يدربه على قيادته أثناء مأمورية القسيمة :

ـــ لا تضغط مشغل الوقود حتى لا تحرق التيل .

سأله متعجبا وكيف أحرق التيل ؟!

ـــ بالتحميل الاكثر من اللازم .. ثم أردف لامؤخذه نحن نحرق التيل لقائد المأمورية مرة كل اسبوع .. بيشغلنا كالبهائم .. ونحن بشر .. نريد أن نرتاح .. نحمل البابور على الاخر .. تتحرق التيل ناخذ اجازة يومين ثلاثة حتى يحضروا مجموعة أخرى .

الفصـــل التـــاسع

عندما عاد صديقنا من أجازته .. كان قد قرأ الكتاب الذى أعطاه له زميله وهما يستمعان الى كونشرتو الأبوا والاوركسترا لهايدن .

وكان قد فتن به .. وخاصة بالمادية التاريخية وهى محاولة ماركس لتطبيق نظريته على التاريخ .

وكان قد بدأ مزاولة هواية غريبة .. وهى تحليل كل الظـــواهر المحيطة به سواء العقلية او الاقتصادية أو الفئية أو المادية من خـــلال اكتشافه الغريب ـــ المادية الجدلية والمادية التاريخية ـــ وكان متشوقا لرؤية زميله ليودعه سره بنفس الشوق الذى كان عليه الاخر يوم فاجأه على الربوه يتطلع للشمس فى غروبها . كان قائد الكتيبة قد كلف ضباطا آخرين بتولى مهام التوجيه المعنوى والامن والشئون الاجتماعية .

ولم يبق له الا وظيفة قائد الاستطلاع .. وكان صديقنا ســـعيدا بعودته لرجاله .. كانت تجربة الشهر السابق قد أثرت فيه .. وكانوا لازالوا يتحدثون عن الانجاز الذى قام به مجردين باقى أفراد المجمـــوعة من حقهم فى التكريم . استدعاه رئيس العمليـــات واوكل اليـــه مهمـــة الاشراف على كانتين الوحدة .. ظهر الامتعاض على وجهه .. بعد كل دراساته هذه سيتحول الى بقال .. شعر الرجل بمـــا يدور فى ذهنـــه فطمأنه .

هذه خدمة عامة يتولاها جميع الضباط بالدور والكانتين شىء حيوى فى الوحدة لخدمة الجنود وتلبية احتياجتهم مع مكسب قليل يستخدم فى شراء الترفيه او مواد لتحسين الطعام .. وأغراض أخرى كثيرة ستعرفها عندما تزاول المهمة .

سال احد الصف ضباط الذين يثق فيهم عن طريقة ادرة الانتين . فاجاب ـ استبدل الجندى الذى يعمل به حاليا وسيتحسن الموقف . ولم يعلق اكثر من ذلك تركه ليكتشف بنفسه .

استلم العمل من الضابط المكلف به فى الشهر السابق بعض أصناف لم تبع من الشهور السابقة .. ونقود .. واذن بشراء بضائع بمائتى جنيه بالاجل من المؤسسة الاقتصادية بالعريش .

صحب الجندى الذى يعمل بالكانتين الى العريش لشراء البضائع.. أوصاه الجندى بشراء كميات كبيرة من السكر والشاى والسجائر لانها تدر أرباحا عاليه .. ثم الجبنة البيضاء وعدم شراء الحلاوة الحمصية والسمسمية فلقد كان لديهما مخزون منها .. ثم المعلبات وبعض البرتقال والطماطم والبصل الاخضر الطازج .

فى الطريق اشترى صديقنا من العريش صاج كنافة وآخر بقلاوة من محل يديره أحد معارفه بسعر مخفض .

وسهر صديقنا فى ميز الجنود طول الليل يراقب حركة البيع .. كان هناك اقبالا شديد على الكنافة والبقلاوة .

وكان هناك أيضا ظاهرة غريبة هو اندهاش الجنود من انخفاض اسعار المبيعات رغم انه التزم بكشف الأسعار الذى سلمه له الضابط السابق .

بدأ يكتشف الحقيقة ويفهم تحذير الصف ضابط الذى طلب نصيحته لقد كان الجندى يبيع بأسعار أعلى من التى حددتها قيادة الكتيبة وبالتالى يتبقى لديه فائض .. وهو يشترى سجائر لحسابه ويبيعها بالسعار أعلى فيترك لديه فائضا آخر .. بمعنى أن طاقة بيع السجائر فى الكتيبة مثلا خمسون خرطوشة .. يشترون عشرين رسميا وثلاثين يبيعونها لحسابهم.

اكتشف أيضا أن كيلو السكر وباكو الشاى يمكن أن ينتج منهما ثلاثين كوبا من الشاى وهم يحاسبون الادارة على انهما ينتجان عشرين كوبا فقط .

وبحسبة بسيطة يمكن تصور أن اكثر من نصف مكسب الكانتين لا يتم تسليمه للادارة .

جمع صديقنا ادلته وشهوده وذهب الى قائد الكتيبة .

توتر قليلا .. ثم حقق فى الامر .. وتوالت الجرائم .. لقـد كان الصف ضابط المسئول عن التعيين يبيع صفائح الجبن فى الكانتين لحسابه .

وكان هناك عصابة من الصف ضباط تقتسم العائد الشهرى .. فلقد كان الضباط لكسلهم عادة ما يوكلون لهـم ادارة الكـانتين بدلا من الاشراف عليه .

وبدأت الفضائح تتسع .. لقد زجوا بضابط شرف ايضا فى المسئولية وكان نتيجـة ذلك وهو الأمر الذى أدهش صـديقنا أن القـائد أوقف التحقيقات ولم يعاقب الا الجندى البائع بالسجن لمدة خمسة عشر يوما وتغييره .

شعر الجنود بما حدث فالأسعار انخفضت والجندى البائع نفير .. وزاد حماس صديقنا .. فانتهز أول فرصة لسفر الضباط الى غزة .. وكانت بالدور حيث يحضر أتوبيس من قيادة الفرقة ويصطحب ضابطين فقط من كل وحدة كل يوم جمعة لشراء متطلباتهم التى أملتها عليهم زوجاتهم والتى عادة ما تستكمل بواسطة الخطابات .

وسافر صديقنا معهم .. لم تكن الكشوف التى يحملها تحتوى على اطقم برلون او اركوبال او ريكوردرات .. أو أوعية طهى بالبخار أو روائح او مستحضرات تجميل .. او ملابس داخليـة .. وانمـا كانت زنانيب وشباشب كاوتش وكمبوت وشرابات كراون وبعض الاقمشة التى تصلح للطرح السوداء وحجارة البطاريات .. اشياء يهتم بها الجنود ويشترونها من العريش بأسعار مرتفعة .. فقد كان الجنود والصف ضباط ممنوعين من الذهاب فى هذه الرحلات .

اخذ كل الحصيلة المتيسرة من الكانتين وعاد ومعه بضائع غريبـة لم تبع فى كانتين وحدة من قبل .. وبالطبع بأسعار أقل من أسعارها فى العريش .

فى نهاية الشهر حقق الكانتين ثلاثة اضعاف ما يحققه شهريا .

وكانت الفرصة لقائد الكتيبة لتلقين صغيرنا درسـا جديدا .

قال ـــ ما لم يفهمه زملاؤك أن الجندى هو الجيش ورعايتـه هى مهمتنا الرئيسية انهم يقلبون الاوضاع يتصورون ان الجنود مهمتهم خدمة

الضباط ولذلك ترى جيش المراسلات فى الميز والمطبخ وفى كل مكان يوجد به ضابط .. هذه بقايا الجيش الأرستقراطى القديم الذى لازالت قيمة تحكمنا حتى اليوم .

جيش ما قبل ثورة ٥٢ والتى قامت للقضـــاء على قيمة وأفكاره .

لقد ألغت الثورة نظام البدل النقدى ونظام المراسلة وأصبح قانون التجنيد مطبقا على جميع ابناء مصر .

الا انه عمليا لا يحضر هنا الا أفقر فقراء مصر .. ولازلنا نعاملهم كما كان الأمراء يعاملون عبيدهم فى الجيـــوش الأرستقراطية المنـــاظرة للمجتمعات الاقطاعية رغم انتهاء الاقطاع .. الا تجد من ينادى الاخر بلقب بك وباشـا رغم الغاء الالقاب .

ان التغييرات لا تتم بقوانين ومراسيم ولكن لابد من تغيير البنـــاء التحتى اى نظم وعلاقات وطرق الانتاج ثم تتغير طبقا لها بعد ذلك الابنيـــة الفوقية التقاليد والعادات والقوانين والفن .

لقد سعدت بما فعلت فى نوبة توليك الاشراف على الكانتين كمـــا سعدت من قبل بما أنجزته فى كل الاعمال التى أوكلت اليك .

وبالمناسبة لم أجد من هو افضل منك لحضـــور دورة تدريب على التوجيه المعنوى فى القاهرة لمدة شهرين .

سلمته خطابا من صـــاحب الشركة الأمريكى .. كان يبدى فيـــه استياءه للطريقة التى تعامل بها صديقنا مع المندوب الانجليزى المفوض بادارة شركتهم وكان الخطاب حادا خاليا من الذوق .. لقد كتب له أنه لـــم يقم بواجبه بتقديم المعلومات الكافية لمندوبيهم وهو الأمر الذى يدفعون له من أجله مرتبه وانه يود أن يجده متعاونا بعد ذلك .

وكانت هى تكاد أن تعصف به فلقد أغضبهم .

لقد تجاوز المحظور .. وكان الآخر يبتسم .

فهو الذى وافق .. وهو الذى يقبض .

وتمادت فى تانيبه .. الم اقل لك .. ماذا تستفيد من طريقتـــك فى التعامل معهم انهم الاقوى بعلمهم وحضارتهم ونقودهم .. وهم قادرون على سحقنا وسترى .

صاح فيها .. انهم لن يحصلوا على عمل بعد ذلك وهذا العجـــوز المتصابى نصاب ولن يسمح له بأن يوقعه فريسة لنصبه .

اندهشت تماما أن يكون هذا رايه فى ولى نعمتهما .

اكمل بهدوء .. انه يشارك فى هذه الشركة بنقود نصفها لمشترى شركته الانجليزى والنصف الآخر بنقود صديقنا نفسه .. حقا هو دين عليه ولكنه سيسدده فى يوم ما .. بالتالى فأى خسارة سيتحملها طرفان غير عجوزها المتصابى الذى لا يهتم الا بتخدير مندوب المالك الانجليزى .

كانت تعجب من منطقه فهى لا تراه الا مفلسا من بلد مفلسة فكيف تتصور أن صاحب الشركة المليونير الامريكى يمكنه أن يستغل هذا المفلس كما كيف تتصور أيضا أن أمريكا يمكنها ان تستغل بلدها المفلسة .

ولم يجد جدوى من حوارها .. انتظر حتى حضر عجوزها وشرح له ما حدث ودلل على صدق كلامه بموقفهم فى العطـــاء لقـــد كانوا آخر الشركات المتقدمة كان ســعرهم ضعف السعر الذى قبلهم تماما .

وتراجع العجوز .. اعتذر ولكنه لم يتخل عن طريقته الامريكيـــة عايره بانخفاض قدراته معددا أن مشـــاركى الشركات الاجنبية فى مصر من مصريين هم من ذوى النفوذ والسلطة مثل ــ ابناء واخوة السادات ــ ابناء سيد مرعى ــ أبناء حسن علام ابناء عثمان احمد عثمان ــ ابنـــاء محمود يونس ــ أبناء عدلى ايوب ــ ابناء عبد المنعم الصاوى .. وانهم بذلك يستطيعون توفير اعمال دائمة لمشـــاركيهم وكأنه يقول له (ابن مين انت فى مصر حتى تناقشنا .. يكفيك مشاركتنا) .

ولكنه لم يقل هذا لقد كان اكثر فطنـــة .

استطرد قائلا ــ انه كان يمكنه مشاركة احدهم أو من يماثله ولكنه فضل صديقنا لأنه يريد شريكا ذا فاعلية وليس ذا نفوذ فقط .

حقا لقد قضت الثورة على الاقطاع والرأسمالية واصبح الطريق مفتوحا أمام الجميع للتنافس كل حسب قدرته وليس كل حسب اصوله.. ولكن حتى فى الأيام الاولى للثورة حل ذوو الثقة محل ذوى الكفاءة .

ومع الانفتاح تزاوج ابناء الحرس القديم مع أرســتقراطية ما قبـــل الثورة مع اثرياء الانفتاح ليكونوا طبقة جديدة صعبة الاختراق .. مهمـــا حاول صديقنا أو من يشبهه .

الفصـــل العـــاشر

كان يشرف على الدورة مجموعة من شباب الضباط أصروا على أن تحقق أهدافها وعلى الالتزام بتنفيذ البرامج المعدة مسبقا بجدية أدهشت صديقنا . لم تكن مأمورية حضور الدورة نزهة أو مكافاة للراحة .. لقد كانت عملا شاقا حضور محاضرات وندوات ومنـــاقشـات مســـتمرة من التاسعة صباحا وحتى الثالثة ظهرا حتى أن الدارسين تناقص عـــددهم بمرور الوقت ليصل الى النصف . كان الهدف من الدورة اعداد قـــادة سياسيين لديهم قدر من القناعة يولد القدرة على الاقناع .

واستعانوا لذلك بمجموعة من أساتذة الجامعـــات المتخصـــصين ليحاضروا فى الاشتراكية العربية والديمقراطية والحرية وعلم النفسروطرق التوجه لأفراد القوات المسلحة .

فى جـــو من الحرية غير المحدودة والتى ادهشـــت صـــديقنا دارت حوارات لا يمكن تصور حدوثها فى القوات المسلحة قبيل النكسة .

سأل صديقنا المحاضر عن الاشتراكية العلمية وعلاقتها بالاشتراكية العربية وكان لازال متاثرا بما قراه فى كتاب صديقه .

واجاب الآخر ـــ بانه لا يوجد اشتراكية علمية واخرى غير علميـــه بل توجد صور مختلفة من الاشتراكيات تتناسب مع واقع وظروف كل قطر فالاشتراكية فى السويد او انجلترا تختلف عن الاتحاد السوفيتى الذى يختلف عن الصين وان الاشتراكية العربية تتميز بايمانها وباحلالهاالتحالف محل الصراع وهما الاعتراضان الاســاسيان على الماركسية اذا كنا نقصد بها الاشتراكية العلمية .

ولم يقتنع صديقنا .. ظهـــر ذلك على ملامحـــه دون أن يفصـــح فتجربة قطار العريش كانت لا تزال ماثلة أمامه .

ولكن الضابط الذى يدير الندوة شجعه ليسأل سؤاله بشكل مخفف .

ولكن فى حالة عدم الاعتراف بالصراع ماذا سيكون الموقف مع أعداء الثورة السابقين والحاليين والمستجدين الذين ينتظرون أول فرصة للقفز على مكاسب تحالف قوى الشعب العاملة .. ؟

اجاب الضابط ان العزل السياسى ومحاصرة قوى الثورة المضادة عليه أن يكون هدفا لكل القوى الوطنية وعلى راسها القوات المسلحة .. ان وظيفة القوات المسلحة ليس فقط حماية الوطن من الاخطار الخارجية بل وحماية مكاسبه الثورية .

اى ان الضابط اعترف بوجود الصراع ولكن لم يحدد كيف يمكن ادارته انه مجرد شعار لم يحدد ولم يختبر فى الواقع اليومى .

فى الديموقراطية ركز المحاضر على نقد الديموقراطية الغربية وبين مدى زيفها فالأحزاب الغربية عبارة عن تنويعات على نغمة واحدة وهى سيطرة أصحاب رؤوس الأموال على مقدرات الشعوب .. أما الديمقراطية العربية فسلاحها تحرير لقمة العيش وتوفير عمل شريف لكل قادر ومعاش مناسب لغير القادر .

وأن قوانين الحد الادنى للأجور والمكاسب العمالية والتأمين الصحى والتأمينات الاجتماعية ومجانية التعليم والدعم للسلع الاساسية هى وسائل الثورة لاصلاح الهيكل الاجتماعى المختل منذ عصور الاقطاع عندما كان نصف بالمائة من الشعب المصرى يتحكمون فى اقتصاده وينعمون بنصف أرضه ودخله .

ان تحالف قوى الشعب العاملة من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين ورأسمالية وطنية قادر على أرساء اسس ديمقراطية جديدة تستطيع الدفاع عن مصالحه وان نسبة الخمسين بالمائة من العمال والفلاحين الواجب توفرها فى كل المجالس النيابية تعبير حقيقى عن توزيع القوى فى مصر .

فى هذه المرة كان المعترض ضابطا آخر افصح بوضوح عن وجهة نظره انه يستقبل العمال والفلاحين فى وحدته وهو يرى أن الاميةوالتخلف تجعلهم غير مؤهلين للدفاع عن وجهة نظرهم ومصالحهم .. بل بالعكس ان التجربة خلال المدة السابقة افرزت طبقة جديدة هلامية من فلاحى

وعمال مجلس الشـــعب الذين انسلخوا عن طبقتهم واصبحوا يمثلـــون ارستقراطية جاهله . وكان المحاضر كان ينتظر هذا السؤال .. لم يفاجأ به .. قال انا معك الى حد ما .. أن العمل النيابى عمل شاق ويحتـــاج لمهارات وثقافات يجب اكتسابها وهذا لن يحدث الا بمـــرور الزمن .. فالفلاح أو العامل عديم الخبرة هذا يستطيع الدفاع جيدا عن مصـــالحه ومصالح زملائه فى المجالس المحلية الصغرى حيث العمـــل الســـياسى يؤتى نتائجه مباشرة ويسهل مراقبته .. وفى هـــذه المجالس سيستطيع مجموعة من الناخبين تقويم وتدريب مندوبهم الذ ىيستطيع بعد تجربتـــه فى المجالس الصغرى أن ينشـــط تجربته ويغنيها فى المجالس المـــركزية .. انه الزمن ومدى رغبة وقدرة المثقفين على التخلى عن انانيتهم وشـــعورهم بالتفوق وتدريب كوادر حلفائهم .

كانت المناقشات دائما ساخنة .. وكان جو الحـــرية فى التعبـــير والاعتراض يزيدها سخونة وصحة جعلت صديقنا يراجع مواقف الشهور الســـابقة .

لقد كان هناك انفصام حاد بين القيـــادة الســـياسية والقيـــادات التنفيذية ان مجرد ذكر أسم لطفى الخولى أثار الدنيا وأقعدها وذكر ماركس والاتحاد السوفيتى والشيوعية هنا يطرح بكل بساطة وثقة .

ان القيادة السياسية فعلا فى حاجة الى تنظيم مؤمن ينقل أفكارها ويناقشها فى جو من الحرية الصحية وهو الامر الذى لم يملؤه الاتحـــاد الاشتراكى الذى ضم بعض العناصر الانتهازية التى لا هـــدف لهـــا الا الاستفادة من الاقتراب من السلطة .

عندما عاد صديقنا الى كتيبته كان قد اقتنع بأهمية الحوار والحرية وكان يشعر بانتعاش ناتج عن القناعة بمبادىء الثورة وخطهـــا .. بل كان يشعر بأن عليه دورا هاما وهو نقل هذه القناعة الى الآخرين رغم جيوش الظلام التى تحاصر الثورة وتعطل اندفاعها .

ولكن هذا الحماس تبدد بعد مقابلته لقائد كتيبته .

لقد سأله باهتمام عن الموضوعات التى درسها .. ناقشه فيها .. علق على الأحداث ثم قال له ببرود :

انه ورغم التقرير المشرف الذى أرسلوه عنك ورغم أنهم يوصـــون بانك تصلح لتكون ضابط توجيه معنوى على مستوى الفرقة .. الا أننى لن اعينك فى هذه الوظيفة ثانيا .

صمت قليلا ثم اكمل (لقد سألونى فى ادارة السلاح عن اخبار الضابط الشيوعى ؟)

ولم يجرؤ صديقنا على سؤاله عن رده فقد كان واضحا .

ثم اصدر له التعليمات باعداد نفسه للسفر الى ابى عجيلة للمساعدة فى التجهيز الهندسى هناك .

صدر القانون رقم ٤٣ لعام ١٩٧٤ بعد الحرب مباشرة كان هدفه تشجيع المال العربى والاجنبى على الاستثمار فى مصر لانعاش الاقتصاد القومى بعد حروب عديدة .

فى هذا الوقت كان العرب قد استخدموا سلاح البترول فى مواجهة العدوان وارتفع سعر البرميل الخام الى أرقام خرافية فتجمع فائض من اموال لدبهم لم يحدث مثله فى التاريخ .

كانوا يستثمرونه فى الدول الغربية .. وكان هدف القانون اجتذاب هذا المال عن طريق بعض الاعفاءات والتسهيلات .. كالاعفاء من الضرائب لمدة خمس سنوات والسماح بدخول وخروج العملة الصعبة والاعفاء من قوانين العمالة .. ولكن لم تشجع هذه التسهيلات تدفق الأموال .

لذلك تم تعديل القانون الأول بقانون آخر فى عام ١٩٧٧ برقم ٣٢ .

ومنذ ذلك الوقت بدأت شركات برؤوس أموال مصرية وأجنبية تتكون تحت مظلته فى عام ٧٨ وصلت الى واحد وستين وفى عام ٨٢ أصبحت مائة وثلاث عشرة وفى نهاية ٨٣ ارتفعت الى مائة وخمس وخمسين شركة .

لماذا اندفعت الشركات الأجنبية لتكوين شركات استثمار فى مصر .

لقد كانت أوروبا وأمريكا تمر بأزمة اقتصادية .. وبطالة عاليه لم تحدث منذ الأزمة التى سبقت الحرب العالمية الثانية .

لقد صاحب التطور التكنولوجى من التشغيل عن بعد واستخدام الروبوت (الانسان الآلى) ما يسمى بالنسيج نطيقا .. زيادة فى الانتاج واحتياج أقل من العمالة .. وبالتالى استهلاك منخفض .

لقد زار صديقنا مصنعا على مساحة مائة فدان يعمل لمدة اربع وعشرين ساعة يوميا ولا يديره اربعة افراد لمدة ست ساعات .. وباقى ساعات اليوم يعمل بدون اى مساعدة ادمية .. وبدون احتياج الى اضاءة .

فى المانيا مثلا كانت هنـاك ازمة الاتراك .. الذين استوردوهم فى الستينات واصبحوا عبئا عليهم بعد ذلك مليونان من الاتراك كانوا يسعون الى طردهم ليخففوا من ازمة البطالة فى انجلترا .. كانت ازمة الهنـود والباكستان .. فى فرنسا ازمة الجزائريين وسكان شـمال افريقيا .. فى امريكا ازمة البورتريكيين وجنوب شرق آسـيا .

وهكذا حاولت أوروبا حل ازمتها الاقتصادية على حساب دول العالم الثالث كما حدث أيام الخديوى توفيق والخديوى اسماعيل .

وكما حدث أيام الخديويين حدث فى عصر الانفتاح .. آلاف من المغامرين البيض قدموا الى مصر لاستنزاف ثرواتها واستنزاف أموال القروض التى منحتها دول امريكا وأوربا لمصر .. ثلاثون مليارا من الدولارات .. اشترطت الدول المقرضة أن تنفق بواسطة شركاتها ومواطنيها اى يعود كل دولار او استرلينى او مارك الى امريكى او انجليزى او المـانى .

وغرق السوق بالسلع الاستهلاكية الجيد منها والخبيث .. سجائر .. شامبو .. صبغة شـعر .. صابون .. شيكولاتة .. لبـان .. أحـذية .. ملابس .. روائح .. سـيارات .. اجهـزة تكييف .. ثلاجات .. لحوم محفوظة .. فراخ .. بيض حتى الميـاه اسـتوردوها .. حتى العيش استوردوه .

كانت مائة وخمس وخمسون شركة انتاجية تعمل فى أعمال السـمسرة والانتاج الاستهلاكى بنوك ـ فنادق ـ شركات تأمين ـ شركات مياه غازية ـ مستحضرات تجميل ـ مواد ـ بناء ـ مقاولات .

سمحت العولمة للمصرى بان يتعامل بالدولار رسميا وفى السوق السوداء وارتفع سعره من أربعين قرشا الى ستين الى سبعين الى ثمانين الى مائة وخمس وعشرين ومع ارتفاع سعر الدولار ينخفض الجنيه المصرى وتنخفض قيمته الشرائية .

وزادت المضاربات .. وارتفعت أسعار الأراضى .. بل هجر الفلاحون الزراعة وجرفوا الأرض ليصنعوا منها الطوب الأحمر .. وتحول الريف الى

مجتمع مستهلك بدلا من مجتمع منتج وتزايد عدد الوكلاء التجاريين بشكل لم **يسبق له مثيل وهاجر كل قادر على العمل للخارج .. ومن بقى أصـــابته** لوثة الاستهلاك .

كانت السلع المعروضة فى المجال التجارية تزيد الصرع .. التليفزيون الملون الفيديو ــ العطور .. وكان ضيق ذات اليد يدفع الباقين .. ممن لم يهاجر أو يبيع قوة عمله فى الدول العربية أو يعمل وكيلا تجـــاريا أو مندوبا سياحيا أو موظفا بشركة استثمار .. الى أن يبيع بضاعة أخرى .. النفوذ .. والنفوذ كما يقول صديقنا يبدأ من جندى المرور حتى الذى يصدق على مشروع بمئات الملايين من الجنيهات .

وانتشرت الرشوة واستغلال النفوذ بشكل لا يمكن تصديقه الا فى بلاد العـالم الثالث .. كذلك انتشر الهم وعم جميع الطبقات .. فكل واحدة لها زيونها الخاص .. الطبقات الدنيا للعـــرب .. والناطقـــات للانجليزية والفرنسية لرسل الانفتاح .

وتحولت القيم .. فمن الممكن ان يروج احـــدهم رسائل من الفراخ الفاسدة أو الجبن الفاسد .. او المخدرات .. ويموت العشرات .. وتتلف حياة آلاف ويرتفع عدد المليونيرات يوما .. بعد يوم .. حتى يصل الى ربع مليون مليونير متهرب معظمهم من أداء الضرائب .

وامتلأت القصور والمنازل والعشش بأفلام الجنس وحفلاته .. ولم يعد غريبا أن يقـــدم احدهم زوجته لذى منفعة .. بل لم يعد غريبا أن تدفع زوجة زوجها للرشوة واستغلال النفوذ .

.. لم يكن ذلك من أجـــل لقمة العيش ولكن من أجل الصرع الاستهلاكى . الجبنيات والفواكه والمعلبات والبسكويت والكفيار والسلمون المدخن .. وبـــهرة فى الاندية الليلية وملابس لا تستخدم الا مرات قليلة .

وارتفع مستوى المعيشـة تضاعفت الاسعار عشرون مرة على الاقل .. ونشب غول الانفتاح مخالبه فى كل قلب .. وفى كل بيت ..

وتغير صديقنا لمـــاذا ينجو من غول الانفتاح .. ؟!

تغيرت ملابسه .. الاماكن التى يرتادها .. البشر الذين يتعامل معهم العربة التى يقودها .. اهـــدافه ... حتى مفردات لغتـــه امتلأت بكلمات

انجليزية .. لقد صار يقرأ الأدب الأمريكى ويشاهد الأفلام الامريكيه ويمضى اكثر وقته مع السيدة التى قادته خلال دروب الغابة المتشابكة .

كانت تقول له ان فرصة الحياة تاتى مرة واحدة .. وان هناك مئات يحسدونه على حظه البالسم لاختيار الأمريكيين له ولكن للأسف هو جامد .. اقل ليونة غير قادر على التكيف مع الوضع الجديد .. فى الحياة قانون واحد .. ان لم تكن ذئبا أكلتك الذئاب .. وعليه أن يستخدم الى أقصى درجة كل ما وهبته الطبيعة من قدرات ومواهب لينتهز الفرصة ويستثمرها .

كان الامريكيون قد مضوا .. واصبحت ملكة متوجة فى شركتهـــا .. وكانت تبحث عن تسلية تستفيد منها .

سالته ـــ لو اننا اتحدنا نستطيع أن نفعل ما نشاء .. نمتلك ما نشاء .. نسافر الى جزر اليهاما فى يخت خاص بنا .. نعيش فى أوروبا فوق جبـــال الالب .. نخالط افضل البشر .. نصبح مليونيرات .

اقتربت منه .. شعر بحرارة انفاسها ورائحة عرقها الممزوج بأفضل عطور باريس .. وشفتيها الملتهبتين .. وغابا فى قبلة طويلة .

استقبلوه فى أبى عجيلة .. كانوا يعيدون تجهيزها هندسيا .. يقولون ان ابو عجيلة هى مركز سيناء ولقد استغرق لاحتلالها من الاسرائيليين أسبوعا فى عام ٥٦ وكانوا يعدونها لاحتمال حصار لا يقل عن شهرين .

كل بندقية فى الموقع لها دشمة خرسانية .. كل معدة عسكرية محصنة جيدا المياه فى خزانات تحت الارض وكذلك الوقود والطعام .. كان العمل يجرى على قدم وساق .

وكانت سرية من كتيبته ملحقة على سرية اللواء الذى يحتـــل المنطقة تعمل فى هذا المكان منذ ثلاثة شهور .

وكان زميله الآخر الذى قدم معه لأول مرة يعمل فى هذه السرية منذ بدء تعيينه .. حيث علم منه ان دفعتهم قد تم ترقيتها الى نقيب .

كان الواجب المكلفة به سريتهم هو ازالة حقول الالغام القديمة ورص بدلا منها على مسافة خمسمائة متر .. وكان عليه أن ينضم للعمل اعتبارا من اليوم التالى .. وكانت هذه تجربته الأولى مع الالغـــام وما يصاحبها من خوف تقليدى .

سألهم عن تسجيلات الحقول المطلوب ازالتها فقالوا ان التسجيلات ضاعت وفى نفس الوقت لا قيمة لها لان السيول جرفت الحقول وغيرت اماكنها لقـــد اصبحت مأمورية اخطر مما توقع .. ان الحقول تحتوى على الغـــام مضادة للدبابات واخرى مضادة للأفراد ومعنى جرف السيل لها انهم قـــد يفاجئهم لغم مضاد للأفراد حيث لا يتوقعون .. وبالتالى تعريض عدد منهم للخطر .

أمام الحقول التى كان واجبـــه ازالة الغامهـــا بطول كيلومترين وقف يتأمل .

ان ازالة الالغـــام البكليت المضادة للدبابات عملية سهلة .. حتى لو رقد او خطا عليها احدهم .

ولكن المشكلة ازالة الالغام الشرابنل المضادة للافراد كان معهم مكتشف الالغام ـــ جهاز يصدر اصواتا تنبىء بوجود معدن ـــ .

وبدا رقيب الفصيلة فى استخدام المكتشف والتعامل مع الالغام المضادة للافراد وباقى الجنود فى ازالة الالغـــام المضادة للدبابات .. كانوا يعملون بحذر . ومع ازالة جـــزء من الحقل زادت جـــراتهم ... ثم تضـــاعف سرعتهم .

ثم اكتشفوا الطريقة التى رصت بها لقد كانت بدائية وساذجة .. وزادت جراءة صديقنا اصبح فى وسط الحقل بين جنوده .. عندما مر عليه قائد المـــأمورية انبه .. قال له ان اول غلطة فى المرتفعات هى آخر غلطة وما يفعله هو تهور وعليه أن يكون حذرا ويراعى تعليمات الأمن .

وهكذا صديقنا .. ينتقل بسهولة شديدة من اقصى اليمين الى اقصى اليسار دون اى انذار .. لم تكن هذه طبيعته فقط ولكنها سمة من سمات طبقته تتعـــامل بحذر شديد وخوف مع الأمور التى لا تتقنها ثم بالدفاع وتهور بعد أن تتعلم .. وهو السر الذى جعـــل اغلب أفراد طبقتـــه يتحولون من الاشتراكية العربية الى الرأسمالية الانفتاحية فى مدة قصيرة .. !!

انتهوا من ازالة حقول الألغام وبداوا فى رص الحقول الجديدة .. كان العمل يسير برتابة .. وكان قد بدأ يمل .. حتى مر عليهم قائد اللواء .. شجعه سأله عن مهنته .. عندما عرف انه معمارى ويهتم فى الديكور طلب من قائد السرية أن يصطحبه معه الى مبنى قيادة اللواء مساء ليناقشه فى موضوع هام .

احضر لهما شيكولاتة من دولابه الخاص .. وطلب لهما قهوة .. ثم بدا يناقشهما فى سبب استدعائه لهما .

ـــ انا أحضرت من اليمن شموية بوية .. وعايز ادهن الفيلا .. مش عارف اذا كانت الكمية ستكفى أم لا .. كذلك الالوان والذوق .. فايه رأيك باشمهندس (وليس يا سيادة النقيب) نمر على فى مصر .

ثم سأله ـــ انت أجازتك امتى ؟ .

رد الآخر ـــ حضرت منذ أسبوع .

عاق القائد ـــ طيب كويس انا أجازتى الاسبوع القادم يبقى سيادة النقيب يسمح لك وتنزل بدرى شوية وتفوت على فى مصر تتفرج على البوية وتختار الالوان وتعرفنا بنقاش كويس وابن حلال كدة مش شماط .. معندكش فى الكتيبة نقاش كويس .

رد قائد السرية ـــ عندنا يافندم بس مش من النوع اللى يصلح لفيلا سيادتك .

أجاب الآخر باستسلام ـــ معلهش .. الفالى برضه تمنه فيه .. ثم اكمل خلاص خلينا نشوفك ياباشمهندس .. ابقى تعالى اتغدى معانا هنا فى ميز الضباط كل يوم ثم نظر الى قائد السرية كما لو كان قد تذكر شيئا هاما وقال ألا حقيقى ليـــه بتبعتوا تاخدوا اكلكم فى السرية احسن ناكل كلنا مـــع بعض .

أجاب قائد السرية ـــ ان شاء الله يافندم .

وهكذا اصبح صديقنا محل تكريم وترحيب فى طول اللواء وعرضـــه ففى اليوم التالى عندما ذهب للتغذاء فى ميز قيادة اللواء .. قام قائد اللواء من مكانه وسلم عليه وقال له ازيك ياباشمهندس .

وبالطبع لم يمنع هذا احدهم أن يهمس فى اذنه :

حاسب على نفسك .. العميد حيموت ويجوز بنته لضابط مهندس .

الحر أصبح لا يطاق .. الشمس لا تمل من سكب طاقتها على ارض أبو عجيلة التى بدورها تعكسها على وجوههم وظهورهم حرارة .. فتتفصد الأجساد عرقا .. وفى وسط الصحراء ينبت حقل شعير انضجته الشمس فأصبحت سنابله صفراء وحان قطافها .. اصحاب الحقل باعلى الجبـــل يراقبون .. لقد كان عليه زرع حقل الغام فى هذا المكان .. ازانة الحياة .. وبذر الدمار وتفجرت فيه رومانسيتهِ القديمة .. ملأت عينيـــه بالدموع ولم يستطع ان يقف فاستدار ليجلس فى العربة .. لحقه رقيب السرية .

قال له عندما سأله عن سبب تعبه .. فى وسط هذا الموت .. هـذا الجفاف نبضت الحياة .. واصبحت شـعيرا هو أمل هؤلاء المراقبين ونحن نقتلعه لنحرمهم منه .. بل ونحرمهم من الأمل فى زراعة اخرى .

ضحك الرجل ثم اكتست وجهه لمحة حزن عميقة .

قال ـــ امال لو حضرت حرب ٥٦ كنت عملت ايه .. كنا لا نجد الوقت لدفن اعز اصدقائنا .

استرسل ـــ كنت فى هذه الكتيبة كان اسمها الالاى السادس للمهندسين وكنا فى رفح .. انسحبت القوات .. ثم يصدروا لنا الاوامر .. ولم نشعر الا والاسرائيليون فوق رؤوسنا ـــ جرينا ـــ مشيت على قدمى مائتى كيلو حتى وصلت الى القتال .. كان الطيارين يطاردوننا واحدا واحدا .. وكان العريان هؤلاء الذين تحزن من اجلهم يبيعون شربة المـــاء بالبندقية او الساعة او الجزمة وكم شاهدنا من جثث عفنة بطونها مفتوحة والدود يأكلها .

سكت قليلا ثم اكمل بحكمة ـــ عموما لا تحزن باكر سينزلون من فوق الجبل ويجمعونه انهم يراقبوننا ليعرفوا طريقة الرص .. وسوف يؤمنون الالغـــام .. ويوصلوا المشاعل حتى اسرائيل .. حقـــل الالغـــام بدون حراســـة لا قيمة له .

وقفوا يراقبون الرص .. كانوا مجموعة قيـــادة الجيش ومعهم قائد اللواء ورئيس اركانه وقائد سرية المهندسين وصـــديقنا وزميله .. جاءوا للتفتيش على التحصينات الجديدة .. كان من بينهم مقدم مهندس .. عندما تعرف على صديقنا وزميله سألهما عن طريقة رصهم لحقول الالغام واماكنها .. ثم انفعل بدون مناسبة صائحا .. كل هذا كلام فارغ ان الطريقة التى يجهزون بها ابو عجيلة تعتبر مهزلة .

ضحك صديقنا وزميله .. مما زاده انفعالا .

قال ـــ فى ٥٦ كانت التحصينات بنفس الشكل وهذا الممر قالوا انه غير صالح لمرور العربات .. ثم اشار الى الممر واستكمل كلامه .

الممر ده واصل حتى اسرائيـــل ورغم وعورته حضرت منه القوات فى ٥٦ .. والآن يعيدون نفس المنطق مع تامينه بحقل الغام .. ما قيمـــة هـــذا الحقل لا اعرف .. !!

ضحك صديقنا انه نفس ما قاله رقيب السرية .

غضب الآخر ونظر اليه معاتبا .

ـــ ايه المستوى السيء ده .. القادة بتوعكم بيعلموكم ايه .. لمـــاذا لا تقراون التاريخ .. يلا بنى اللى ميعرفش التاريخ لا يمكن أن يفهم اليوم .. أو باكر خبزة الحرب ثمنها دم وارواح .

سأله الضابط الصغير ـــ وايه اللى ممكن يتعمل احسن من كده .

ترك الركب كله وجلس على الأرض وبدأ يرسم خريطة لسيناء فوق الرمل .

ـــ هنا مضايق التمد والكونتلا وتمادة والحسنة .. على خط واحـد .

ـــ وهنا مضايق الجفجافة ومتلة وسدر على خط آخر .. لو اننـا اهتمنا بالتحصينات والدفاع على طول هـــذين الخطين وتركنا سيناء كلها بدون قوات الا نقط انذار واســـتطلاع وبعض الموانع الصناعيـــة استكمالا للموانع الطبيعية فان النقط الحصينة التى ستنشأ عند المضايق ستمنع تقدم اى قوات لحين قيام قوات أخرى احتياطية بالاندفاع لعمل هجوم مضاد .

ما قيمـــة الارض فى الصـــحراء .. لا قيمـــة لهـــا .. ان القيمـــة الحقيقية للانسان والمعـــدات .

ان النقط الحصينة ودوريات الاستطلاع ستكشف القوات المغيرة وقـــد تستطيع تعطيلها .. فاذا كان لدينا قوات موحدة سهلة الحركة نستطيع ان ندفع بهـــا فى اتجاه المعركة الحقيقية .. وشـــن هجوم مضاد واسترداد الأرض .

كان يشير الى الخريطة ويقول يمكن ان يكون هنا فى الكيلو ١٦١ أو العريش احتياطى تكتيكى .. ويمكن ان نضع هنا احتياطى تعبوى او خلف المضايق ان تفرقة القوات بهـــذا الشكل الكلاسيكى لا معنى له .. انه يربط القوات بالأرض ويجعلها غنيمة سهلة التـــدمير .. أما القوات المتجمعة فى احتياطات فيمكن بســـهولة المناورة بها .

يئس من تعاطفهما معه فكيف غابت هذه الافكار عن جهاز الاستراتيج والتكتيك فى الجيش .

وشعر هو بما يدور بخلدهما فقال .. متعلهش هـــذا كلام للتاريخ لو حدثت حرب اخرى فستكون نفس خطة ٥٦ لانها لازالت صالحة مـــع هـــذه الدفاعات الورقيـــة .

ابتسم لهما وقال .. ستكونون الوقود لهذه الترهات وعليكما أن تفهما ثم تركهما وعاد الى عربته غاضبا .

وصدقت نبوءة المقدم لقد استخدم الاسرائيليون نفس خطة ٥٦ .. وسقطت الدفاعات الورقية فى أيام قلائل .. وكان زملاء صديقنا وقودها .. والاعجب أن الاسرائيليين بعد احتلالهم لسيناء نفذوا خطته فى الدفاع عنها بعد زيادة الطرق الطولية والعرضية للمناورة .

فى الغذاء بميز قيادة اللواء اختلى به رئيس الاركان لأمر هام جلس صديقنا على طرف كرسيه كى يستمع الى ما يريد ويسرع بالخروج فلقد كان معه قادة الجيش القادمون للتفتيش على التجهيزات والجلوس مع الرتب الكبيرة عادة ما يكون محفوفا بالأخطار .

كان أحدهم يسأله عن نتيجة الدواء الجديد .

وكان رئيس الأركان له اسلوب مميز فى الحديث فرد بخفة دم :

أنا يا بيه لخذت الابرتين من هنا وبقيت الالاى واقول ياللى تجيب لى الجماعة وانفجروا جميعا فى الضحك .. علق ــ

ولاد الكلب دول متقدمين جدا فى مسائل الطب دى وانت عارف اخوك مؤمن ومش بتاع هلس .

رد الآخر ــ اطلع من دول بقى بزمتك م لافتش عليك واحدة كدة ولا كدة .

تنبهوا بعد هذا السؤال ان معهم ضابطا صغيرا .. فعلق صاحب السؤال :

ــ عمرك شفت ياشمهندس ناس عواجيز زينا بيقولوا الكلام ده .

تلعثم الآخر واحمر وجهه خجلا ولم تخرج الكلمات من فمه .

انقذه رئيس الأركان ــ يا أخى فى روسيا الضبط والربط مخالف تماما.

آخر انحلال لكن فى نفس الوقت اعلى ضبط وربط ــ وبدا يقص مشهدا لفت نظره :

ــ كنا طالعين مناورة .. وكنت مرافقا لقائد لواء روسى .. كان الموعد السادسة وصلنا قبل الموعد بربع ساعة لم نجد السائق .. انا افتكرت زى عندنا .. ضربت له كلاكس عدة مرات لم يرد .

سألت قائد اللواء عن السائق .

فقال ــ زمانه جاى .. وتحت الحاحى نظر الى جندى يقف مستندا على السور فى لا مبالاة يدخن واشار له .. اى تعالى .. هز الجندى أكتافه وقال : انتهت ورديتى .... قال له قائد اللواء .

ــ اريدك .... رد الجندى بضيق .

ــ شىء هام ..... ثم حضر .

ــ اله القائد ــ اين السائق ؟ .

امتعض الجندى ورد ــ سيأتى فى ميعاده .

ولم ينته الكلام حتى وجدنا السائق قد حضر وخبط على الكاوتش للتأكد من نفخه وفتح الكابود تأكد من وجود الماء فى الرديراتير وقاس الزيت وفتش على البنزين ثم ركب العربة وأدار المفتاح للتسخين .. فى السادسة تماما بدأ التحرك فى اتجاهنا .. ثم علق :

شىء غريب رغم مظاهر عدم الضبط والربط بمفهومنا الا انه اعلى ضبط وربط بمفهوم العمل .

عم الصمت لثوان .... قاطعه أحدهم قائلا .

ــ مش زى البهائم اللى عندنا .

ومال العميد رئيس الأركان على صديقنا قائلا :

ــ والنبى يا بنى لما توصل كتيبتك ابقى وصى الجزمجى بناعكم يخلص لى جوز البوت الجديد لأنه اتأخر عنده وعايز واسطة .

الفصـــل الحـــادى عشر

انتهى تجهيز الخط الدفاعى الأول وعادوا جميعـــا الى مقر الكتيبة . والأول مرة تكتمل القوة (العدد) وكان العام التدريبى قد انتهى دون تدريب بالسرايا جميعها كانت تؤدى اعمالا فى تجهيز الخط الدفاعى سواء فى القسيمة أو أبو عجيلة .

عقد قائد الكتيبة مؤتمرا للضباط .. ثم بدء فى عرض خطته للتدريب قائلا : انتهى الوقت الذى كان يمكننا ان نتدرب فيه ولكننا استفدنا ايضـــا بأثناء العمل تعلم الجندى حفر ملجأ وتركيبه ورص حقل الغام وازالة آخر وبذلك نستطيع أن نعتمد على ان الفترة السابقة قد غطت مهام التـــدريب الابتدائى .

الذى ينقصنا اليوم بغض النظر عن تفتيش هيئة التدريب هو أن نتدرب على واجب الحرب .. وما هو واجب الحرب لكتيبتنا .. عمل مفرزة تأمين تحرك .. عمل مفرزة موانع متحركة .. فاذا تدربنا على مهام المفرزتين على مستوى الفصيلة وعلى مستوى السرية نكون بذلك قد استوعبنا الواجب الذى ستقوم به الكتيبة فى المعركة .

كانت خطة القائد مادام الوقت قد ضاع فى انشاء خطوط الدفاع .. فلنتدرب عمليا على واجبنا .

وهو بتدريبه للفصائل والسرايا سيطمئن على ان كل جندى قـــد أدى مهمته على الأقل مرتين مرة فى تدريب الفصيلة واخرى فى تدريب السرية .. وانه سيشاهد زملاءه يؤدون نفس المهمة اربع مرات اخرى .

ثم حدد أهدافا للسرايا والفصائل كما لو كانت فى المعركة .

تحولت الكتيبة الى خلية نحل .. قامت كل فصيلة باداء المهمة التى حددت لهـــا وكذا كل سرية وفى نهاية الشهر كان بمقدوره أن ينظم مرتاح البال الى ان كل رجاله قد فهموا وتدربوا على واجبهم .. ويستطيعون القيام به اذا قامت الحرب .

انتقلت بعد ذلك الفرقة لدهشور بما فى ذلك كتيبة صديقنا .. ولأول مرة منذ بدء مغامرته بالسفر الى اسكان ومرافق سيناء يستقر فى القـــاهرة يعيش فيها بانتظام يتحول الى موظف يستقيظ صباحا ليحلق ذقنه ويرتدى ملابســه وينتظر العربة التى تقله الى مكان المعسكر .. حيث يجد مكتبه نظيفا ومرشوشا بالمـــاء والفليت بواســـطة المراسلة .. يبدل ملابســـه يرتدى الافرول .. ويحضر طابور الصباح يتمتم ببضع كلمات محفوظة بملل .

ـــ سرية صـــفا .

ـــ سرية انتباه .

ـــ تشكيل مفتوح مارش .

ـــ اقلع الطاقيـــة .

ويتحرك بين الطوابير يفتش على الجنود .

ـــ شعرك طويل ليه .... تقيف .

ـــ ذقنك طويلة ليه .... حرمان خميس وجمعة .

ـــ ده منظر جندى بالقوات المسلحة .

ـــ أوفرولك وسخ ومقطع ليه .

ولا ينتظر سماع التبرير أو الرد فهو يعرف انهم يستحقون صرف دفعة ملابس جديدة ولم تصرف بعد .

ـــ البس الطاقيـــة .

ـــ تشكيل منضم مارش .

ـــ سرية صـــفا .

ـــ سرية انتباه ... عايز صوت الخطوة يهز المكاتب .

ـــ سرية صـــفا .... انتباه .

ـــ ويقف أمام السرية منتظرا صوت رئيس العمليـــات .

ـــكتيبة صـــفا .. كتيبة انتباه ... دور للتعليم فيلتفت الى رقيب أول السرية ويقول دور للتعلم .. ويتجه الى المكاتب .

وهناك حتما يجد ضابطا حزينا أو سعيدا وتبدأ المناقشات حول حزنه او سعادته وتتطرق لمغامرات اليوم السابق ويتحمس احدهم فينادى على المراسلة ياواد يا فلان .. دور شاى (أى شاى للجميع) .

وبعد نصف ساعة يجامله آخر ياواد يا فلان .... دور قهوة .

ويدخل صف ضابط حاملا اليومية وكشوف الاجازات والتصاريح وتدور المناقشات .

ـــ لا ياسيدى الواد ده نزل الاسبوع المـــاضى .

ـــ أصل أمه ماتت .

ـــ هى أمه حتموت كام مرة .

ـــ السرية محبوسة لغاية مينضفوا خيامهم .

ـــ سيادة المقدم عايز سيادتك .

ـــ مضيت دفتر النوباتجيات .

ـــ هو كل يوم نوباتجية .

ـــ عملت برنامج التدريب .

ـــ والبنت بعد م قرصتها عملت ايه .

ـــ العسكرى ميقدرلش يتحكم فى نفسه بيبول وهو واقف .

ـــ وليه مشركهوش فى القومسيون .

ـــ لو كان له كوســة كان خرج بدون سبب .

وهكذا تصبح الساعة الثانية الا ربعا فيدخل جيش المراسلات لتنظيف الاحذية واخراج البـــدل وتعليق الافرولات .. وانتظار العـــربات التى ستعود بهم .

وانقطعت الصلة بين الضباط والجنود الا فيما ندر .

المعسكر قذر يملؤه الذباب .. الجنود بدون تدريب .. حلقات الكلام لا تنتهى وينتقل من الكتيبة عدد من الضباط وينضم لها عدد آخر .. ويستقيل احد زميليه لدراسة الدكتوراه فى الاتحاد السوفيتى فتقبل استقالته .. وفجأة تدب الحياة فى الكتيبة .. تفتيش هيئة التدريب .. وتبدأ المؤتمرات .

فى مصر التفتيش مخالف لسيناء هنا يجب الاهتمام بوثائق وفصـــول وميادين التدريب .. ويجب تلقين الجنود كما هائلا من المعلومات النظرية .

وتم توزيع المهام بينهم .. بالطبع عرفتم ما هى مهام صديقنا .

فصول التدريب واللوح .. ونظافة المعسكر واصلاحه وبناء بوابة و .. وهو الغريب التوجيه المعنوى .

فى ذلك اليوم استدعاه القائد اغلق عليهما الباب بنفسه ثم اشار الى شانون قائلا ـــ فى هذا الشانون خطاب من قيادة الفرقة موقع بواسطة القائد نفسه يصدر فيه لى أمرا بتسليمك مهام ضابط توجيه معنـــوى .. الكتيبة سنتولى هذا العمل مع احتفاظى بهـــذه الورقة لتـــامينى فى وقت الحـــاجة .

وكان سبب هذه التعليمات ان ضابط توجيه معنوى الفرقة عنـــدما حضر للتفتيش على ضابط الكتيبة وجده يقرا للجـــنود من كتاب التـــدريب وانقلبت ورقتان بدلا من واحدة فاستمر فى القراءة دون ان يشعر بفارق .

وسهر الرجال ليالى طويلة يرسمون ويحبرون ويخططـــون بالجـــير ويدهنون بالبوية .. وتم تجهيز كل شىء حتى من المكلف منهم باحضـــار المرطبات والثلج والجاتوه والشاى واللبن .. وانتظروا لجنة هيئة التدريب عندما استدعاهم قائد الكتيبة لاجتماع عاجل .

اكتسب وجه القائد بجدية من سيصدر أمرا بالقاء قنبلة ذرية .. وظل يتامل وجوههم .. ثم أمر جندى المراسلة بقفل الباب ومنع اى فـــرد من الاقتراب وبدا يتكلم بعد ان ضمن اهتمام الجميع وتشوقهم لســـــماع ما ســـيقول .

قال : كنا سمعنا خطبة الرئيس والتى قال فيها انه سيضرب مراكز العدوان فى السعودية .. لقد كان الرئيس جادا بعدما استنفذ كل الطرق السلمية كى لا يشتبك عربى باخيه العربى .

ولكن ارواحنا اهم من اى اعتبار اخوى والحرب هى الحرب لذلك عندما صرح بانه سيقضى على قواعد العدوان كان ذلك هو الحل الوحيد.. وعليه ستتحرك فرقتنا لتعزيز قواتنا باليمن .. لم يحدد لها مهمة قتالية ولكنه امر انذارى بالتحرك .. ومهما كانت وجهة نظرنا الشخصية فى حرب

اليمن . اقول هذا لبعض منكم محدودين .. فسنؤدى دورنا هناك بدون تراخ . (ارفتع صوته ودق على المنضدة) .. ولن اسمح بقطرة دم واحدة تضيع هباء بسبب اهمال ضابط من الضباط ولهذا .

فها هى امامكم الفرصة .. من يقبل ان يحضر معنا على هذا الشرط ـ بشرفى لن انتازل او ارحم ـ فاهلا .. ومن لا يريد .. فهناك قوائم لمن يطلبون السفر . كل ما اريده ان اعرف من يريد أن يسافر ومن لا يريد وبدأ يسألهم واحدا واحدا وافق الجميع عدا ضابطين حتى وصل الى صديقنا الذى قال .. لا .

اجاب الآخر باستفزاز .. بالذات انت ستذهب سواء وافقت أم ابيت .. لاننى اعرف سبب رفضك .

كانوا قد توتروا .. فقد اخفىَ الخبر عن الجميع حتى رئيس عمليانه فوجىء به .. وكان قد قدمه بشكل درامى لم يتح لهم الفرصة للتفكير .

فى نهاية الاجتماع سأله أحدهم والتفتيش يا فندم .

اجاب ـ مستمر وان كانت الاسبقية الاولى للاعداد للسفر .

نظر بعد ذلك لصديقنا وطلب منه الاجتماع بالصف والجنود .

انتشر الخبر سريعا بين الصف ضباط والجنود .. التفوا حول صديقنا يسالونه .. الذى كان يجيب بقدر معرفته .. وانفضوا من حوله حتى لم يبق منهم الا الرقيبان اللذان ساعداه فى مأمورية التسيمة وصف ضابطين آخرين تبعوه الى داخل مكتبه .

قال الرقيب الشاعر .. أرجو ان تعفينى من السفر لقد سافرت من قبل ومن نقود اليمن اشتريت منزلا فى الزقازيق حوله حديقة زرعتها بنفسى واريد ان أستمتع بها قبل أن أموت .

قال الرقيب الميكانيكى ـ انا اريد أن أسافر .. اريد أن اشترى قطعة ارض فى المطرية ، ابنى عليها منزلا ملكا ولا الحاجة للايجار .

قال الصف ضابط ـ المطرية لقد اصبحت مستعمرة عسكرية موقونة على ضباط الصف العائدين من اليمن .

ضحك آخر قائلا ـ فعلا اذا مررت هناك ستجد الفوط الكاكى

معلقة ومنشورة بجوار الأوفرولات والشرابات وصنادل الجيش التى يلبسها هناك النساء والأطفال .

علق الميكانيكى ـــ لكن تفتكر حضرتك بدل السفر حيكفى .. الواحد يقعد قد أيه هناك علشان يبنى بيت .

وتغير روتين الحياة فى المنطقة التى تحتلها الفرقة .. تم نقل الضابطين الرافضين وحل محلهما آخران .. احدهما رئيس عمليات جديد للكتيبة .. واستكملت الكتيبة قوتهـــا ـــ بحيث اصبحت كاملة مثلما درســـوا فى كتب التكتيك ـــ بالراغبين فى السفر .. وتم تطعيمهم .. واعدوا كشوفا بالافراد والسلاح واستعدوا للسفر .

فى اليوم السابق للسفر تماما وكانوا قد سمحوا للجنود بيوم اذارى اى يستحمون ويغسلون ملابسهم ويحلقون شعورهم .. دخـــل الكتيبـــة سيكروباس غريب .. كان به السكرتير العسكرى لقائد الفرقة وطاقم من ادارة التوجيه المعنوى .

استدعوا صديقنا .. تعرف عليهم .. اعتذر له السكرتير العسكرى بانه لم يكن مخططا المرور عليهم ولكن سيادة اللواء امر بالمـــرور عليهـــم ليشاهد مندوبو الادارة فصل التوجيه المعنوى الذى اعده صديقنا .

علق احد افراد الطاقم .. ليس الفصل فقط ولكن ايضا للتعرف على تجربتكم فى التوجيه المعنوى .

اعتذر صديقنا بأن الجنود يستعدون للسفر ولذلك فسيجدهم فى الحمام او يغسلون ملابسهم .

أمر الآخر ثم نادى على بعض الجنود دون ترتيب كيفما اتفـــق .. حضروا بملابسهم الداخلية او باجزاء من اوفرولاتهم .

وقف بينهم يخطب .. احنا دلوقت مسافرين لليمن .. كل واحد حياخد بدل سفر .. ماذا ستفعل بالنقود .. ؟؟

رد احد الجنود ـــ ساشترى بقرة او اشارك على فحل .

ـــ كويس .

رد آخر ـــ ساشترى قطعة ارض صغيرة لو كانت النقود كافية .

— .. ..

ساضعها فى البوسطة .

— .. ..

— بسارسل امى وابى للحجاز .

— .. ..

— حفتح محل بتالة فى بلدنا .

— عظيم جدا يعنى مش حتشرب حشيش — مش حتتجوز واحدة تانية .. مش .

وهنا رفع أحد الجنود يده معترضا .

— تسمح يافندى احنا رايحين اليمن علشان نؤدى واجب علينا مش علشان الفلوس .

— ضحك المفتش وكأنما تذكر فجأة انهم فى اليمن لأداء واجب .

ثم غلق — عظيم هذه هى الاجابة التى أريدها .. ثم كرر عظيم متشكرين يا سيادة النقيب بالتوفيق انشاء الله .

هبطت الطائرة فى مطار الغردقة .. حملا حقيبتيهما ووضعاهما امام الأتوبيس الذى سيحملهما الى القرية .. لقد كانا فى طريقهما الى مجاويش اقضاء اربعة أيام لقد سقط فى حبائلها .. اطبقت كفيها عليه .. اتحدا على حد قولها .. وكانت رحلتهما لمجاويش الخطوة التى تبدأ بها رحلة الالف ميل الى جزر البلهاها والريفيرا . .وحياة اصحاب الملايين .. لقد خططت لكل شيىء .. كانت فى حاجة الى شخص فنى تثق فيه ويرتبط بهـا .. واجهة .. فهم لن يقبلوها لأنها سكرتيرتهم .. و .. وهم لن يعترفوا بها.

وكان هو .. لقد اكتسب ثقتهم فى بداية تعـامله معهم بعد ان اعد دراسة العطاء الذى تعرفوا عن طريقه به .. وضخمت هـ ى دوره حتى لقد تصوروا انهم لن يستطيعوا الاستمرار فى السوق المصرية الا اذا تحالف معهم .. وهى التى أوصلت العلاقة بينهم وبين الشريك المصرى السابق الى أسوأ حالاتها .. ثم هى التى رشحته لهم .. وبدون ان يشعروا انها تدفعهم فى اتجاهه .. وهى التى سهلت التعاقد معه .. لقد قالت لصديقتها وماذا فعلت بالأغنياء ؟ لقد حاولوا غشك .. اختر شـابا طمـوحا يرضى بالقليل .. ثم بعد ذلك هى التى سممت الآبار خلفه .. لقد نفخ تفى النار حتى توهجت المناقشات بينه وبين الانجلـيزى ذى النفـوذ على الشركة

الأمريكية .. كانت تريده أن يعتمد عليهـــا منفردة وان يقطع كل صـــلاته بالآخرين الا من خلالها لتتحكم فى العلاقة وهى التى أوحت لصاحب الشركة بارسال خطابه الحاد له .

لقد أصبح عجينة طيعة بين يديها الآن .. استخدمت طريقـــة ذهب المعز وسيفه انه سيخاف على دخله وسيهتم بمستقبله .. سيخاف .. سيلجأ لها .. وكانت اللحظة المناسبة لمداعبة عواطفه .. لقد ظلمها طليقها لقد قطفها مبكرا .. لقد عبث بنقائها .. ثم أمنت غيرته .. فهو يعـــلم انها صديقه العجوز الأمريكى وهو يعرف ايضا انها كانت صديقة لاكثر من امريكى أو اوروبى مروا عليها . وغرق صديقنا فى بحيرة وحل الانفتاح .. الى آخر شعرة فى رأسه .

ان الصراع الاستهلاكى والدور الذى أوحت اليه به أجهزة الدعاية جعله فى حاجة دائمة لدخل متزايد .. وهى بوابة الجنة .. لن يستطيع ان يخطو خطوة واحدة للداخل بدونها حتى لو عرف ماضيها وحاضرها وايضا مستقبلها . تحرك الاتوبيس تجاه القرية السياحية .. استقبلوهم بالتهليل مجاويش ..مجاويش .. عشرات من الشباب والشابات فى ملابس غريبة والحرية تقفز من عيونهم .. كان للمكان سحر خاص على شرقى لا يعرف الا الكبت والخوف .

كان مدير القـــرية .. يقول هنا جزيرة الحرية .. هنا تستطيع أن تفعل ما تشاء اخلعوا ملابسكم ومشاكلكم .. وساعدونا على أن نجعلكم تستمتعون .

كانت تحتضنه تقبله بعينيها .. تضغط على ظهره بصدرها .. وهما متجهان الى عشتهما .

لقد أعدت كل شيء .. لقد استسلم لضغوطها .. لقد قال لهـــا احبك .. لقد اكتشفت أن تجربته مع النساء مسطحة .. انها قادرة على تحريكه وفق هواها أنها تشعر به وبسذاجته وهو يقبلها وكانت تتعمد أن تعلمه مع كل قبلة جديدا وكانت تدق اثارة اللهب فى دمه وجســـده .. ثم تتركه ليتعذب ولتبتز موافقاته . لقد اتفق معها على أن يترك لها ادارة دفة علاقته مع أولاد العم سام ستتحدث باسمه .. وســـتتفاوض ايضـــا باسمه .

لقد اتفق على أن يتحالف معها .. على أن يصبح البديل لاصدقائها

اثناء غيابهم وان يصبح زميلها او رئيسها او شريكها حسب الموقف اثنـــاء وجودهم وكانت تخطط لاولى ضرباتها عندما قادته لهذا المكان .

ان مجاويش تبدو كما لو كانت قد اعدت نعلا لهذا الغرض .. لاغواء فرد ما آخر .

كانت تقف معه فى حوض الاستحمام الضيق وهما عاريان تدلك له جسده بشامبو خاص بالاستحمام .. وتضغط على اماكن محددة من جسده تعرف جيدا يداها الطرق اليها وتعرف ايضا تاثيرها عليه .

رقد على السرير عاريا على وجهه . .كانت تدلكه بلسيون مخصص للمساج وتغطى اجزاء من جسده بكريمات مخصصة لترطيب الجلد الجاف.

وتسللت شفاتها تعبر من رقبته لصدره لبطنه حتى اكتملـت ملامح نيلم بورنو من الافلام الشائع مشاهدتها فى العصر الانفتاحى .

واصبح عبدا لها .. سيطرت عليه الحاجة والانتهازية والشـهوة لقد اصبح ناضجا للخطوة التالية .

ما رايك .. هناك بضائع تم ادخالها لمصر معنـــاة من الجمـــارك لاستخدامها فى مشروعنا .. !!

لو اننا بعناها فى السوق المحلى فيمكننا ان نكسب حوالى المائة الف.

لقد اعددت كل شيىء ... المواد تم استهلاكها ورقيـــا وتم تجنيبهـــا ولكننى لا اعرف لمن ابيعها .. انها اول مائة الف فى او لمليون يا حبيبى .

الفصـــل الثـــانى عشر

القطار يتحرك بهم .. على الجانبين ارض خضراء مزروعة بمحاصيل لا يستطيع تمييزها . .الشمس تميل للغروب .. ولكنها لم تغرب بعد .

اشعتها التى فقدت حرارتها تلقى بظلال على النخيل العالى .

بخلفية الصورة بقرات ترعى فى سلام .. فلاح ينظر للقطار المحمل بالجنود ويرفع ذراعيه الأعلى بالدعاء .

.وهاجمته أغنية ياحبايب بالسلامة .. رحتم ورجعتم لنا بالسلامة .. يا حبايب بالسلامة .. يا حبايب بالسلامة .

كان يهرب بالحلم (كما هى عادته) من الحقيقة عندما يجد نفســه فى موقف لا يستطيع مقاومته .. كانت الأغنية توحى له بانه ذهب الى هناك وعاد . لقد كان مسافرا مضطرا لأن قائده امره بذلك من خلال الوحــدة والصراع الدائمين بينهما .. كان يحاول ان يبدو أمام نفسه كمــا لو كان ضحية .. وظهرت على قشرة شعوره كلمات والده .. قد تســتطيع أن تضحك على العالم كله ما عدا نفسك فعلا ليس بتنفيذ أمر قائده فقط الذى جعله جالسا فى هذا القطار المتحرك الى الاديبية .. انها شهوة المعرفة التجربة .. المغامرة .. التى لا يمل منها أبدا لقد استسلم لانه يريد أن يخوض التجربة .. حتى ولو كان سيدفع حياته ثمنا لها .. ان موته شيىء قائم .. وموتهم جميعا قائم أيضا .. انها مجرد رصاصة مجهولة يطلقهــا يمنى غيور على حرية وطنه وهو مقتنع انه يقف الى جانب الحق والعدل والشرف .. أن موتهم جميعا قائم .. ان موتهم جميعا قائم ... وظل يتأمل الوجوه المبتسمة والضاحكة .. ان هناك قوة اخرى اعمتهم عن الحقيقــة المعلقة فوق رؤوسهم . .المال والسلع الاستهلاكية .. وفرحة الزوجــة

والاطفال .. وصار يتلو « يايها الذين امنوا ان من ازواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروه » ... وهكذا دائما الانثى هى السبب .. هى التى اخرجتهم من الجنة .. وهى الناقصة عقـــلا ودينـــا .. وهى التى تدفعهم للصرع الاستهلاكى .. وتنبه الى انه لم تكن له علاقة ما بأنثى حتى ذلك الوقت لا صديقة ولا حبيبة ولا زوجة .. انها أمه .. وأخته فقط .

ان اخته لا يمكن ان تكون ناقصة العقل .. ولا يمكن ان تكون عدوة له .. انه حياتها .. حبها .. وشعر بالخوف عليها .. وود لو عاد ليودعها ثانيا لقد كانت تبكى وهو يستعد للسفر .. كانت تخـــاف عليـــه .. ماذا ستفعل لو مات .. وبكى .

الشمس اختفت لم يلحظ اختفاءها .. ولكنه شعر بانقباض يملأ نفسه وعقله والحت عليه الأغنية .. يا حبايبنا بالسلامة .. رحتم ورجعتم لنـــا بالسلامة .

وكان الجنود فى العربات الخلفية يغنون .. ولا حاطط رجلى فى اليه الا ومعايا عدوية .. وانتقلوا من القطار الى البـــاخرة .. وتحركت الى وسط البحر .. الأرض تبتعـــد .. تختفى وهو يجلس فوق كرسى بحـــر يراقبها ... ويبكى .

قد يهون العمر الا ساعة .. وتهون الأرض الا موضعا .. وهمس لنفســه .. يا حبيبتى يا مصر .

زميل يناديه .. لقد وزعوا عليهم علب سجائر .. يأخذ علبته منه .. يسأله وماذا ستفعل بعلبتك .. انت لا تدخن .

يرد الآخر ببساطة ـــ سأدخن اعتبارا من اليوم .

يبتسم صديقنا ـــ لقد بدأت التغييرات .

الجنود يتشاجرون على ظهر المركب .

رقيب أول جديد على الكتيبة يقول ان أحدالجنود أضاع سونكى .

ضـابط آخر يجمع الجنود ويتمم على سلاحهم .

ضـابط من الضباط الجدد يعنف الجندى ـــ اسرق واحد بداله يابن الكلب .. أنت عيل .

فوضى شـديدة فوق الباخرة .. كما لو كانوا فى رحلة الى القناطر الخيرية .

لا يمكن أن يكونوا مقدمة الفرقة الذاهبة لتدعيم القوات لضرب مراكز العدوان بالسعودية انهم فى حرب .. وهناك احتمال لقصف الباخرة .. سواء بالطائرات أو التدمير أو زوارق الطوربيد .. ان أعداءهم كثيرون . السعودية واليمن واسرائيل .. وتدعمهم امريكا .

يقولون أن هناك خبراء بلجيك وفرنسيين وهولنديين واسرائيليين يوجهون القوات اليمنية ويحاربون معهم .. ولم يرعبه الا عجزه عن السباحة

ان فرصة نجاته ضعيفة .. واستسلم للقضاء .. لقد قال لهم المقدم الذى قابله فى سيناء .. « أنتم الوقود » .. الكابينة شديدة الحرارة ولا يستطيع أن ينام دقات الجرس تعلن عن العشاء .. عشاء فاخر .. والجنود يوزعون عليهم الطعام فى اذانات .. ينامون على سطح المركب الحر يزداد .. يتخففون من ملابسهم .. فى البداية الجنود العائدون من اجازاتهم .. ثم يقلدهم الآخرون بعضهم سافر أربع وخمس مرات .

فالضباط يسافرون بالطائرة والجنود بالمركب .. نصف الإجازة تضيع فى السفر يحاول ان يسترخى .. أن يستمتع بالبحر .. فقد تكون آخر فرصة له للراحة .

يقرأ كتابا .. يتأمل الامواج .

فى الصالون برتيتة بوكر .. يلعبون على السجائر فالنقود لا تستخدم فى هذا المكان افطار ــ غذاء ــ عشاء ــ حر ــ نوم .. مشاكل الجنود.. **الحديث لا ينتهى عن بضائع اليمن** .. خاصة مع المخضرمين .. هل معك دولارات .. هل معك استرلينى ما هو الأفضل .. ؟؟ ما هو آخر سعر لهما .. المعدات الكهربائية السجاد رخيص جدا .

باخرة تمر جوارهم .. البحارة يحيونها بأشارات خاصة .. ضابط بحرى صغير يفسر له .. لابد من تحيتها فالمفروض اننا باخرة مدنية وليست عسكرية .. يكملان حديثهما .

سافر الى انجلترا وهولندا وايطاليا والهند واليابان .. رحلته التالية الى أستراليا وأمريكا .

ويشعر بالحسد تجاهه .. انها شهوة المعرفة التى تقوده دائما ..

وهو قد يعيش ويموت ولا يرى هذه البلاد .. ففى وطنه اجراءات السفر فى منتهى الصعوبة وتحويل العملة اكثر صعوبة وبالنسبة للعسكريين تصل الامور الى درجة الاستحالة .

حياتهم لذيذة .. لغير المتزوج .. فى كل ميناء يجد عديدا من الزوجات فى استقباله يختار منهن من يشاء .

يحب بنت فى مدرسة الليسيه .. يحضر لها من كل ميناء هدية .. الستات خائنين .. لابد أن تثق فيهن قبل أن ترتبط بهن خصوصا فى مهنتنا اكثر من الضباط .

البنت المودرن هى اكثر بنت تثقفيها .. لانها جربت وعرفت وفهمت واختارت وهى تحكم عقلها وقلبها .. لا يمكن الضحك عليها .. البنت التقليدية سهلة الانحراف .. يمكن اغواءها بسهولة .

البحارة يتقنون البوكر .. لنا اساطير معه .. احاول ان اقرا .. احضر من كل بلد كتابا واسطوانة ولوحة وعروسة .

اخلق الفرص لكى ازور المتاحف .. بعض المدن عبارة عن متحف روما وفلورنسا وتمنى صديقنا أن يكون بحارا .. كان ينظر له باعجاب .. جعل الآخر يسترسل البحر الاحمر هادىء .. لاحظ سمك القرش ..لايخاف الا من الدرافيل يلتف حول المراكب ليعيش على الفضلات آه لو واحد سقط بينها .

وتنبه صديقنا عى كوابيسه بخصوص ضرب الباخرة .. سيتحول جسده الى غذاء يكون عضلات هذه القرش .

وصلوا الحديدة .. الباخرة تناور للدخول للميناء .. الصفارات ترحب بهم لقد اصبحوا فى اليمن .. !!

خرجا من البحر .. كان يجرى خلفها محاولا اللحاق بها .. وكانت ترتدى مايوه بكيني بلون جلد النمر .. خلعت نصفه الاعلى تشبهها بالاوربيات حولها ثبرز ثدياها المتكوران الاسمران بتجاعيدهما الخفيفة التى بدات تزحف عليهما مع الزمن .

رقد بجوارها بدون تجفيف الماء العالق بجسده .. سحبت البشكير المعلق ثم بدات فى ازالة قطرات الماء . .ودهن جسمه بالزيو ت.

كان يستمتع بلمسات أصابعها الباردة لجسده الملتهب ويكبح خيالاته التى كانت تتعجل رجوعهما الى عشهما .

قالت بلبونة .. ها .. ما رأيك يا بابا .. !!

كان قد نسى حديث البارحة .. أو تناساه .

فسألها .. رأيى فى ايه .. !!

ردت بحزم لا يتناسب مع التدليل الذى تدلله له .

فى البضائع .

سكت قليلا .. ثم اجاب مترددا خوفا على طرده من جنتها .

ـ احنا حنشتغل حرامية على اخر الزمن .

ردت باستخاف ـ مين قال اننا حنسرق .. أنا متفقة معاهم .. المواد قيمتها نصف مليون جنيه بدون جمارك .. باضافة الجمارك والرسوم ستصبح مليونا اذا قدرنا نبيعها بسبعمائة وخمسين الفا .. فنصيكون نصيبنا مائة الف .

سألها : وهل يعرفون أننى سأشترك معك ؟

ردت بخبث ـ لا .. ثم اردفت .. حتى الآن .

كان من الواضح أن الأمر يتصل بسرقة الحكومة المصرية بعد أن كان متصورا انهما سيسرقان الأمريكيين والمصريين .

ـ ولكن غير مسموح ببيع بضائع مستوردة لحساب مشروع معفى جمركيا فى السوق المحلى .

ردت باستهزاء ـ واذا كان مسموحا فما فائدتنا .. ليه ندفع للحكومة هى بتعمل لنا ايه .. شوارع مكسرة .. وتليفونات تلفانة .. وقذارة .. وهم نفسهم بيترشوا . .كان ممكن الأمريكان يدفعوا الميت ألف دى نفسها لهم وياخذوا شهادة اخراج جمركى سليمة مية فى المية لكن انا اللى عرضت عليهم أهى نواية تسند زير .

كان يعجب من منطقها .. فهو له فلسفته المتكاملة ولكن من أين لها بهذه الأمثلة والتعبيرات .

حاول مداعبتها ـ ياه دى انت بقيتى بلدى قوى .. ايه النواية دى .. !!

ردت المداعبة بمثلها ـ البركة فى مسلسلات التليفزيون .

تصورت انها قد اقنعته وانتهى دورها ولم تعاود سؤاله .. الصقت صدرها العارى فى ظهره وتركت الأجساد تكمل الحديث .

كان قائد الكتيبة فى انتظارهم بالميناء .. لقد سافر بالطائرة توفيرا للوقت وللأعداد لاستقبالهم .

كان يرتدى شورت وقميصـــا نصف كم بدون ياقة كاكى وصندل جلد بنى مثل الآخرين الذين يحيطونه .. تجمع الجنود فى صفوف .. بأسلحتهم كاملة بعد أن عوضوا السونكى الضائع .. الضابط قائد المقدمة يحى قائد الكتيبة معلنا أن الجنود والسلاح كامل .. فيما يقال عنه (تمام)

قائد الكتيبة يعانق الضباط .. صديقنا يركب بجواره عربته الجيب التى يقودها بنفسه .. يشرح له ملاحظاته .

استلمنا مكان كتيبة المهندسين السابقة .. معسكر كئيب يبعـــد عن البحر حوالى نصف كيلو متر .. ثم يهمس سأحاول أن ننتقل الى معسكر على شاطىء البحر مباشرة .. اذا كان لابد أن نعيش هنا فليكن فى مكان مناسب .

يتحركون على طريق ممتاز .. يعلق القائد لقد انشاه الصينيون .

ثم يهمس ـــ عندما ذهب المهندس يطلب من الأمام قيمته أمر هاعدامه قائلا :

لقد سودت أرض الله يا كافر .. !!

عندما تصور أن صديقنا لم يصدقه .. اكمل : ولقد انشاوا له نصبا تذكاريا على الطريق ..

الوجوه سمراء .. اقرب الى السواد .. الأجساد هزيلة .. وهم يرتدون الجلبـــاب الأبيض وحفاة ويضـــعون فوق رؤوسهم طربوش قش مخروطى واكثر ارتفاعا من الطربوش العادى مبنائى من دورين او ثلاثة لها طابع مخالف لباقى الأماكن المحيطة .. انها مساكن الروس .

يعلق قائد الكتيبة .. لقد تنازلوا لنا عن عمارتين منها لقيادة الفرقة .

الحر شديد والرطوبة عالية يشعر ان الأفرول يخنقه .. عربات ذيل جديدة تتبعهم بها الجنود .

ضباط كتيبة المهندسين الذين سيستلمون منهم المعسكر يرحبون بهم، قائدهم فى صنعاء يتلقى أوامر الانتقال .

أسماء كثيرة وضباط كثيرون .. ينادى بعضهم بعضا برتبهم ووظائفهم، احدهم كون علاقة سريعة بصديقنا لقد كان ودودا مرحا .

ـــ سانام هنا حتى الصباح .. سأطير بأكر الى قفل حرض .

كان يتكلم كما لو كانت قفل حرض هذه لندن او باريس يجب أن يعرفها الآخرون عندما تنبه الى أن صديقنا مستجد .. بدأ يشرح له .

نحن نتحرك على محورين .. احدهما حوله معظم المشاكل وهو طريق الحديدة صنعاء ويخترق وسط اليمن .. والآخر الساحلى يبدأ من الحديدة وينتهى فى ميدى على حدود السعودية مارا بوادى مور ووادى عبس وحرض وميدى هذه المنطقة هادئة الا فى جزء واحد وحول الحديدة نفسها طريق الحديدة صنعاء أسفلتى ممتاز وغريب .. تبداه لابسا شورت وقميصا نصف كم وتنتهى لابسا أفرول وفانلة ضرب نار وبالطو .. يتراوح بين جهنم والقطب .. اما الساحل الشمالى فهو طريق ترابى مزعج .. لذلك نفضل السفر بالطائرة .

ثم قام وأحضر وعاء اسطوانيا بلاستيك غريب قدمه لصديقنا مداعبا.. تفتكر ايه ده .. !!

احتار الآخر .

ضحك بطفولة وشقاوة ثم قال : ترموس .. اتمدنوا بقه ... وبدأ يحلم .

الواحد يملؤه ثلجا .. ومعه الراديو والريكوردر الترانسنور ويرقد تحت الشمسية فى السويس يقرأ الجرايد والمجلات .

ثم علق بود .

انا من السويس يا عمى .. الواحد عايز يتجوز ينام فى حضن العروسة ويعوض أيام الشقاوة .. كان يقول هذا ويضرب بقبضته دولابا صاجا بجواره .

ـــ وما الذى يمنعك .. !!

ـــ لا يريدون الاستغناء عنى .. ثم همس .. أصل أخوك فنان فى البوبى تراب .

اهتم صديقنا بفهم معنى الكلمة .

ـــ نحن اى المخابرات وانا نصنع شراكا خداعية على هيئة طرود ـــ زبزمية علب كمبوت ـــ قلم حبر ـــ علبة شيكولاته .. يأخذها العملاء ويتركونها فى السعودية وهناك تنفجر باسم هيئة تحرير الشعب السعودى.

هذا ايضا ما نقوم به فى عدن .. المركزان اللى بتقود منهما المخابرات

العملية وينجهز فيهما الاشراك هما ميدى وحرض .. وانا يا سيدى مسئول حرض .

كان يتكلم ببساطة غريبة عن طرود الموت وبنفس الطريقة التى يتكلم بها عن العروس والشمسية والريكوردر .

ولم يحتمل صديقنا استمرار مناقشته أو النظر اليـــه ... ان الامر بالنسبة له عمل وبالنسبة لصديقنا أطفـــال وســـيدات ومدنيون يقتلون ويشـوهون .. !!

احتفلوا بقدومهم فذبحوا معزة .. وتناولوا الغذاء على دفعتين فتة بالخل والثوم مع لحم مسلوق ومحمر .. ثم ارتدى كل منهم مايوه .. والى البحر .

عندما توقفت العربة ونزل من صندوقها الخلفى .. وقف مشدوها .. لقد كان على البلاج مجموعة من الحوريات البيضاوات ذوات الشـــعر الاصفر .. يلعبن فى المـــاء وعلى الشاطىء كرة طائرة ويصـحن بأصوات غريبة .

ضحك أحد القدامى ثم لكزه .. انه بلاج الروس .. بعد ذلك حذره من التعامل معهم أو الاقتراب .. هذه تعليمات المخابرات .

ثم أردف لينصحه : فأحد الصف ضباط نزل خلفهن الى المـساء وعض واحدة منهن قبضوا عليه وسلموه للقيادة .. ورغم أن الروسية تنازلت عن الشكوى .. وقبلت اعتذاره الا أنه عزل الى رتبة عريف وتم ترحيله من اليمن .

المـــاء ممتلىء بالاملاح وغـــير مستســـاغ والكمبوت يزيد العطش وصديقنا يصاب بمغص واسهال حاد .

الطبيب يطمئنه:لا تخف مجرد تسمم .. لكن بكرة معدتك ستتعود على اكل اليمن .. تتناول ٤ حبات انتروفيوفورم و٤ حبات سلفا .

عندما أعترض على الجرعة

ضحك الآخر قائلا : ياباشمهندس أنا عارف اليمن .. كل حاجة هنا بتتقلب نصحه بان يغطى نفسه ليلا رغم الحرارة الشديدة والا سيتعرض للرطوبة .

فى لهاية اليوم تسلم خمسة عشر ريالا سلفة من بدل السفر .
استلموا مقر الكتيبة ومهماتها ومعداتها وعرباتها من ضباط الكتيبة الراحلة بعد عناء ومناورات وسخافات وصلت الى حد النصب فى بعض الأحيان .

فقد كان الآخرون معذورين فعليهم تسوية عهدتهم قبل سفرهم والا ستخصم من مرتباتهم .

كان احدهم يقول لن يرى النقص فى العهدة الا آخر واحد يسلم الجيش ويضحك مبررا العجز فى بعض الأصناف والمهمات .

وسعى قائد الكتيبة لدى قائد ورئيس اركان الفرقة حتى صرحا له بانشاء معسكر جديد لكتيبته على البحر بجوار شاطىء الروس . وبالطبع اصبح صديقنا المسئول عن اقامته وتجهيزه .

أعد صديقنا رسما تخطيطيا للمعسكر .. مكان لخيام الجنود فى طرفه الجنوبى .. وآخر لخيام الضباط فى طرفه الشمالى .. ومطبخ مبنى للجنود وآخر للضباط وخيمتان متصلتان فى وسط البحر تستخدمان كمطعم للضباط بحيث يتناولون طعامهم وحولهم الماء من كل جانب .. ثم مكاتب الضباط وارض التدريب بها خيمة هندى ضخمة وسور له بوابة ثم عبر الطريق مكان للمعدات والحملة ابعد ما يمكن عن البحر .

رسم مستطيلين افقيين مقترحين .. اختار القائد واحدا منهما .صدق عليه قائد الفرقة وبدأ التنفيذ .

توجهوا للموقع صديقنا والبلدوزر ومجموعة جنود معهم ادوات حفر كواريك وازم وتجار ورقيب سباك .

سعى القائد لدى الاشتغال حتى حصل على ادبخانات جديدة .. صرفوها وشونوها فى الموقع .. وفشل فى الحصول على زوايا حديد واسلاك لتسوير الكتيبة سوى البلدوزر الموقع .. حفروا اماكن دورات المياه والمطابخ .

كانت الحرارة تزداد كلما توغلوا فى النهار .. وشعر الرقيب السباك بدوخة كان رقيبا متطوعا كبير السن له زوجتان وعشرة أبناء .. وكان فى مصر يعمل فى تركيب أطقم الصحى وسباكة العمارات الجديدة بعد الظهر .. وكان يامل ان يكفيه بدل السفر عن العمل بعد المواعيد الرسمية ولكن ضربة الشمس اللعينة جعلته يخرف .. فارسله صديقنا الى المستشفى للعلاج .. الذى جعله يتناول اقراصا من الملح .. لتعويض الفاقد منه من العرق الغزير .

فى المساء طلبه القائد قال له انه اثناء تجواله وجد سورا حديديا يحيط ارض فراغ كانت ستستخدم كمعسكر لتدريب الجنود المستجدين ولكن ألغيت

الفكرة وبقى السور بدون صاحب .. وطلب منه ارسال فصيلة من الأولاد الجدعان لفك السور وسرقته وتركيبه حول المقر الجديد .

وفعلا فى المساء أزالا جانبين من السور وركباهما حول المعسكر .. احتاجوا بعد ذلك لعدد قليل اضافى .. عندما ذهب عريف لاحضارها قبض عليه جنود كتيبة المدرعات المجاورة للمكان وأرسلوا لهم اشارة لاستلام اللص .

سلمه القائد الاشارة موبخا اياه لأنه أرسل عريفا لخمة سيجعلهم يواجهون س و ج .

فى الصباح ذهب صديقنا لكتيبة المدرعات وكانت منشأة فى مكان قريب من البحر .. كانت واسعة ونظيفة ولها طابع مميز اذ لصقوا كل خيمتين معا وفرشوهما الواحا خشبية .. وكونوا ميز الضباط من أربع خيام منصوبة أعلى من منسوب الأرض الطبيعية .. وأسفلها مناضـــد مغطاة بمفارش نظيفة وثلاجة ايديال ١٠ قدم ومبرد مياه .

كانوا يتناولون افطارهم بيضا وبسطرمة ومربة بالزبدة والقشدة .. وغول مدمس لونه احمر يتصاعد منه البخار ومحاط بكمية كبيرة من الزيت والليمون وانواع من المخللات فى علب جروبى .

مكان جميل وطعام شهى معد بذوق .. كان حول المـائدة مجموعة **من الشباب حليقى الذقون بملابسهم المدنية بحيث يصعب تمييز رتبهم** .. كانهم يقضون اجازتهم على شاطىء المعمورة .. كانت تفوح فى المكان رائحة الأولد سبايس وعلى مناضد صغيرة محاطة بكراسى فوتى كانت مجلات الشبكة والموعد .

فى ركن آخر كراسى بلاج ملونة واكثر من شمسية شاطىء مغلقة .

استقبله قائد الكتيبة بابتسامة مرحبة .. اهلا يا باشمهندس .. ولازم تفطر نسرة فطار ياولد .. انتم جيتم امتى .. الحمد لله عى السلامة .. وهل حصلتم على تصديق بانشاء معسكر على البحر .. احنا دخنا على بال م وانقوا لنا على مكان معسكرنا .. ومش على البحر زيكم .

الحياة حلوة هنا بس العرق والحر .. تصور الواحد بيعرق تحت الدش ها .. ها ثم أحضروا التمر هندى المثلج .

جاملهم صديقنا : كتيبة ممتـازة واضح أن رئيس الشئون الادارية شـــاطر .

فهبوا جميعا .. لا يا سيدى المدرعات طول عمرها كدة .

ـــ لنا والله يا فندم عريف عندكم .

ـــ ايوه يا سيدى جينا للجد .. أولا السور ده سور الاشغال .. احنا حقيقى مش مستلمينه لكن متحفظين عليه من طرفهم .. لاحظنا امس ان السور نقص فعملنا كمينا وقع فيه عريفكم .. فى الحقيقـــة احنا خفنا ليكونوا يمنين علشان كدة بلغنا المخابرات .. لكن مادام فى بيتها .. سيادتك بس تحضر ورقة صغيرة من الاشغال بالسماح لكم بأخذ السور وتضيفه على عهدتكم وتنتهى المشكلة رد صـــديقنا : متشكر قوى يافنـــدم .. على الفطار العظيم وعلى الذوق .. الحقيقة الكتيبة مش معقولة .. الكتـــاب يبان من عنوانه يافندم .. ممكن ولو فيها رذالة أخد العريف بتاعنا .

ـــ بالطبع .. بالطبع تحت أمرك .. ياولد وصل الباشمهندس لغاية السجن وطلعوا العريف وخليه يستلمه .. مع السلامة .. مع السلامة يا باشمهندس .

اصبح صديقنا فى موقف لا يحسد عليه لقد سرقوا السور فعلا ويمكن محاكمتهم والامر متوقف على موافقـــة ســـيادة الرائد الباشمهندس مدير الاشغال .. وهو ذو سطوة غريبة فهو المتحكم فى الاسوار والادبخانات وفناطيس المياه والثلاجات والمراوح والاهم من ذلك اجهزة التكييف .. واصلاحها .

والقادة يعاملون باحترام مبالغ فيه ليضمن لهم على الأقل الا يمر يوم بدون تكييف .. اذا عطل الاجهاز .

وقرر ان يخوض التجربة .

ـــ صباح الخير يا فندم .

ـــ ..... الآخر لا يرد .

جلس واضعا ساقا فوق الاخرى .. ثم ساله برزالة .

ـــ انا شفت سيادتك فين قبل كدة .

رفع الآخر رأســه وتوقف عن قراءة الأوراق التى امامه .

ـــ سيادتك عايز حاجة .

ـــ انا نقيب مهندس من الكتيبة الجديدة .

مش القائد بتاعكم الأسمر الطويل ده .

ـــ اه يا فندم ولقد طلب من سيادتك سورا لم يكن متوفرا فى المخازن ولكننـــا وجدنا سورا حـــول منطقة العزل فأخـــذنا ضلعين منه وأنشأنا سور الكتيبة .

سكت لثوانى ثم أكمل .

هذا بلاغ لسيادتك للعلم لتعرف اين ذهب السور .

ووقف ليستأذن .. ثار الآخر .

ـــ هو شغل فتونة .. ايه يا فندىاللى يخليك تسرق السور انا حبلغ قائد القوات .

ـــ اولا انا مش أفندى .. اسمى النقيب .. ثم احنا مسرقناش .. بدليل اننى ابلغك .. وبعدين احنا مش حرامية علشان تقول تسرق . كل الحكاية حولت سور غير مستخدم لسور مستخدم .

رق صوت مهندس الاشغال بعد أن تصور انه فى ورطة .. كان همه تقفيل مستندات العهدة .

ـــ والحل .. سيادتك تستلم السور كله .. ويضاف لعهدتك ثم تأخذ الجـــزء المطلـــوب وتعيد الزائد .. ننزله من عهدتك كارتجاع عادى .. والا حبلغ المخابرات .. تفكوا السور وتنقلوه برجالتكم وعرباتكم .

كاد قلبه ان يقفز فرحا .. لقد بلع الآخر الطعم .

ـــ حاضر يا فندم .. احنا تحت أمر سيادتك . . انا جاى انفذ الأوامر حبعت لسيادتك رئيس الشئون الادارية ومعه المستندات .. بس سيادتك تكتب لى ورقة صغيرة بالسماح لنا بأخذ السور .

ـــ اتفضل يا سيدى وادى الورقة .. انت تقرب لسيادة اللواء قائد القوات .

ـــ آه من قال لسيادتك (وكان يكذب بالطبع) .

ـــ الشبه واضح .

ثم وقف ليودعه .. ومع السلامة يا باشمهندس .

أخذ التصريح وجرى الى المخابرات . .ولم يجد الا عريفا يلبس ملابس مدنية كان يعرفه فقد عمل معه فى مكتب امن الفرقة عندما كان صديقنا ضابط أمن وحدته .

رحب به .. وعندما قرأ التصريح وعرف الموضوع شطب على الاشارة قبل أن يعرضها وانتهت القضية .

عندما قص ما حدث على قائد الكتيبة علق :

ـــ برافو .. خلاص متسألش فى بتاع الأشغال .. احنا نلم السور ونركبه فى الكتيبة .. وهو يجرى ورانا علشان المستندات وبالمرة ناخذ مقابلها شيئا .

الفصـــل الثـــالث عشر

انطلقت موسيقى « الديسكو كلاسيك » بافتتـــاحية السيمـــفونية الخامسة لبتهوفن .. ثم اعقبها دقات وارقام متتالية .

فتنبه كل الموجودين بالقاعة الواسعة .. كان معناها ان خبرا ما أو لعبة ما ستحدث .

كان يلعبان اسكرابل .. وكان رصيده أعلى من رصـــيدها ان ذلك يضايقها فهى اقوى منه فى اللغة الانجليزية .. وهى متربة على اللعب مـــع اصدقائها الامريكيين .. ووجدتها فرصة لكى تتخلص من هزيمة نهائية واضحة ابعدت اللوحة .. ثم نظرت تجاه المسرح .

تضـايق .. فهو لم يتخلص من عادة ان يكون الأول دائما .. شعرت بذلك فحاولت أن تراضيه لعبت فى شعر رأسه .. كانت تعلم نقاط ضعفه جيدا وكيف كان يستسلم لأصابع والدته وهى تداعب فروة رأسه بعد خروجه من الحمام .

جذبته من يده ليقفا أمام المسرح يتابعان لعبة جديدة .

كانت ترتدى بنطلون اسود ستان وبلوزة بيضاء تظهر صدرها وعنقها وظهرها الذى تزينه بعقد لؤلؤ أبيض .

كانت متسقة تماما مع الجو المحيط فمعظم الرواد أوربيون قادمون من انحاء شتى لقضاء اسبوع على ضفاف البحر الاحمر .. أو مصريون .. تخلصوا من جلدهم ولبسوا جلودا مستوردة .

كانت اللغة السائدة الفرنسية أو الانجليزية .. وكانت قد بدأت حوارا مع امريكى شاب تسأله عما فاتهما من اللعبة .

ودوت مقدمة السيمفونية الخامسة ثانيـــا .. أعلن المذيع ان موعد العشاء قـــد حان .

وتدفقوا الى المطعم .. كان العاملون الأجانب قد جهزوا لهم مفـــاجاة ارتدوا ملابس من العصور الوسطى .. ووقفوا يرحبون بهم .

جلسا حول منضدة مستديرة وشاركهما خمس آخرون .. الامريكى الذى بدات معه الحوار وزوجته وثلاثة فرنسيين رجل وسيدتان .

كانت تتكلم الانجليزية والفرنسية .. وتناقشهم عن بلادهم وتصـــف بعض الاماكن لو كانت قد ماشت فيها لفترات طويلة .. وانتهت زجـــاجة النبيذ . وانتهت زجاجة اخرى .. كانت تحاول اشراكه فى الحديث .. لقد كانت محترفة .. تدربت على جذب انتباه الآخرين .. الاجانب .

انتهى بهما الأمر على كرسيين حول حمام السباحة .. كانت الدقات السريعة لموسيقى فرقة جنكيز خان تصلهم عبر الصالة المستديرة .. وكانت ومضات الضوء وانعكاساتها على الراقصـــين .. تجعلهم يشعرون أنهم يراقبون عملا من أعمال فللينى .. تبعه صوت مايكل جاكسون والسخونة تزداد بين الراقصين . ثم فريق البيدجيز .. كانت تلتقط التغيير فى اللحن مباشرة .. وتلفت انتباهه هذه الفرقة اسمها بوليس .. وهذه دى بيريل .. ثم تضحك من طريقة نطقه للفرنسية .

خفت الاضاءة لتسلم الموسيقى الى صوت ميرى ماتيور .. ثم باربارا ستراسساند وعندما بدأت شيرلى باس تقول أحبك أكرهك .. أحبك أكرهك .. شدته من ساعده ليرقصا .. التصقت به عندما بدأ خوليو اجليسيوس .. ثم قبلته مع فريق الابا وانسحبا ليرقدا متجاورين خلف حمام السباحة .

القمر بدر ونسمة هواء باردة تنعشهما .. وكان قد بدأ يقلق .

سألها بدون مقدمات ـــ ولكن هل مصرح لاى فرد بالاتجار .. ؟

ثم رد على نفسه ـــ لابد من ترخيص .. ولابدْ من تحديد مصدر البضائع وسعرها ولابد من تحديد هل دفع رسوم عليها أم لا .. ثم هناك قانون يحدد نسبة الارباح بحيث لا تزيد عن خمسة عشر بالمـــائة .

نظرت اليه بخيبة أمل .. ثم اجابت :

اذا كانت الامور تسير بهذه الطريقة فكيف اصبح هؤلاء مليونيرات .

ثم مدت كفها الى مراكز الضعف فى رأسه وبدأت تعالج تردده .

ـــ هذه العملية بسيطة .. المهم العملية الاخرى .

قاطعها كملا لو كان قد وجد قشة يتعلق بها .

ـــ انا بقول انهم يدفعوا القرشين دول لبتوع الجمارك ويخلصوا على البضاعة ونبقى صح أحسن .

ثارت اصبحت كالنمرة .. لقد دمر كل تعبها بضعفه .

ـــ انت ايه .. قلت لك لازم نثبت لهم اننا نقدر نعمل كل شيء .

انت فاكر انهم نايمين فى امريكا .. دول عارفين كل حاجة .. ويعرفوا أكثر منك عن بلدك .. ولو م أثبتش انك قد المسئولية حيدوروا علي واحد تانى اديك شفت عد لك بكام « ابن » آخر مرة افكرك ابن عثمان وابن حسن علام وابن عدلى أيوب وابن يونس .

اسكتها بيده حاول تقبيلها .. ولكنها تملصت منه .. وقفت بعيدا عنه قالت مش حتلمسنى أو تقرب منى الا لمـــا تبقى زى م أنا عايزة .. ثم بدلال أنا عايزة مصلحتك .. مصلحتنا .

عندما اخذوا الريالات السلفة .. ذهبوا الى سوق الحـــديدة لشراء بعض احتياجاتهم .

السوق يعج بالرجال ذوى الشورتات والقمصان الصيفى الكاكى .. وعربات الجيش المختلفة .. جنود وصف ضباط وصغار الضباط حتى المقدمين والعقداء .. مربات جيب قيادة وجيب صغيرة وعربات بصندوق .. خفيفة وثقيلة .. الجميع يحملون كشوفا باحتياجات موصفة لهم بدقة .. قميص نوم برلون أزرق فاتح ـــ كيتشن ماشين مولينكس بها عجان .. سيشوار به فرشة شعر برتقالى .. وهكذا .. حتى مستوى الصابون ومعجون الاسنان والكولونيا .

وكان السوق ينقسم الى قسمين .. الجديد منه اقيم خصيصا بعـــد وصول القوات المصرية ويحتله تجار عدنيون وهم تجار بالفطرة بغالطون ويحلفون أيمانا كاذبة ويستقطبون الزبائن بكل الحيل ويجملون السلعة .

وهؤلاء كانوا يتعاملون اساسا مع الضـــباط يبهرونهم بكل جـــديد فى الاسواق العالمية .

والقسم الآخر القديم او السوق الاصلى فيتاجر فيه اليمنيون .. يجلس التاجر امام دكانه مسمرا يلوك نباتا اخضر فى فمه وكل بضع دقائق يبصـــق

بجواره عصير القات .. وفى هذه الحالة يسمى الرجل مخزنا .. أى يخزن القات فى فمه اذا اقتربت منه لشراء بضاعته .. لا يرد عليك ثم يشير بأصبعه لتدخل وتاخذ ما تريد .. ثم تعود لتعطيه النقود يقلبها فى يده اذا وافق وضعها بكسل فى جيبه واذا لم يوافق يردها لك بقرف ويخطف البضاعة منك ويقذفها لتستقر بجوار زميلاتها فى اكوام غير مرتبة .

وللسوق الثانى رائحة مميزة تجمع بين التراب والعفن والعرق والابخرة رائحة نفاذة غير محتملة .

فى هذا السوق تشاهد اليمنيين بملابسهم المعقدة المركبة وعلى رؤوسهم غطاء يشبه العمة المصرية بتلافيف كثيرة .. وكل منهم يحيط وسطه حزام جلدى عريض يتوسطه خنجر يختلف قيمته وطوله باختلاف مقام الرجل .. وهو غال قد يصل سعر خنجر متوسط الى اربعمائة ريال يمنى اى حوالى مائة وخمسين جنيها .

فى هذا السوق يمكن أن يقترب منك ولد صغير ويهمس « بتريد تخنس » اى هل تريد أن تزاول الجنس .. فاذا كنت قد فقدت عقلك يمكنك الذهاب معه معرضا نفسك للسرقة والقتل وايضا للامراض الجنسية المعروفة وغير المعروفة ففى اليمن حرية جنسية غريبة والامراض الجنسية ظاهرة عادية ولا تعالج .

كان تجار السوق الجديد يعرفون الضباط القدامى .. ويرحبون بهم .. اشترى احدهم ماكينة لاعداد الجيلاتى بعد وضعها فى الفريزر وتوصيلها بالكهرباء واشترى آخر ماكينة حلاقة بالكهرباء .. وثالث ورابع .. واشترى صديقنا بريالاته المحدودة نظارة وولاعة .

بدل احدهم دولارات واسترلينى الى جنيهات مصرية وشرح فلسفته قائلا :

اى جهاز من اللى انت شايفهم يوجد فى مصر ولكن بزيادة من ٢٠ ٪ الى ٣٠ ٪ بالمائة فرق العملة يوازى من ١٢٠ الى ١٥٠ بالمائة .. ايها ارخص فبدل الشراء والنقل والحمل والغلبة دى .. احول الدولارات لمصرى بمكسب ثم اشترى من مصر .

آخرون اشتروا سجائر كيلوباترا بستة قروش أو خمسة قروش بكميات كبيرة لقد كان هذا السعر نصف سعرها فى مصر ... وفى حالة بيعها يحققون مكاسب مناسبة .

كانت المهمات الخاصة بالانبخانات قـــد اكتملت .. وركبت وصـــبت الخرسانة العادية أسفلها .. وركب الرقيب السباك مناطيس المياه والمواسير والحنفيات وطلمبة رافعة .. وانتهى البلدوزر من تســـوية الموقع .. وتم تركيب السور المسروق والبوابة .. واستعدوا للعودة .

ركب صديقنا فى كابينة العربة .. ثم دعى الجنود والصـــف ضـــباط للركوب فى الصندوق المكشوف .. وجد الرقيب السباك يربط راســه بمنديل ويتحامل على نفسه ليصعد الى الصندوق .. سمح له بالركوب جواره .. فاصبح كلاهما فى الكابينة بجوار السائق .

كان القائد يقف أمام خيمته عندما شاهد العربة وبكابينتها صـــديقنا والسباك غضب .. طلبه الى مكتبه .

ـــ يا سيادة النقيب انا قلت بيت مرة لا تصح هذه التصرفات .

ـــ ماذا حدث يا فندم (محاولا كتم بعض الوقت) .

ـــ ليه السباك يركب بجوارك .

ـــ يا فندم كان (قاطعه) .

ـــ انت مش عارف ان ممنوع يركب أثنان بجوار السـائق واننى عاقبت ضـابطين ركبا بجوار السائق .

ـــ يا فندم اصل (قاطعه) .

ـــ لا اقبل اعذار .. هـــذا انحلال .. يجب أن يكون لك برستيدج الضباط الضابط .. ضابط .. والجندى .. جندى .. تكلمه .. تعتنى به .. تحافظ عليه لكن لازم تجمع بين الحب والخوف والاحترام .. يحبك ويحترمك ويخاف منك .. اتفضل .

غضب صديقنا وقاطع الغذاء الجماعى ثلاثة ايام .. كان يطلب غذاءه منفصلا ولا يجلس معهم عصرا .. والا يذهب لبلاج النروس .

وانتقلت الكتيبة الى الموقع الجديد .. ووصل من مصر باقى افرادها بقيادة رئيس العمليات الجديد وقائد سرية جديد أيضا .

فى ليلة اليوم الثالث .. جاءت اشارة من المخابرات سلمها الجندى لرئيس العمليات .. ذهب الى صديقنا ايقظه من نومه وطلب منه ارتداء ملابســـــه .

قال له انه جاءتهم اشارة من المخابرات بانفجار قنبلة يدوية ويطلبون احد المهندسين للكشف عن قنابل لم تنفجر بعد .

ـ طيب وانا مالى .

ـ ستذهب انت .

ـ ولماذا انا .. انا لا افهم فى القنابل اليدوية .

سكت الآخر قليلا فلقد تصور انه ضابط مغضوب عليه من القـــائد لانه لا يتناول غذاءه معهم لذلك فلقد أوكل له هذه المهمة القاتلة .. ثم تنبه مع ردود صديقنا الى انه ينصرف بطريقة خاطئة .

استكمل حديثه :

ـ طيب دور على سيادة المقدم فى الحديدة وقول له يتصرف .

ـ حـــاضر .

ـ أوعى تفتكر حاجة انا معرفكوش ومطلوب منى ان اتصرف .

ذهب لقائد الكتيبة .. لقد كان يعرف دائما اين يجده .. وجده يركب عربته .. قدم له الاشارة .. وضع الآخر ساعده حـــول كتف صـــديقنا وناقشه بود :

ـ مين قالك تيجى هنـــا .

ـ ســـيادة الرائـــد .

ـ هل كان يعرف مكانى .

ـ لا ولكننى اعرف اين ستكون .. فهنا لا يوجد كباريه أو سينما .

ضحك الآخر .. ثم اركبه معه عربته وذهبا الى المخابرات .

قال لهم ـ هذه ليست وظيفتنا :. انها مهمة التسليح ومن فضلكم نرجو الا تخلطوا بعد ذلك بين مهامنا .. اتفضلوا الاشارة .. سلام عليكم.

قدم لصديقنا سيجارة .. اشعل له سيجارته بولاعته الجديدة .. اخذها منه وبدأ يقلبها بين كفيه .. كانت رائحة الويسكى واضحة .

ـ منين دى .

ـ اشـــتريتها .

ـ واشتريت ايه كمان .

ـ نظارة بيرسوك .

عظيم .. عظيم .. ابتدينا .. كنت فاكرك اصلب من كده .

كانت العربة قد وصلت الى مقر الكتيبة .. نزل منها واتجه الى خيمته والآخـــر يتبعـــــه .

طلب من الجندى المراسلة ان يضع كرسيين على شاطىء البحر .
ثم طالب منه فنجانين قهوة ثقيلة وحياة ابوه .

جلسا متقابلين .. حرارة الجو اصبحت اقل .. نسمات رطبة تهب من البحر مباشرة .

سأله — قوللى يابباشمهندس ..... أيه هى الشيوعية ؟

نوجىء صديقنا بالسؤال .. آخر ما يتوقع سماعه .

أجاب — الشيوعية .. الشيوعية مذهب اقتصادى اجتماعى سياسى وينقسم الى قسمين .. النظرى وضع اسسه كارل ماركس وانجلز .. والعملى طبقة لينين وملو لكن سيادتك بتسأل ليه .. ؟؟

اجاب الآخر : اكمل .. عايز اتعلم .. انت شريكى .

— بدأ التطبيق العملى فى الاتحاد السوفيتى .

— ولكن هل الاتحاد السوفيتى نجح فى تطبيق الشيوعية ؟؟ .

— الاتحاد السوفيتى نفسه لا يدعى هذا .. انهم لازالوا دولة اشتراكية .

الشيوعية تحتاج لأجيال .. ولها مقومات لم تتوفر بعد .. ولم توجد بعد الدولة الشيوعية .

— طيب وما هو الجانب النظرى .

— تقصد سيادتك المادية الجدلية والتاريخية .

— عفارم عليك .

وهنا اكتشف صديقنا ان قائده قد درس الشيوعية .. وبدأ بتردد .. ثم يسرد بعض المعلومات المشوشة .

واخيرا قال — انها التراكم الكمى البطىء الذى يعقبه تغير نوعى سريع .

اجاب الآخر — اذا فهو تراكم كمى بطىء .. يعنى فى البداية نظارة بيرسول وولاعة رونسون .. ثم بوتاجاز المصانع لا يصلح .. الفرنسى افضل .. ثم الثلاجة الايديال صغيرة وستنجهاوس اكبر .. والشقة ضيقة على الأولاد فيلا تناسبهم .. وبعكوكة صغيرة بدل زحمة الأتوبيس .. ثم

تكبر وتكبر التطلعات التى لا نهاية لها ويحـــدث التغير النوعى فتبيع روحك وجهدك ومبادئك .. و .. حتى بلدك .

وكأن دشا باردا سقط على الراس المنتهبة .. ضحك القائد المنتشى ثم سحبه من يده لداخل الخيمة .. غير ملابسه .. ارتدى جلبابا أبيض .. غسل راسه جفف وجهه وأخرج مشترياته ليريها لصديقنا .

اندهش اكثر .. اتسعت عيناه ... ما الذى يريده ؟؟

تكلم الآخر كما لو كان منوما .

ـــ عندما كنت فى سنك .. كنا فى الطليعة الوفدية .. وهى شباب يسار الوفد كنت متحمسا جدا .. وياما دخلت معـــارك مع الاخـــوة .. (الاخوان بالطبع) (وهم غدارين) .. انتظرونى فى الظلام واخذت مطوة فى نخذى .. علامتها لازالت هنا .. ولكن .. ولكننى تغيرت الآن .. أنا غير مستعد لأى مشاكل .. مرتبى منزلى . .عائلتى .. احنا جيل انتهى .. ضربونا بالكرباج .. أتلفونا ولكن أنتم ما عذركم .. تصـــبح على خـــير ياباشـــمهندس .

كان عائدا لخيمته .. كلام القائد يضغط على راسه .

فى البدء ولاعة .. وفى النهاية تغير نوعى .

قابله رئيس العمليات سأله ماذا فعل .

لم يرد عليه .. اتجه الى سريره .. كان ينظر الى الدولاب الذى وضع فيه ملابسه وأشياءه برعب كما لو كان بداخله قنابل زمنية قابلة للأنفجار .

الفصـــل الرابع عشر

كانت ليلتهما الاخيرة فى القرية .. مرت الأيام بسرعة غريبة .. كان كل منهما قد اكتشف زميله وتصور أنه فهمه .

لقد وصل الى قناعة نهائية بأنها خطر عليه .. تطلعـــاتها اكبر من طاقته وامكانياته .. انها من نوع النساء الذى يهوى بالرجال الى الحضيض كالملاك الأزرق .. وكارمن ..

لو انه استمر فى علاقته بها فكيف يستطيع أن يواجه والده او قائده بنواياها لقد تعلم من حريق القاهرة انه لا يحق له أن يغنم لنفسه من خلال خراب بلده .. انهم يذلونها ويذلونه .. انه يضحى برأس والده المرغوعة وعزة نفسه يوم أن رفض الاقتراب من راس السلطة رغم صداقته بهما .

لقد كشفت اوراقها بالكامل فما هى الا كومبرادور يعمل باشارة من اسياده ويتيه على مواطنيه بالفتات التى حصل عليها منهم .. وهو يرفض هذه الوظيفة وعاودته رومانسيته .. لقد قرر اللجوء الى قوة الاستغناء انها وسيلته دائما لمواجهة مثل هذه المواقف سيستغنى عنها وعنهم وعنه .

وعاودته احلام الحرية التى كان يحلم بها فى طفولته .. عليـــه ان يختار .. هكذا قال سارتر .. ان الانسان تتحدد ماهيته باختياراته .

لقد تصور انهم فى حاجة الى علمه .. وتجربته وشرفه .. ولكـــن اتضح انهم بحاجة الى مخلب قط يلتقط لهم ولها الثمـــرات النـــاضجة من الأتون .

وقرر أن يخسر العالم كله ويكسب نفسه .. سيستقيل ويبيع اسهمه ويسترد كمبيالته وهم الخاسرون لن يكون كومبرادورا .

وكانت تتصور انها فهمته .. انه جبان محدود الطموح .. ولكنه اصبح عجينة طيعة فى يدها تستخدمها بالطريقة التى تريدها .. ستجربه فى العملية الأولى انها فى حاجة الى اتصالاته وذكائه ومعرفته بهذا الواقع المتشابك . .وبعد ذلك ستحدد موقفها .

كان الليل قد انتصف .. وكانا قد عادا لعشهما بعد أن شربت حتى اصبحت فى حالة سكر بين .

خلعت ملابسها .. أرتدت مايو بكينى أسود .. ربطت كل المناديل والايشاربات التى معها حول وسطها .. ثم لبست جميع العقود والخرز واللؤلؤ حول رقبتها وصدرها .. وبدأت ترقص بلديا وتتطوح .. كانت تحاول أن تجدد حتى لا يمل وكان راقدا على السرير يراقبها ويحاول ان يجعلها تتصور أنه منجذب لها .. لم يكن قد حان الوقت بعد لمصارحتها بموقفه .. أو هو يرتشف الكأس حتى الثمالة .

عندما تعبت من الرقص .. رقدت جواره وهى تداعب شعره الأسود الكث الفاحم وتقبله كما لو كانت ستأكله .. قالت فى محاولة لاستعادته : العملية اللى قلت لك عليها سرية جدا .. وحياتى تظاهر أنك لا تعرفها لقد قابلوا أمريكيا يعمل فى مصر وله صلات واسعة . .لقد شاهدوا صورة مع اكثر من مسئول .. وعدهم أنه سيحيل اليهم مدينة سكنية كاملة .

لقد راوا اللوحات والمواصفات أخذ منهم عشرين ألفا حتى الآن .. كمصاريف ولكنهم سيحصلون عليها .. نصور ماذا سيكون نصيبنا من هذه العملية .

كان يستمع اليها وهو صامت .. عندما أنهت كلامها علق :

لا يمكن هذا نصب .. لا يمكن احالة مدينة سكنية لشركة مهما كانت بالأمر المباشر لابد من عمل عطاء .. انتم لن تفهموا السوق المصرى أبدا .

حتى فى حالة التواطىء فالأمر يتم باجراءات قانونية مائة بالمائة .. كل ما يحدث انهم يتيحون للمتواطىء معه فرصة أفضل .. تصل لدرجة تغيير المستندات بعد فتح العطاءات .. او التجسس على المنافسين أواخفاء بعض المعلومات عنهم .. لكن هذه الطريقة نصب .. كلكم تنصبون .. ثم استدار ونام .

— ما رايك لو اتصلت انت بالمسئولين وحصلت لهم على العملية .. ستكون عمولتنا كبيرة لدرجة تستحق التعب من أجل المشروع ..

ضحك ثم قال ــ ربنا يسهل .

عندما استدعوا قائد الكتيبة للمقابلة فى رئاسة الفرقة .. كان قد اخرج كرسيا أمام خيمته وجلس يقرأ كتابا فى الاقتصاد السياسى .. كان الكاتب يتكلم عن الملكية الخاصة ونشأنها مع المجتمع الزراعى..والتطورات التى احدثتها على العلاقات البشرية أقترب منه رئيس العمليات الجديد بحذر وترقب خوفا من رد فعل مماثل لتصرفه فى الليلة السابقة .. لقد تصور انه فى مواجهة شخصية غريبة ذلك الذى يمكنه مقاطعة قائد الكتيبة وفى نفس الوقت يقضى معه ساعات يتناقشان منفردين .. وكان يخاف أن يكون صديقنا قد أكتشف سبب اختياره له للقيام بمهمة الأمس الخطرة .

ــ صباح الخير يا سيادة النقيب .

ــ صباح الخير يافندم ..

(قالها دون أن يرفع راسه عن كتابه) ..

ــ عملت ايه امبارح ؟ ...

ــ سيادة المقدم قال لهم انه ليس اختصاصنا .

ــ ولقيت المقدم فين ؟

ــ انا دائما أعرف أين أجده .

حاول الآخر اطالة الحديث.. فهو يريد ان يحدد شخصية قائد الكتيبة على الاقل ان لم يكن شخصيتهما .. وهذه دائما طريقة اى قائد ثان جديد .

ــ اوع تكون زعلت منى انا جديد ولا أعرفكم واخترتك بصفتك ضابط استطلاع وأقدم ضابط عاش فى الكتيبة .. وتوسمت فيك انك ملحلح وحتتصرف .

ــ شكرا .. انا مش زعلان يا فندم .. كان لازم واحد يتصرف .

فى هذا الوقت ظهرت عربة القائد وهى تجتاز البوابة .. فتركه مسرعا ليكتشف أسباب استدعاء القائد .

جلس كلاهما فى خيمة مكتب القائد ثم استدعيا قائد السرية الجديد وبعده قائد السرية الذى تعلم التدخين لانهم يزودونهم بالسجائر مجانا .

بعد قليل اقترب أحدهما من صديقنا ..

تحب تطلع مأمورية .. أنا شايف انك متوتر هنا .

ـ وليه لا .

ـ مطلوب سرية فى مأمورية خاصـــة .

ـ هذا سبب استدعاء القائد ؟.

ـ آه ..

ـ أكون قائدها .. لن أذهب ومعى قائد سرية .

ـ ليـــه .

ـ لاننى اكبر من ان اكون قائد فصيلة .. ولاننى منذ بداية عملى هنا وانا اعمل منفردا ولاننى لا احترم قادة السرايا .. فأى شخص طلب نقله لكتيبة مسافرة اليمن مخصوص فى نظرى انتهازى ولا اثق فيه .

ـ ولكن قائد السرية الجديد شخص ممتاز وحيعجبك .

ـ رد الاخر بحزم الذى لا يقبل مناقشة ـ مع احترامى لقيمك .. فان لك نظـــرة مخالفة لنظرتى للحياة .. أرجوك اذا كانوا قـــد أرسلوك لسؤالى .. فردى لا أليس معه قادة فصائل .. !! ولا ابتدينا نلقح مأموريات على بعض .

كان رد صديقنا حادا ومحددا .. انه لا يمانع من القيام بأى مأمورية .. ولكنه لا يثق فى انتهازية من طلب سفره لليمن من أجـــل مكاسبها .. انه يعادى بذلك نصف ضباط الكتيبة بادئا برئيس عملياتها .. لقد رده حـــوار الأمس مع قائده الى أقصى اليسار .. ألم أقل لكم أنها سمة طبقتـــه .

استدعاهم قائد الكتيبة .. رئيس العمليات وقائد السرية الجـــديد وصديقنا . دون أن يتيح لاحـــدهم الكلام لبس قناع الجدية .. واصدر تعليمـــاته ـ

الموضوع اللى حتكلم فيه موضوع حساس وهـــام .. وهو اول عمل تكلف به الكتيبة وقد تكون الفرقة فى اليمن .. نستطيع أن نعـــتبره أمرا على المستوى الاستراتيجى صدر من القيادة السياسية لقيادة القوات لقيادة الفرقة التى كلفت كتيبتنـــا بتنفيـــذه ثم همس ـ انها أوامر الرئيس بنفســـه .

فى حرض على حدود السعودية .. المدينة التى عقدوا فيها مؤتمر السلام الأخـــير يوجد وادى .. هذا الوادى جاف الآن .. ولكن بعد

شهرين ستتسقط الامطـــار وتملؤه .. وستذهب المياه الى السعودية حيث تروى عشرة الاف فـــدان .

فى نهاية الوادى وقرب الحدود السعودية يوجد مضيق كان عليه سد ترابى يحجز هذه الكمية من الماء .. ويروى حوالى من خمسة الى ثمانية الاف فـــدان باليمن تهدم هذا السد .. وهاجر اليمنيون من ارضهم الى الارض التى يرويها المجرى المائى فى السعودية .. وهـــؤلاء هم سبب المشكلة .. فالسعودية تستخدمهم فى حملات الاغارة والتسلل .. لذلك قررت القيادة السياسية .. اعادة انشاء السد لتمنع المياة عن السعودية وتروى بها أرض يمنية .. وتصبح المنطقة الحدودية منطقة محروقة .. اى لا يوجـــد بها سكان فيسهل مراقبتها والتحرك من خـــلالها كما ذكرت موسم الامطار بعد شهرين .. والتقارير المبدئية حددت ان انشاء السد يحتاج الى سرية لمـــدة اربعة شهور .. كما ترون المهمة صعبة وفوق الطاقة خصوصا لو تصورنا ردود فعل السعوديين .. وما ستفعله مع منشىء السد الغام وشراك خداعية .. وقـــد يصل الأمر الى اغـــارة بالقـــوات .

يوجد فى المنطقة لواء مشاة واخر للمدفعية غير مجموعة القوات الخاصة وبالطبع فى الاحتياط باقى الفرقة فى الخلف بمعنى ان هناك قـــوات للحماية صمت قليلا ليراقب ردود افعالهم ثم اكمـــل ــ

اخترت السرية الأولى بقيادة سيادة النقيب وتدعيم سيادة النقيب .. (واشـــار اليهمـــا) رغم معرفتى بمعارضة كليهما للأختيار .

احـــدهما يقول ــ انه لا يصح ان يحضر معه ضابط لا يريـــد ان يتعاون . واشـــار الى قائد السرية .

والثانى يقول ــ انا لا اعرفه وقد كبرت على ان اكون قائد فصيلة (واشار لصديقنا) لذلك وحلا لهذه المشكلة نستطيع ان نسمى السرية الاولى مأمورية عمل لها قائد وقائد ثان .. لمـــاذا أخذت هذا الشكل .

لان قائد المأمورية يمتلك خبرة المهندس المدنى وخبرة التنفيذ ولكنه جديد على الكتيبة وعلى افرادها ولا يعقل ان يخرج قائد بأفراد لا يعرفهم مأمورية لاول مرة . والعكس القائد الثانى يعرف افراد الكتيبة بالفرد ويربطه بهم عـــلاقات انسانية ولكنه اقل حذرا واكثر اندفاعا خصوصا عندما يقتنع بفكرة ما مثل العلاقات الانسانية مع اليمنيين .

- سندعم السرية ببلدوزرين على كاوتش .. على قـــائد المـــأموريه التجهيز للسفر بأخذ راى رئيس العمليا تموالقائد الثانى .. وله الحق فى استخدام جميع امكانيات الكتيبة .. تمام الاستعداد العاشرة صباح باكر وسأفتش على المـــأمورية بنفسى .. نســـكرا وحظـــا موفقـــا للمـــأمورية والكتيبة .. وتفضلوا .

لم يتح لاى منهما مناقشـــة الموضوع .. لقد تفهم الموقف جيدا . تفهم وجهة نظر جميع المعاونين ثم اصدر أمر قتال كما يدرس تماما فى الكلية الحربية ومدرسـة المهندسـين والمناورات .

لقد كان قائدا قويا .. ذكيا .. متفهما تماما مهامه وكانت اوامره مدروسة تدعو للثقة .. لقد طـــرح عليهم كل الحقائق .. بصراحة مناسبة للمـــوقف .

حدرهم من المخاطر بشكل واضح حـــدد خطته .. وكان عليهم ان يعملوا وبهدوء لذلك لم يعترض صديقنا بل أصبح اكثر تجاوبا ورغبة فى التعاون .. الم اقـــل لكم انه ينتقل بســهولة من اقصى اليمن الى اقصى اليســـار .

اقترب منه قائد المأمورية اعطاه كتابا ثم علق —

خذ ياباشمهندس اقرا ما بين الصفحتين المطويتين .. كان الموضوع عن تصميم وانشاء السـدود الترابية .

تعجب صديقنا من اين اتى بهذا الكتاب .. ثم عرف بعد ذلك انه يستعد لتقديم دبلوم فى الاساسات وميكانيكا التربة وانه أحضر معه كتبه ليذاكر اثناء تواجده بالمين كما ينصرف قائد المأمورية ايضـــا ناجحا وعلى مستوى الموقف لقـــد استطاع ان يبدأ علاقتهما بالثقة .. فلقد زادت ثقة صديقنا فى معلوماته الهندسية .. وزادت ثقته بنفسه بعد أن قرا الورقات المطويات .. كانت كل الظواهر تشير الى انهم سيبدأون عملا ناجحا .

اختاروا الصف ضباط وسائقى المعدات واستلموا البلدوزرين الملحقين عليهم . كانا يتحركان على كاوتش .. عندما اعترض صديقنا .. رد قائـــد المأمورية بأن الطريق لحرض ترابى ولا يتحمل جرارا بمقطورة يحمل بلدوزر على كاتينة لذلك زودوهم بأخرى تتحرك على مجل لتستطيع الوصول .

حملوا خمس عربات بالجنود والمعدات الخاصة بالاعاشة — الخيام — فناطيس المياه ادبخانات — سراير للضباط فقط .. فالجنود والصـــف

ينامون على الأرض حتى فى الحديدة على البحر .. وبعض شكاير الاسمنت ومعدات الحفر اليدوية وجراكن مياه ممتلئة وتعيين تحرك والسلاح الشخصى للجنود وصناديق ذخيرة ووصف للطريق .. تسيرون على هذا المدق حتى وادى مور .. ثم تعبرونه الى عبس .. ثم منها الى قتل حرض انه المدق الوحيد وستجدون نقط مرور ترشدكم . فى تمام العاشرة نقش قائد الكتيبة على القـــول ثم استدعاهم لخيمته ــ

ــ احنا بندرس تكتيك وتاريخ ليه .. !! .. علشان منستخدمهوش وكل مرة نتعلم من أول وجديد .

المنظر بتاعكم ده .. معناه انكم قررتم الانتحار وقتل جنودكم قبل وصولكم لحرض المهمات تملأ العربات والجنود فوقها .. ثم كمين وطلقات نار من كل اتجاه ويقتل ، ويقتل ويقفز من يقفز ليذبح على الأرض .

الحل لو كنا عايزين نتعلم من خبرة الدماء المسفوكة .. الجنود من جانبى العربة . وجوههم للخارج كل منهم معه بندقية وبها خزينة الطلقات معدة للضـــرب .

نفر معه رشاش فى مقدمة العربة . .كل جندى أوصف ضابط على راســه الخوذة حدث كمين تفتح العربات سرعتها على الاخر .. الجنود تشتبك من فـــوق العربات البلدوزرات امامك سرعتهـــا نفس سرعتكم لتستطيعوا حمايتها .

اصطف القول بالشكل الذى اشار به القائد ثم اطلقت البلدوزرات صفارتها التى تشبه سراين البوليس واحتضنهم زملاؤهم ثم تجمعوا حول السور يلوحون لهم .ويبكون .فقد كانوا جميعا متأكدين انها سرية انتحارية ذهبت لتمـــوت .

ضـغط القائد على كمة ثم همس بحب . تفتى بك كبيرة خللى بالك من نفسك . تحرك القول فى الطريق الذى ينفصل معسكرات وحدات الفرقة المختلفة وكتائبها وهو يعلن عن نفسه بسارينة البلدوزرات وخرج الضباط والجنـــود يودعونهم ويلوحـــون لهم . يرفعون أيديهم المتماســكة الأعلى فلقد كانوا المأمورية الأولى للفرقة .

كان يرتدى فانلة بيضـــاء بنصف كم وشورت ابيض قصير وصندل .. ويعلق على كتفه نظارة ميدان ويضـــع النظارة البيرســول الجديدة .. ويجلس فى العربة الأخيـــرة فلقد كان قائد المأمورية فى أول عربة .. وهـــو فى اخر عربة ليحكما السيطرة على القول الذى ترك الحديدة وبدأ يتحرك على المدق

حركة العربيات تتسبب فى تكـــوين ســـحابة من التراب خلفها يتعذر معها الرؤية الجنود باعلى الصندوق وجوههم للخارج .. احدهم يلثم فوق بندقيته .. قد تنطلق رصاصة خاطئة من احدهم تتسبب فى مشاكل لايعلم مداها .

كان يشعر باهمية اليقظة .. واهمية ان يصلوا سالمين بعد تلقين قائد الكتيبة اما هم فلم يحدثهم احد .

ان الطريق بالنسبة لهم عذاب للوضع الشاذ الذى يجلسون به .. وكأنما تنبه فجأة الى انه أصبح فى حماية هؤلاء الجنود وان سلامته وسلامتهم متوقفة على مدى يقظتهم وتحملهم المسئولية .

وفجأة توقف القول : . ووجد قائد المأمورية يهرول فناحيته . .ياسيادة النقيب من فضلك قبل أن نتقدم اريد ان اتكلم مع الجنود .

ونزل الجنود من عرباتهم : . ووقفوا فى صفوف امامهم ضباط الصف وتكلم قـــائد المـــأمورية ـــ

يا رجاله احنا رايحين فى مأمورية هامة جدا .. ومافيش فى وسط اعدائنا حياتنا ملهاش لازمة لكن الهدف اللى احنا رايحينه هو المهم . . لازم نوصل وباى شكل .. تفتحوا عنيكم . . اى مخالفة للضبط والربط سأقابلها باقصى جزاء مفهوم ثم استدار لصديقنا وقال هـــل تريد بسيادتك أن تقول لهم شيئا . . ؟؟

قال صديقنا ـــ اه من فضلك .. بسيادة النقيب قال اللى عايز اقوله لكن عايز أوضح شيئا ان حياتنا لها لازمة ولها اهمية كبيرة لانفسنا ولاهالينا ولبلدنا ولازم نحافظ عليها مش حنحافظ عليها الا بالانتباه الشديد والضبط والربـــط .

اللى حيخالف مش حيتسبب فى اذى نفســه فقط بل فى اذى زملائه ووطنه ايضا وقد لاحظت .أن التراب الناتج من كل عربة بيمنع الرؤية للعربة التى خلفهـــا . .

فبعد اذن قائد المأمورية .. يتحرك السائقون خلف خـــلاف .. يعنى ما نمشيش خلف بعضنا .. نتحرك فى طابورين . . اول على اليمين والثانى على الشمال . وهكذا . كان يعجب كيف توصل كلاهمـــا لنفس النتيجة فى نفس الوقت . . ان المواقف هى التى تصنع الافكار .. اليس كذلك .. ؟؟ بمعنى هذا انك اذا وضعت مجموعة من الافراد فى ظرف معـــين بنفس

القدر .. فاعتقد انهم سيصلون الى نتائج متقاربة اليس هذا ما تفعله البيئة والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الافـــراد .. اليس هذا ما تفعله اجهزة الاعـــلام ـــ الجريدة .. الاذاعة والتلفزيون .

الطريق ممتد .. غير مستو .. الصحراء تحيطه من اليمين واليسار .. فى بعض الاحيان يضطر القول للانحراف خـــارج المدق الذى يستحيل السير فيه .. عشش متناثرة على هيئة اكواخ ذات اطراف مدببة ... شكلها مألوف لديه .. ولكنه لايتذكر اين راها..بتكرارها..بتذكر.. فى كتبتاريخ العمارة انها مثال حى لاكواخ عصرما قبل التاريخ .. ويضحك .. لقد كانوا يصنعونها من البوص بان يجنفوا الاعواد ثم يغطونها من الداخـــل والخارج بالطين لتتماسك النســاء يلبسن بنطلونات واسعة معقودة من أعلى بواسطة قطعة قماش ولدى القدمين تشبه ملابس الف ليلة .

الرجال بالعكس يرتدون الجلباب .. أطفال يتجمعون حـــول عربات التـــول ... قذرين جدا .. عرايا تماما .. أغلبهم تطل من اعينهم نظرات ذكاء فطرى وحيوية رغم ضعفهم الواضح ينادون نداء غير مسموع .

يفتح الزجاج ليسمعهم .. كانوا يقولون باسكو .. باسكو .. ماذا يريدون ؟ يسأل احد الجنود ـــ يرد بانهم يريدون البسكويت الذى يأكلونه ضمن تعيين التحـــرك .

عند نقطة مرور يقفون للاستراحة .. يرقد صديقنا على الأرض فى ظل عربته قائد المأمورية يقترب منه يجلس بجواره يعطيه ورقة مطوية يفضها يجدها سلطة الجزاءاتالممنوحة له والعقوبات التى يستطيعتوقيعها على الصف والجنود بصفته قائد مأمورية .. يعيدها له بدون تعليق .

الآخر يعلق ـــ انها سلطاتك ايضا فمن حقك استخدامها مثلى تماما بالمناسبـــة التعليق الذى قالته للجنود كان مناسبا تماما فدافع الحياة اقوى من دافع الموت . ينظر للصف ضابط وهم يتحركون فى حرية ويناقشـــون جنود البوليس الحربى فى نقطة المـــرور ثم يعلق ـــ

شايف .. شايف الصف ضباط بيعملوا ايه مش معقول الفوضى دى .

ثم لصديقنا .. متزعلش منى انا جندى عليهم شوية .. ويقف يصيح ـــ

اركب كل الناس .. ثم يجمع الصف ضباط .

سيادة النقيب يبقول انكم احسن صف ضباط الكتيبة ومع ذلك انتم ناس منحلـــين انا لن ارحم فى الجزاءات ممنوع حد منكم ينزل من عربيته .. الوقفة دى علشان نريح العربات ونزود المية .

رجع الصف ضباط منفعلين فلم يتعودوا على مثل هذه المعاملة .. خصوصا وهم متصورون انهم فى مأمورية مع صديقنا .

القول يتوغل فى ارض اليمن .. الاعصاب مشدودة .. يخترقون قرية .. لها نفس ملامح القرية المصـــرية .. الاطفـــال حفاة البســـيدات فى مداخل اكواخهن يفسحن . صوادر بيع الخضر .. الطيور تجرى أمام العربات .. الرجال ينظرون للجنود بملل .. الكل يندهش من شكل وصوت البلدوزرات .. الحيوانات ترعى أو مربوطة بحبل أمام الكوخ ولكنها هزيلة .. كلب مسلق يلهث من الحرارة .. كميات هائلة من الذباب تتجمع حـوله .. الاطفال يصيحون باسكو .. باسكو .. الجنـــود يقذفونهم بالبسكويت .. الشبان يطرقون زجـــاج العربات ويطلبون بولوبيف أو سردين أو علب خضار .. ولـــد صغير يطلب سيجارة .. لقد تعودوا على قوات الجيش .. الرجال يرقدون أمام اكواخهم يمضغـــون القات .. يلبسون الظرابيش الخوص .. ينظرون لهم بملل وتبلد .. يسرعون بالخـــروج من القرية .

ويتكرر هذا المشهد عدة مرات .. وتنتهى الدهشة الاولى .. فيغرق كل منهم داخل نفسه .. فى عالم خاص به .. حتى يصلوا فى الخامسة الى وادى مور ويقرروا أن يقضوا ليلتهم فى هذا المكان .. فهو منطقة شئون ادارية . اللـــواء الذى يحتـــل المنطقة وبها قوات مصرية وفصيلة مهندسين كبارى مسئولة عن انشاء مخاضات لتعبر عليها القوات .

العربات تنتشر .. الجنود تعد خيامها الصغيرة (هيكات) لتستخدمها فى النوم .. يضع مرتبته تحت عربة من العربات .. كل منهم يستخدم جـــزءا من تعيين التحرك لتناول عشائه .

الصف ضباط يحيطون بصديقنا ليشكوا له من قائد المأمورية .. جنديان يهسهسان ثم يتجهان فى اتجاه محدد .. يعودان بعد فترة يضحكان ويتغامـــزان .

آخر يذهب فى نفس الاتجاه .. يتبعه صديقنا ليجد يمنيا يجلس على مصطبة أمام كوخ ومعه ثلاث فتيات بيضاوات .. الجندى يميل عليه يحدثه يشير لواحدة منهن ثم يدخلان الى الكوخ .

يقص ملاحظاته علي قائد المأمورية .. يطلبان من الصف ضباط مراقبة الجنود حتى لا يصاب أحدهم بمرض .

ضابط غريب يطلب من صديقنا مصاحبتهم صباحا خلال رحلتهم .. ثم يتحدث معه .. كان مهندسا زراعيا .. لذلك فهو يتنقل بين الوحدات المختلفة ليهتم بمزارعها .. كان خفيف الظل ويتعامل مع اصعب المواقف بمرح .. ويعلق على الحرب فيقول ـ

هنا لا تعرف الفرق بين الجمهورى والملكى .. كلهم جمهوريون .. وكلهم ملكيون ولا تحكمهم أى مقاييس .. ان وحدات كاملة من الجيش الجمهورى بعد أن يتم تسليحها تنضم الى القوات الملكية .. ثم يضحك وهو يقص قصة أحد قادة فصائل الدبابات اليمنية الذى حاول عبور الوادى بدبابته فغرزت .. أحضر اخرى ليخرج بها الاولى فغرزت الثانية واندفعت الأولى لعمق المجرى وغرقت .. فأخذ الدبابة الثالثة الخاصة بالفصيلة وانضم بها للملكيين .

زعماء القبائل هنا لهم مرتبات .. بعد أن يصرفها يطرقع كام رصاصة .. فيزيدون له المرتب .. فيسكت .. ليه سبكت متعرفش .. ليه ضرب برخه متعرفش .

الحياه هنا مخالفة تماما لكل معلوماتنا .. اليمنيون لايعرفون الفارق بين النظامين الجمهورى والملكى ... توجد فقط قبائل متمردة .. هناك فى اعلى الجبل فى منطقة اسمها الطور .. لذلك فى طريقنا سنسلك طريقا اخر لا يمر اسفلهم فقد تكون الفزالة شغالة ويطخونا .. هم حقيقى معاهم بنادق من ايام سيدنا نوح من التى تضرب رصاصة ثم تحشوها لتضرب اخرى لكن الرصاصة برجل خصوصا لو كان دم . دم .

دم . دم يا سيدى رصاص ينفجر على مرتين لذلك يصدر صوتين دم وبعدين دم اخرى فسموه الجنود دم . دم .. وهو رصاص محرم لأن الرصاصة بعد الاصابة الاولى تنفجر داخل الجسم .. ثم يضحك .

أوعى رجالتك تروح لابو قتحية .. لحسن بناته عندهن زهرى .. تصور الرجل مسرح مراته وبناته بعلب الخضار والبولوبيف يخرب بيته هذى نصف عساكر الجيش المصرى .

الشمس يملأ ضوءها المكان بعض الجنود يسبحون فى مجرى الوادى.. وبعضهم يصنع الشاى فى علب صفيح على عيدان حطب .. وجسد صديقنا اصبح مفكوكا كل جزء منه يعمل منفصلا من الرطوبة .

قائد المأمورية يصيح ليعيد الجنود مهماتهم الى العربات .. يصدر تعليماته سنتحرك بعد نصف ساعة .

يجلس فوق صندوق يحلق ذقنه باسترخاء .. يشعر بحنين لمصر .. يريد أن يرقد تحت شجر الكلية الحربية بجوار القناية يتناول افطاره .. أحد الجنود يحضر له كوز شاى هدية من قائد المأمورية .. يفكر .. لو انهم بدلا من رشوة زعماء القبائل زرعوا هذه الارض وساعدوا هؤلاء البدو على الهبوط من اعلى الجبل والاستقرار .. لو أن الجهد الذى يبذلونه بذله خبراء الزارعة بدلا من خبراء الحرب .. ودوى صوت ماكينات الرى بدلا من صوت ماكينات ضرب النار وانتقل هؤلاء من عصر البداوة الى عصر الزراعة الم يكن ذلك اوفر وافضل لجميع الاطراف .. كان سيقضى على تمردهم .. ثورتهم .. غضبهم وصراعاتهم .. حل طويل المدى ولكن اكثر ضمانا .

القول يتحرك يعبر المخاضة الى الجانب الاكثر خطورة فى اتجاه عبس ... المناظر تتغير .. حقول مزروعة على الجانبين .. السكان أقرب للفلاح المصرى اللون الاسود يغلب عليهم .. جدودهم هاجروا من الحبشة واستوطنوا هذا الجزء احفاد الملك ابرهة الذى غزا جزيرة العرب وحاول هدم الكعبة ... النساء عاريات الصدور .. لا يلبسن الا احرمة على هيئة جيب حول الوسط أما الثديان فظاهران .. بعضهن ذوات قوام رائع .. وأثداء مشدودة بعضهن أثداؤهن متهدلة او متضخمة ينظرن اليهم بدون خجل .. الجنود يصيحون من اعلى العربات .. الحيوانات فى هذا المكان سمينة عن زميلاتها فى وادى مور .. يصلون عبس قرية كبيرة تحوطها الجبال بها مطار انشأته القوات المصرية .. بئر عنتر .. بيت عبلة .. وعند نقطة الشرطة يطلب منهم قائدها التحرك بسرعة حتى يصلوا قبل غروب الشمس .. تصحبهم دورية حراسة لتأمينهم مكونة من عربيتين مدرعتين مركب عليهما رشاشات متوسطة .. عند بئر تديره جماعة مندسين .. وقفوا ليتزودوا بالماء ويقص عليهم الجنود اخبار معركة حدثت فى اليوم السابق .

ففى الساعة الواحدة سمعوا اصواتا وحجارة تقذف على الموقع .. ثم تحركات مشبوهة أطلقوا النار فى اتجاهها وظلت المواقع تطلق النار طول

الليل وتكهرب الجو فى عبس فى الصباح وجدوا ان الضحايا فردان كبيران جاءا ليشربا .

الطريق من عبس الى حرض جبلى .. تشعر ان تحت كل حجر يختبئ متربصا ببندقيته وشريط رصاص دم . دم .

يزيدون من سرعة العربات .. البلدوزران لا يستطيعان اللحاق بهم يقفون فى انتظارهما مجموعة من الاطفال تقترب منهم تطلب باسكو .. طفلان اسودان فى لون الابنوس يقفان ساكنين بدون كلام تقاطيعهما حلوة ينجذب لهما صديقنا ينزل من عربته يداعبهما يقبلهما ثم يمنحهما قالبا من الفولية يصلون الى مشارف قفل حرض .. يقفون قليلا لتجهيز انفسهم .. الجنود يشدون اجسادهم الى المقاعد .. البلدوزران يطلقان سارينتهما .. اليمنيون يهللون لمنظر البلدوزرين .. القول أصبح أمام البوابة الرئيسية .. الجنود يقابلونهم بالتهليل متصورين انها قوات قادمة لتغييرهم .. العربتان المدرعتان تستديران للعودة .. جندى من البوابة يقفز على سلم اول عربة ليقودهم لمكان سرية مهندسى اللواء .. اللون الاخضر هو اللون الغالب على المعسكر الطرق محفورة فى الجبل ملتوية وضيقة .. الجنود يخرجون من خيامهم للترحيب بهم .. منظرهم يثير الضحك بالخوذات والبنادق الموجهة للخارج. احدهم يعلق .. لسه مشدودين أصلهم مستجدين .

الجنود حفاة فى المواقع وبدون سترات او قمصان .. ثقونهم طويلة شعرهم طويل .

وصلوا الى سرية المهندسين التى تطل على الوادى، الذى سينشئون فيه السد .. اللون الاخضر يجعلها اقرب لعزبة او حديقة .. ضباط السرية يقابلونهم بالاحضان أحدهم دفعة صديقنا يمزح معه :

بقا خضرتكم بنـــاة السد .

الفصـــل الخامس عشر

عندما قامت حرب ٧٣ كان صديقنا نائبا لمدير مخازن المهندسين بالهرم منذ عام كان قد أصبح مقدما ونقلوه الى المخازن بعد أن خدم فى التشكيلات لمدة عشرة اعوام .. معـذرة للتعبيرات العسكرية ولكن تشكيلات بمعنى أسلحة القتال .

ان العمل فى مخزن لرجل قضى معظم عمره فى المواقع تجربة غريبة كان يتصور انه لا يعمل فهو لا يقود .. لا يؤثر .. لا يغير .. كل ما يفعله هو ان يوقع على اذون صرف وارتجاع ويراقب حركة الصنف ثم يصدر اوامر فتتحرك عشرات العربات فارغة وتعود ممتلئة أو بالعكس .

كان يستقيظ صباحا .. يركب عربته الخاصـــة .. عربة صـــغيرة نصر ١٢٨ .. يذهب بها الى مكتبه .. ويظل يتكلم ويتكلم حتى يتعب .. يعود ليحيا حياة عادية كأى مهندس حكومى من زملائه .. وكان قائده يشفق عليه فهو يعرف ان ضابط التشكيلات يموت على المكتب فى مخزنه .. يصاب بامراض الشيخوخة المبكرة .وكان هو يعجب لمـاذا يكون ضباط الشئون الادارية والمخازن مهندسين .. انها خبرات خاصة لا يتعلمونها .. وكان هو يجيب على السؤال وهل هناك شىء نعمله تعلمناه؟

ولكن أتاحت له اقامته فى القاهرة أن يرى ويتعلم أشياء جـديدة لم يتعلمها خلال رحلة حياته من سيناء الى اليمن ومن اليمن الى الجبهة .

لقد كان يشاهد اللوجات التى يطلقها طلاب جامعة القاهرة على مبناهم يحثون فيها القيادة السياسية على الحرب ويطالبون بالحرية والديموقراطية وكان يشعر بالازمة الإقتصادية وهى تتجمع سحبها لتعصف بفقراء وطنـــه وكان ايضا ترعبه التطورات السياسية حوله .. عبد الناصر مات بعد أن

قضى سنوات عمره الاخيرة يدرب قوات الجيش للثار من هزيمة ٦٧ والاصلاح الديموقراطى بعد بيان ٣٠ مارس .

وقام خلفه « بثورة ١٥ مايو » .. الخبراء الروس تم طردهم من القوات المسلحة فى ساعات .. والجيش يعانى من ذل الهزيمة .. وعدم القدرة على تصحيحها وهو قابع فى مكتبه بمخازن الهرم يوقع اذون الصرف والارتجاع .. واندلعت المظاهرات اكثر من مرة .. وكبحت المظاهرات اكثر من مرة .

فى ليلة العيد الكبير تم اعتقال اكثر من مائتى طالب من الجامعة ومن ميدان التحرير الذى احتلوه .. قرأ اكثر من مرة منشوراتهم .. ومطالبهم .. وتخفى فى زى مدنى فى يوم وقرأ مجلات الحائط المعلقة بالجامعة .. كان يود لو أصبح مدنيا ليكتب ويصيح .. كان يتكلم عما يحدث حوله بحرية غريبة .. لم يكن يهتم كثيرا .. منذ أن طلبه قائده وقفل الباب ثم حدثه عن الورقة الهامة التى يحتفظ بها فى درج الشانون .. واندلعت الحرب

الحرب بالنسبة للمدنيين مباراة فى كرة القدم يهللون فيها لفريقهم او حتى الذى أحرز التعادل .

ولكن بالنسبة للعسكريين موت ودماء وضحايا وجثث وتشوهات .. ووصلته الانباء .. الجيش يندفع عبر المانع المائى .. وعبر تحصينات بارليف .. لم تدهشه لقد تدرب هو وجنوده على هذا الواجب على الاقل عشر مرات . الجيش المصرى يصد الهجوم المضاد التكتيكى والتعبوى .. ولم يدهشه هذا أيضا فخطط الاسرائيليين فى الدفاع عن سيناء معروفة .. ولقد تدرب الجنود عشرات المرات على معارك صد الدبابات بالاسلحة الشخصية . الجيش المصرى يتوقف عن الاستمرار فى التقدم للعمق .. وأدهشه هذا . ان العمق الاستراتيجى أصبح ضيقا للحد الذى لا يمكن الدفاع عنه لا سبيل للدفاع عن الارض المكتسبة الا بالوصول الى الممرات .. هكذا علمه مقدم اسمر فى سيناء عندما كان ملازما صغيرا . ثم تتوالى الكوارث .

اختراق للقوات فى المفصل بين الجيش الثانى والثالث بواسطة راس حربة اسرائيلية يقودها شارون .

بناء جسر خرسانى عبر القناة فى مكان الثغرة .. الجيش الثانى محاصر داخل سيناء .. القوات الاسرائيلية تهاجم القوات المصرية فى الضفة الغربية .

الاسرائيليون يصلون الى الكيلو ١٠١ من القاهرة .. وقف القتال .. نحن لا نستطيع أن نحارب أمريكا .. انهارت القيادة ثانية .. لقد ادوا

معركة عظيمة فى الجزء الذى تدربوا عليـــه عشرات المرات .. وارتبكت القيادة عندما أصبح لابد من ادارة معركة حديثة .

وبدات الاحتفالات .. سلاح المهندسين لا يكرمون منه الا الشهداء .. اللواء احمد حمدى .. والسلاح الذى بنى الجسور .. وهزم المانع الترابى ودمر الدشم .. ورص الالغام .. وازال الالغام .. واوصل ونقل المياه وفتح الطرق .. كأنه لم يفعل شيئا وكأن هذه الأعمال تمت منفصلة كظاهرة من ظواهرالطبيعة وبدأتارهاصات الانفتاح .. نحن لا نحارب امريكا اكبرقوة فى التاريخ تسعون بالمائة من المشكلة فى يد أمريكا .. لابد من تشـــجيع اصحاب رؤوس الاموال على استثمارها فى مصر .

وصدر القانون ٤٣ لعام ٧٤ .. وسمحوا للضباط بتقديم استقالاتهم او احالتهم الى المعاش .. وخرج صديقنا .. ثم ترقيته لرتبة عقيد ثم احيل الى المعاش بناء على اتفاق مع مدير سلاحه .

لقد اصبح الآن فى الخارج .. لم يعـــد التفكير جريمـــة عسكرية .. ارتفعت الاسعار فى بلده بعد الحرب مباشرة .. ارتفعت بشكل جنونى .. تضاعفت أسعار معظم السلع والخدمات خلال اربعة شهور .. وانخفضت القوة الشرائية للجنيه الى النصف .. وكان عليه ان يعمل .

ترى من يسمح لمهندس تخرج منذ اثنى عشر عاما قضاها يرص الغام وينشىء الملاجىء والسدود الترابية بالعمل وكان القطاع العام ملاذه .

ســاله مدير عام ادارة المشروعات بشركة المقاولات عن خبرته .

كان يتكلم بخجل وحساسية .. فهو لم يعد صغيرا وفى نفس الوقت يريد العمل .. انها البداية دائمـــا التى عاناها طول عمره . .عندما بدأ فى سيناء .. وعندما بدا يحفر الملاجىء .. وعندما بدأ يزيل الالغام .. وعندما بدأ يبنى السد .. وعندما بدأ العمل كمخزنجى .. وها هو يبدأ من جديد .

كان الآخر ينظر اليه بعطف وحب ذكره بعيون قائده عندما سأله عن الماركسية على شاطىء الحديدة لقد كان شابا آخر من الطليعة الوفدية .. ولكنـــه لا يخـــاف على اســـرته ومرتبـــه ومكانتـــه .. لا بل كـــان يخـــاف ايضـــا على اســـرته ومرتبـــه ومكـــانته فقـــد أمضى

فى السجن سنوات خرج بعدها متأخرا عن دفعته وجاهد وتعلم ليحتل مكانه ثم يتفوق ثم يتخصص .. كان أستاذا حقيقيا .. وهب نفسه لقضية شريفة أن يعلم الشباب .. وأن يحافظ على نفسه من الانزلاق بين يدى الزبانية فأنتم لا تعرفون اصدقائى معنى الاعتقال والسجن ومحاربة البشر فى ارزاقهم .. هم فقط الذين يعرفون .. من ذاق مهانة السجن .. ومن ذاق مهانة التسلط على المسجونين لقد عاش عصر محاربة أعداء الثورة الذى تكلم عنهم ضباط التوجيه المعنوى فى الدورة التى حضرها صديقنا .. لكنهم لم يحاربوا أعداء الثورة .. حاربوا أعداء الثورة المضادة .. فانتصرت الثورة المضاد مع اول ضربة لها .

لقد جردوا الثورة من حماتها .. فأصبحت فريسة سهلة لرجال الانفتاح لقد قلموا أظافر المدافعون عنها فأصبح من السهل عقد اتفاق كامب دافيد .

ومع ذلك الرجل لم ينهر .. بل قاوم فى شكل آخر .. فى خلق اجيال جديدة من الفنيين الذين يمتلكون لغة العصر .. سلاح المقاومة الحقيقى لجحافل جيوش الانفتاح .

قال له : عظيم نحن نحتاج لخبرتك هذه .. لدينا مشروع جديد ندربه العامل الحاكم فيه الحفر فى الصخر .. اذا استطعنا ان نخفض تكاليفه ستصبح فرصتنا افضل .. هل يمكنك ان تدرس لنا تكاليف الحفر .. يمكنك مساعدة زميل مكلف بهذه المهمة .

وبدأ صديقنا من مكان أفضل بكثير من تصوره .. لقد بدأ خبير فى موضوع لا يعرفه غيره بين جميع العاملين بادارة المشروعات .. ولكن هذه مجرد بداية عليه تطويرها كما حدث دائما .

وساعده مديره زوده بملاحظاته دون ان يشعره .. كما فعل مهندس المقاولين معه فى العريش .. ثم زوده بمجموعة من الكتب كان عليه دراستها .. واستمر صديقنا .. يتعلم .. ويتعلم .. ويتعلم .

يتعلم من مساعدته لزملائه .. يتعلم من قرائته للكتب .. ويتعلم من ملاحظات رئيسه ... وهكذا مصر دائما .. بل وهكذا الحياة دائما .. لا تتوقف .. اذا أعطيتها أعطتك واغنت البشرية .

.لقد استطاع صديقنا فى مدة محدودة أن يحصل ما فانه .. ولم يجد انه اضاع سنين عمره هباء فى القوات المسلحة .. لقد تعلم منها الكثير .. على الاقل كيف يدير عملا .

تحركت العربة الجيب فى طرقات المدينـــة الملتوية والممتلئة بالاطفال الصغار والنساء المحجبات لتخرج فى اتجاه الوادى .

كان يقودها نقيب من سرية اســـتطلاع اللواء بجواره قائد سرية مهندسى اللواء .. فى الخلف على كرسيين عريضين متقابلين كان يجلس قائد المـأمورية وصديقنا وبجوار قائد المـــأمورية شيخ يمنى والى جوار صديقنا شاب يمنى يرتدى الملابس العادية .. فى نهاية العربة جنـــديان من سرية الاستطلاع مسلح كل منهما ببندقية آلية .

الجو حار شديد الحرارة .. وضابط الاستطلاع يضع بجواره نرس به مكعبات ثلج يرطب بها منديله ويمسح بها وجهه الابيض شديد الحمرة الذى يحاكى وجوه الاوروبيين .. ويتصرف بتأفف .

قائد سرية المهندسين يضحك وهو يشرح غير عابىء بوقع كلامه .. هذا الشيخ الحافى ذو الرائحة النفاذة يمتلك خمسة آلاف فـدان اى ان حوالى سبعين بالمائة من الارض التى سيرويها السد ملك له .. وبذلك ستتحول من ارض للرعى الى ارض زراعية .. ثم يضيف :

الارض التى يحتلها لواء المدفعية ولواء المشاة ملكه ايضـــا ويؤجرها للجيش يعيد صديقنا النظر اليه وهو يبتسم فيجده يمنيا عاديا وان كان اكثر سمنه من اغلبهم . اسنانه صفراء بهشمة او متآكلة من القات والايلبس حتى صندلا فى قدميه ويخلع حزامه وخنجره احتراما للجيش المصرى .

يستكمل قائد سرية المهندسين : أما الافنـــدى ده فهو مدرس ومثقف المدينة الوحيد فهو يدير مدرسة يدرس فيها من عشرة الى خمسة عشر طالبا وبالاضافة لذلك فهو مدير أعمال الشيخ لانه يستطيع قراءة عقوده واوراقه كذلك هو المستشار القانونى والتجارى لجميع أعيان القرية .

يبتسم الآخر ايضا .. يمنى عادى تكاد تبرز عظامه من تحت القميص ولكنه يرتدى شبشب زنوبة ازرق متآكل .. علق صديقنا .. اهلا وسهلا يمنى احنا مع اقطاعى ومثقف يمنى . .

ولم يكن هذا غريبا فالاقطاع وخدمو :الاقطاع من المثقفين هم الحلفاء

الطبيعيون للجيوش المستعمرة فى اى مكان على الارض .. وبذلك تحددت هوية الجيش المصرى فى اليمن مع فارق بسيط ان الاستعمار وسيلة عسكرية لاستغلال اقتصادى وفى اليمن هم الذين يستغلون الجيش المصرى اقتصاديا.. سواء عن طريق الاتاوات كما يفعل رؤساء القبائل او عن طريق الايجارات كما يفعل شيخنا الحافى او عن طريق البضائع التى يشتريها المصريون من اسواقهم ويغرقون بها بلدهم .

اذا استرسلنا فسنصل الى أغرب نتيجة أن اليمن هو الذى يستعمر مصر . .

شعر المثقف بلهجة صديقنا .. فحاول الدفاع عن نفسه .. أو التقرب منهم أو على الاقل اشعارهم بأنه يختلف عن الباقين فتكلم عن آخر شخصية يمكن أن يتوقعها أى منهم .. عن ماوتسى تونج .. ثم لينين .. ثم عن كتاب الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية .. ويدلل عن طريقه .. يكذب الادعاءات الاستعمارية السعودية .. وتصور صديقنا لاول وهلة انه فى مواجهة شيوعى يمنى .. تعجب .. !! الشيوعية تنمو حتى فى اليمن .. ؟؟

ولكن الآخر انتقل الى الكلام عن برتراند رسل ثم سارتر فطه حسين والعقاد وصار يخلط الافكار بعضها ببعض بطريقة مضحكة .

اعتبره الآخرون يثرثر فيما لا معنى له .. ولكن صديقنا لم يترك هذه الفرصة تمر عليه ببساطة .

تجاوب معه ثم سأله ـــ اين تعلمت هذا .. ؟؟

رد بأنه تعلمه من الصينيين .. عندما كانوا ينشئون طريق الحديدة صنعاء لقد عمل كمقاول انفار يحضر لهم اليمنيين .. ويعطونه اجرته وبعض الكتب كسب كثيرا ولكنه سافر الى عدن حيث وقع فى حب عدنية من اللاتى يلبسن البلوزة المفتوحة والسروال القصير واضاع هناك نقوده ولكنـــه قرأ للآخرين سكت قليلا ثم شرد ببصره خارج العربة .. ثم تكلم فجأة :

رجعت الآن واعمل مدرسا .. اعلم الاطفال واحفظهم القرآن .. وتوقفت عن القراءة الا ما أخذه من سيادة النجيب .

توقف ثانيا عن الكلام .. ثم نظر بعد ذلك لصديقنا وقال :

ـــ انت مش ضابط أنا عارف انت ايه .. !!

نظر له قائد سرية المهندسين وقال : أو جدع حقيقى ومثقف تعرف هو ايه !!

رد الآخر بثقة : انت صحفى .. رأيت مثلك كثيرين فى مؤتمر حرض .

داعبه قائد المأمورية : لا خابت منك دى مش مضبوط .

رد المثقف : يبقى انت المهندس .. ودول الضباط .

ضحكوا جميعا ولم يعلق أحدهم .. لانهم كانوا قد وصلوا الى المنطقة التى سيقام بها السد .. ولكن اذاعة السعودية فى نشرة اخبارها الاخيرة فى ذلك اليوم .. اذاعت انها قد رصدت عشرة آلاف ريال يمنى لمن يأتى لها براس المهندس الذى سينشىء سد حرض .

الفصـــل الســـادس عشر

كان يتعاطف معهم جميعا .. يوليهم اهتمامه بنفس القدر .. كان يعرف مزايا وعيوب كل منهم وكيف يتعامل معها .. لقد كان قادرا على اقناع كل منهم منفصلا وايضا قيادتهم فى توافق كمايسترو نابغ مـــع أوركسترا متنوع الالآت يعزف مقطوعة مركبة من اعمال باخ .

ولكن صديقنا كان له مكان خاص حاول ألا يشعر به الآخرون .. لقد كان يرده الى اخصب فترات حياته بمناقشاته السياسية والاجتماعية والعلمية قال له : ـــ لقد انهزمت القوى الثورية فى مصر .. لابد من الاعتراف .. انتهى المد الاشتراكى .. ولا أمل .. لقد فرضت أمريكا واسرائيل شروطهما وقبلتهما القيادة السياسية .. ان توقيع كامب دافيـــد بمثابة توقيع وثيقة استسلام نهائى رغم كل محاولات التجميل واظهاره على انه انتصار .

صمت قليلا ثم اشار بيده وكمله :

علينا ان كنا نريد ألا نغرق فى الطوفان أن نتوقع الآثار المترتبة على ذلك .. كان يعدد له الاثار بنفس الطريقة التى يحلل بها بنـــود عطـــاء لتقدير سعره .

ـــ اول هذه الآثار .. القضاء على المكاسب الاشتراكية أو تجميدها أو تفريغها من مضمونها .. وسيعانى القطاع العام الكثير من ذلك .

ـــ بعد التجميد ستغرق الدول الصناعية السوق بفائض منتجاتها .. من كل نوع وصنف ومستوى وسعر .. فى البداية ستكون الاسعارمنافسة للمنتجات المحلية وبعد ان تقضى على الصناعة المصرية سترتفع الاسعار تدريجيا بشكل لا يمكن تصوره .

علينا أن نستوعب دروس التاريخ عبود باشا خفض سعر الكحول الى مليم للتر .. كان هذا السعر اقل من التكلفة .. عندما اغلقت جميع المصانع المنتجة للكحول رفع سعره الى عشرين مليما .. لقد احتكر السوق .

ثم اكمل نقاطه :

— سيتغير الهيكل الاقتصادى . .الزراعة ستضعف .. الصناعة ستنتهى ولن يبقى الا التجار والوكلاء والسماسرة .. اى أن البناء التحتى للمجتمع سيصاب بالضعف والتحلل .

— وسيعقب ذلك تغير البناء الفوقى .. القوانين — التقاليد — الفن — الادب — الثقافة — الذوق العام .

سيطفو على السطح كل ما هو غث .. وسينتحر الشرفاء .. لن ينجو فرد واحد من الطوفان .. سنغرق جميعا .. تذكر . .

كان صديقنا ينظر اليه مندهشا .. لماذا يخصه بهذا التحليل .. !! وفى هذا الوقت .. !!

أجاب الآخر دون أن يسأله صديقنا — ان علينا واجبا .. لا معنى للإشتراكية الآن .. أن معركتنا معركة وطنية عليها أن تضم كل من هو شريف على هذه الارض بغض النظر عن تركيبته الطبقية .. علينا ان نواجه المد العالى للثورة المضادة وباسلوبها .. اعادة النظر فى كل النظريات السابقة .. سكت قليلا ثم امسك القلم وبدأ يخطط على الورق هناك بناء تحتى سيتم تدميره بواسطة المنتجات الجاهزة الصناعية والزراعية علينا ترميمه بانشاء صناعة مصرية بدعوة كل المصريين للعمل ولكن باسلوب جديد باستيعاب لغة العصر من ادارة وتنظيم .. كل ما فعلته أوروبا وامريكا لا يزيد عن ثورة فى الادارة والتنظيم واستخدام الحاسب الآلى هو أداته .

وهناك بناء فوقى سيتمزق بذوق وتقاليد التجار .. وباستيراد علاقات وفنون الغرب المعبرة عن التمزق .. بعضها سيتم انشاؤه للتصدير لنا خصيصا .. ان الغرب سيصدر لنا ازمته يا صديقى .

وعلينا أن نواجه البناء الفوقى المترهل الممزق بنسج ثوب جديد يناسب المرحلة الجديدة .. ان التنوير شعار لابد أن يسود هذه الفترة .

كل من يتكلم عن الاشتراكية والشيوعية والسلفية والديكتاتورية

وما شابه لا أود أن أقول خائن ولكنه لا يستوعب الموقف جيدا .

كان صديقنا قد توصل الى اجزاء من هذه الأفكار فلم تصدمه .. ولكن الذى حركه وحمسه هو الحل العملى الذى قدمه رئيسه بعد ذلك .

قال : علينا من الآن الاستعداد للبلدوزرات الكاسحة .. للشركات العملاقة القادمة لتسوى بنا وباقتصادنا وبنائنا الفوقى والتحتى الأرض .

علينا أن نتعلم لغة المستقبل (الادارة والتنظيم والكومبيوتر) .

وانا رغم سنى هذا وتجربتى سأبدأ معكم .

واقتنع صديقنا لقد قضى بعد ذلك معظم وقته فى دورات وتدريبات بدرس ابجدية الادارة الحديثة والاقتصاد .. وطرق الانشاء .. والبرمجة والكومبيوتر .

لم يكن الوحيد الذى يفعل هذا ان طاقم ادارة المشروعات بقيادة مديره الذى أقنع ادارة الشركة يوجهه نظره كان كخلية النحل .. تدرس وتحاول التطبيق .. تفشل مرات ثم تنجح .. حتى أصبحت الادارة نموذجا جديدا استوعب مفردات لغة العصر وتشرب بالواقع .. ثم مزج الاثنين ليخرج بتغيير نوعى .. ادارة مصرية حديثة .. ولكن الطوفان لم يمهلهم .. لقد صدقت رؤية المدير وبدأت البضائع الاجنبية تنقد وخلفها الشركات .. وخلفها المعونات .. وبدأ البناء الفوقى يتغير .. أصبحت العمولة والرشوة والسمسرة والكسب السريع قيم المجتمع الجديد .. الذى لفظ خليه ادارة المشروعات كما يلفظ الجسد جسما غريبا .. لقد بدا القطاع العام فعلا يتغير .

وقفوا فوق تبة صغيرة وسط المضيق الذى سوف يغلقونه . عن يمينهم مسافة كيلو ونصف مترا وعن يسارهم مسافة أخرى حوالى نصف كيلومتر المضيق ينصل واديين متسعين تحفهما الجبال من الجانبين .. أى ان طول السد المطلوب كيلو مترات اذا تم قفلهما ستصطدم به المياه القادمة من اعلى جبال اليمن وتخزن ثم تتحول الى جانب آخر يصل بها الى ميدى عبر طريق حفرته السيول من قبل عندما كان هناك سد .

كان مثقف القرية يتكلم عن الدوافع القومية والعربية والناصرية

التى ستجعلهم ينشئون السد .. ويتعهد نيابة عن أعيان البلد بتـــوفير الظلة والماء البارد للمهندس والضابط طول مدة العمل .

وكان الآخرون يحسبون بشكل ابتدائى حجم العمل المطلوب .

قال قائد المأمورية : اذا تصورنا اننا سنكوم أتربة فقط بدون تشكيل لجسم السد وحساب لقلبه أو الاعمال الفنية الاخرى فمطلوب تكويم الفى متر طولى بعرض عشرين وارتفاع خمسة امتار اى حوالى .. حوالى مائتى الف متر مكعب .. وبالتالى مطلوب حفر هذه الكمية وأخراج الطفلة.

قال قائد ثان المأمورية : لدينا بلدوزران على كاوتش انتـــاجية كل نهما فى اقصى حالاته بدون عوائق او مشاكل مائة متر مكعب فى الساعة بمعنى الف متر مكعب اذا عملنا عشر ساعات فى اليوم .. أى الفى متر مكعب يوم للبلدوزرين مقسومة على اربعمائة الف فنحن نحتاج الى مائتى يوم عمل اى حوالى اربعة شهور .

ضحك قائد سرية المهندسين فلقد كانت هذه تقديراته ثم اضاف : اذا كانت المدة المتيسرة قبل موسم الأمطار شهرين او شهرين ونصف على الاكثر .

ضحكوا جميعا ثم قالوا يصبح من المستحيل انشاؤه .. او تتضاعف المعدات كان مثقف القرية يتابعهم ويحاول أن يفهم ما يقولون فقد كانت التركيبات والاصطلاحات الانجليزية التى امتلأت بها المناقشات تربكه ... لقد تصور انهم يعدون لصعود القمر وليس لبناء السد .. حاول أن يترجم للشيخ المصاحب له . .ولكنه فشل .

كانت ابتسامة لا معنى لها لا تفارق وجهه حتى وصلوا الى نتيجة انه من المستحيل انهاء العمل قبل السيول بمعداتهم فاصيب بخيبة امل .. تداول بعدها الحديث مع الشيخ بلهجتهـــا ثم قال : انهـم مســـتعدون لمساعدتهم بمائة رجل كل يوم ومعهم بقرهم وزخائرهم .. ضحكوا جميعا ولم يجيبوا .

فى مقر السرية كان المقدم فى انتظارهم ..

عندما أطلعوه على نتائج استطلاعهم .. ومطالبهم (فلقد طلبـــوا حفارا أماميا بكباش وبلدوزر آخر على كاتينة وعربتين قلاب ..) .

اعتبرهما يحلمان .. فمن أين سيحضر هذه المعدات وكيف سينقلها ظل ساهما لفترة ثم سألهما عن المسافة بين مقر سرية المهندسين ومكان السد عندما عرف انها حوالى خمسة عشر كيلو مترا .

اقترح ان ينشئوا معسكرا بجوار الموقع فيوفرون وقت الذهاب والعودة ويعملون كل ساعات النهار المتيسرة ..

ولم ترق لهما الفكرة .. فهى ستوفر حقا الوقت ولكنها ستفقد الامداد الادارى وستجعلهم لقمة سائغة للقوات السعودية او المتسللين وستزيد الجهد البدنى للجنود اثناء حراستهم للموقع ليلا .

واستمرت المناقشة طول الليل .. وكل طرف مصر على وجهة نظره .

فى اليوم التالى صباحا ذهبوا جميعا الى الموقع ومعهم المعدات والجنود وبدأوا يجربون الطرق المختلفة للانشاء . وكل من ثلاثتهم يحاول أن يبتكر ويبدل .. فى البدء كان الانتاج غير مشجع فكفاءة البلدوزرات التى تتحرك على كاوتش كانت منخفضة وأقل حتى من حساباتهم الابتدائية سواء فى الحفر أو رفع الاتربة .

وبمرور الوقت وتعديل طرق العمل حدث تقدم بطىء حتى استطاعوا فى نهاية اليوم حفر وتشكيل عشرة امتار فقط من السد .. كان معنى ذلك انهم بحاجة الى مائتى يوم عمل اى حوالى ثمانية شهور واصبح اتمام السد قبل سقوط الامطار بهذا الشكل عملا يائسا .

فى المساء .. جلسوا امام الخيمة المنصوبة حديثا يقلبون الامر .. كان قائدا المأمورية قد اصابهما اليأس .. ولكن قائد الكتيبة كان متحمسا يصر على انهاء السد فى المدة المحددة .. كان الآخران ساخطان .. انهم يتداولون الاوراق والأوامر فى ثلاثة أو اربعة شهور ثم يطلبون منا التنفيذ فى شهرين . وكان القائد ولأول مرة دائم الابتسام فخبراته كانت ترشده ان العقبات الابتدائية هى طبيعة الأشياء .. والاصرار والتغلب عليها هى طبيعة البشر .. كان يقول لهما لا تيأسا إن المعدلات الحقيقية لم نصل اليها بعد وفعلا وفى اليوم التالى أنجزا عشرين مترا بقليل من التنظيم والتدريب وزاد حماسهما .. اذا انتظم الموقف أكثر قد يرتفع المعدل .. وارتفع المعدل فعلا الى خمس وعشرين وبدأت لهجة التشكيك تختفى

وبدا الأمل يغزو مفردات احاديثهم ثم اقتنعا بانه من الممكن أن ينهوا العمل فى المدة المقررة ثم تعهدا بانهاء العمل فى المدة المقـررة بشرط الا يقيمـا المعسكر بجوار العمل .

كان قد مضى اسبوع تأكد القائد فى نهايته أن رجاله قادرون على نسوا انهم يعملون مع رجال لهم طاقتهم وحالتهم النفسـية وحمـاسهم انهاء المهمة فتركهم وعاد الى مقر الكتيبة بالحديدة .

اقتنع الضباط بامكانية انهاء العمل فى الموعد المحـدد .. ولكنهـم ويأسهم ان الحساب بطريقة معدة سـاعة او رجل سـاعة تفترض أن الانسان يمكن التعامل معه بنفس درجة الثقة التى يتعامل بها مع الآلة .

وهذا هو موقف الادارة الامريكية اذ انها تحلل كل شىء .. الحالة النفسية والاقتصادية والاجتماعية للعامل وانتماءاته السياسية وتأثير الحرارة والضوء والفصول والموسيقى وعدد ساعات العمل على انتاجيته أى كل ما يتصل بالانسان سواء ما يشعر به او لا يشعر به ثم تقدم كل هذه البيانات للكومبيوتر .. وتستنتج معدلات قياسية لكل نوع من العمل ولكل منطقة او مجموعة من السكان وبالتالى يمكن الاعتماد على هذه البيانات فى دراسة معدلات انتاج البشر بنفس درجة الثقة التى تحسب بها معدلات انتاج المعدات والآلات ..

ولكن فى شرقنا العظيم عليك ان تعتمد على التجربة والخطأ وحساسيتك عندما تتعامل مع البشر .. لتضمن سيولة الانتاج .. قد تنتج فى يوم أقل من المعدل وقد تنتج فى يوم أعلى كثيرا من المعدل .

وهذا ما حدث مع الرجال .. انخفضت معدلاتهم وهم يشاهدون قائدتهم يتخبطون فى بداية التجربة .. ثم ارتفعت معدلاتهم عندما كان قائد الكتيبة يغذيها بحماسه لتنخفض ثانيا بعد رحيله .. وبدأوا يتلكئون صباحا عند الاستيقاظ ويتعجلون العودة ويطيلون الراحة اثناء العمل ..وانخفضت الانتاجية من خمس وعشرين الى ثمانية عشر الى عشرة امتار .

تصدى قائد المأمورية للموقف . .وقع جزاء على أحد الصف ضباط السائقين للبلدوزر وارتفع المعدل قليلا ولكنه لم يصل أبدا للخمس وعشرين مترا واستلهم صديقنا تجربة القسيمة .. اشترى معزة من نقوده الخاصة ثم أقام فى المساء حفلة سمر .. قاطعها قائد المأمورية .

خول المعزة المشوية التى يتخاطف لحمها الضباط والصف ضباط والجنود بدأت المواهب الكامنة فى أى مجموعة تلتقى عشوائيا فى الظهور وارتفعت الضحكات ثم الغناء والرقص والمنـــولوج والنكت والضـــحك والموال .. ثم حديث ..

سـألهم صديقنا .. من هو الرجل ؟؟

قال احدهم ـــ من يكسب جيدا ؟.

رد ـــ النساء والأطفال والشواذ والعاهرات يكسبون اكثر .

قال آخر ـــ الحمش اى الذى يحـــترمه النـــاس ويهتمـــون برأيه ويخـــافونه .

رد ـــ الأسد اكثر قوة من اى انسان .

قال آخر ـــ غير المخنث .. ذو الشارب والعضلات المفتولة .

رد ـــ هناك رجال عظام مظهرهم ابعد ما يمكن عن الرجـــولة .. جيفارا كان طويل الشعر .. غاندى كان نحيفا ضـعيفا .. اغلب القادة بدون شوارب أو عضلات .

سأله أحد الصف ضباط لينهى الحديث ـــ اذن فمن هو الرجل ..؟؟

ـــ هو الذى يعمل ويعمل جيدا .

وفى لمح البصر تحولت كل العيون تجاه الكسالى .. وضج الجميع بالضـــحك .

وتفجر الحديث بعد ذلك عن السد وامكانية انهائه فى موعده .

كان صديقنا يشرح ببساطة وهدوء ما اقتنع به .. وكان واضحا من كلماته وردوده الصادقة .

لقد كانت تجربة مدرسة التوجيه المعنوى لازالت ترشده ..الحرية والمواجهة والمناقشة حتى الاقتناع بكل الصدق بكل الحرية .. رتصاعد الحديث وتشعب لمدى تخلف وفقر اليمنيين .. وربط الجنود بين ما يقومون به وما يمكن أن يحدثه من تأثير على انهاء فقر وتخلف اخوة لهم .

فى نهاية الليلة .. كان كل منهم قد وعى تماما الدور الحضـــارى والانسانى الذى يساهم به .. ونام صديقنا فى هذه الليلة .

ارتفع المعدل بعد ذلك حتى وصل الى الخمس وعشرين مترا ثم تجاوزوها ولكن للأسف توقفت الماكينات ... وكان من الصعب اقناعهـــا بالدور الحضارى والانســانى الذى تقوم به .. لقد اهملوا الصيانة .. وسرقهم حماسهم فلم يعالجوا الاعطال فى بداية ظهـــورها .. وتعطل البلدوزران احدهما ثم الآخر وانقطع هدير المكن .. ووقفوا .

كان السد قد اصبح حياته .. كان يستعذب الوقوف فى الشـــمس يرقبه يكبر ويكبر .. وكان لصوت هدير البلدوزرات وهى تقطع الارض وتكومها وترفعها وقع السيمفونية .. كانت سيمفونية رائعة ممتعة تمجد العمل والانسان والحياة وكان قد عشق صوتها وعشق الوجوه السمراء المبللة بالعرق والتراب .

وكان للصمت الذى جثم على الموقع أيضا صوت ولكنه صوت الموت واليأس والاستسلام وقرر أمرا .. قرر أن يبنى السد بأيديهم بالكوريك والازمة والغلق .. قرر أن يحفره ويخلطه بالعرق والتعب .. عندما اعلن هذا قابلوا الأمر بالاستغراب .. باستخفاف .. ماذا سيفعل حفنـــة من الرجال بدون المعدة .. ما سيحفرونه فى يوم يؤديه البلدوزر فى جـــرة واحدة .. ومع ذلك اصر صديقنا .

بالرومانسيته انه هو نفسه لم يتغير ابدا يهرب الى الاحلام كلمـــا واجهته مشاكل الحياة الصعبة .

تكاسل الرجال وهم يحفرون .. وهم ينقلون التراب .. وتمـــرد أحدهم فكان يتنقل بالغلق نصف ممتلىء .. كان شابا أسمر من الصـــعيد يحمل كل شهامة المصرى الصعيدى وفى نفس الوقت طريقته فى مقـــاومة السلطة.بالتخريب والسلبية..لم يجرؤ على الرفض ولكنه ايضا لم يعمل بحماس وانتقلت سلبيته الى الآخرين .. ناداه صديقنا أخذ منه الغلـــق قائلا هذا شرف لا يقوم به الا الرجال .. حمله على كتفه وعمل بينهم .. وقف الشاب فى البداية مندهشا .. زاد حماس الرجال .. وقف الآخر وحيدا بدون عمل .. لم يستطع ان يتحمل الموقف .. حاول استرضاءه ليعاود العمل .. رفض صديقنا .. حاول أن يعتذر .. ثم يسترضيه ..

واخيرا سلمه الغلق بعد أن تعلم كلاهما درسا .. فلقد تعلم الشـــاب ان قيمته لا تنبع الا من العمل .. وتعلم صديقنا الا يعذب نفسه ورجاله بفكرة رومانسية غير قابلة للتحقيق .

لذلك فبعد أن انتظم العمل انهاه وعاد لمقره بالمأمورية يبحـــث عن وسيلة أخرى .

الفصـــل الســـــابع عشر

عندما حيا الضيف الجالس عند رئيسه يتناول القهوة .. لم يكن يتصور انهما سيؤثر كل منهما فى حياة الآخر أبلغ تاثير .. كان مقـــاول باطن وكان يتكلم عن الادارة الحديثة والبرمجة وحسابات التكاليف والمتابعة عن طريق مراكز التكلفة وكان صديقنا ينظر له بدهشة .. فمقاولو الباطن لا يتكلمون عن الادارة الحديثة .

فمنذ تأميم شركات المقاولات كان مقاولو الباطن رؤســـــاء انفـــار تم ترقيتهم بالاقدمية ليصبحوا مقاولين معظمهم يجهل القراءة والكتـــابة وكل ميزتهم انهم يعرفون كيف يقتسمون ارباحهم مع مديرى التنفيذ المشرفين عليهم . لقد تم تكليف جميع المهندسين ولم يسمح الا للقليل منهم بالعمل الحر ولم يكن امامهم وسيلة الا مشاركة رؤساء الانفار وتحويلهم الى مقاولين كان عددهم كبيرا لانه لم يكن مسموحا بحجم عمل يزيد عن مائة الف جنيه للمقاول الواحد خلال العام .

وكان لكل مدير تنفيذ عشرات من المقاولين يعملون معه .

ومع الانفتاح وفى بدايته زاد حجم العمل لبعضهم وتضخموا لدرجة انهم ثاروا على صانعيهم وصنعوا هم مديرين يكلفونهم بالعمل لقاء نسب من حجم العمـــل أو مكافآت محدودة .

شعر الضيف بنظرات صديقنا ودهشته .. فبدأ يشرح له .. ان عملية المقاولات مرت بتطورات مختلفة .. بدأت منذ القدم .. عندما كان لكل صناعة شيخ وهو المسموح له باعطاء الترخيص للعاملين لمزاولة المهنة وكانت الأعمال بسيطة ومحدودة .. وفى الانشاءات الكبيرة كان يعمـــل اكثر من شيخ فى اكثر من نشاط .

وتطور الموقف بعد انتهاء نظام شيوخ الحرف فأصبح الشيخ معلم وتعدد المعلمون واصبح لكل معلم صبيان .. وظل هذا النظام قائما حتى الآن . رغم أن شركات كثيرة تعدى حجم عملها الملايين وموظفوها يعـــدون بالمئات ومن جميع التخصصات الا انها تدار بطريقة المعلم .

رئيس مجلس ادارة يجمع فى يده كل الانشطة والقرارات ويحمـــل نفســه كل المسئولية والباقون صبيان ينفذون تعليماته دون مناقشـة .

الشركة التى بها معلم قوى تصبح شركة ممتازة والتى معلمها ضعيف تذوى .. والمعلم هو المسئول عن ترسية الأعمال .. وتوفير السيولة النقدية ودراســة المشاريع وشراء المعدات والمواد .. وتشغيل مقــاولى الباطن وصرف المستخلصات ومناقشة العملاء حتى تسليم المشروع .

هذا النظام يصلح للأعمال الصغيرة والمحدودة التى يستطيع أن يلم بتفاصيلها فرد واحد .. ولكنه لا يصلح للأعمال الكبيرة والمركبة .. التى يجب أن يتصدىلها نظام .. ومجموعة من المتخصصين .. وبرامجمتابعة أى ادارة حديثة .

فى الادارة الحديثة تتحول المقاولات من أعمال حرفية صغيرة الى صناعة بكل ما تحمله الصناعة من معنى خطوط الانتاج والانتظـــام .. وبالتالى على وسائل وطرق وعلاقات الانتاج ان تتغير .. أنكم هنا تعملون بطريقة المعلم ولكن البركة فى العقول المتفتحة .. لقد خطوتم خطوة واسعة فى طريق تصنيع المقاولات وادارتها بلغة عصرية تتناسب مع التطـــور السريع فى العالم كان الرجل يتكلم بجدية وايمان .. وشعر صديقنا انه لم يقل كل ما عنده أن ما قاله هو عناوين يمكن ان يدرج تحتها مناقشات طويلة .

كان مدير الادارة يتابع المناقشة باهتمام .. وكان قد بدأ يشـــعر بريح التغيير فى الشركة .

نظر الى صديقنا بحب وسأله ــ انا طلبتك لكى اعرف كل منكمـا بالآخر . الاستاذ صديق قديم وهو من مقـــاولى البـــاطن المتخصصين فى تركيب أعمدة ومد شبكات الكهرباء الضغط العالى والمتوسط والمنخفض . وهو قد حصل على عملية فى العراق حضر لى كى ارشح له مهندســـا

ممتازا ليكون مدير فرع شركته هناك وينفذ المشروع .. ولقد رشحتك .. (مد يده موقنا اياه عن الاعتراض) . رغم انني أعرف ان مد شبكات الكهرباء بالنسبة لك كالطب مثلا .. لا تعرف عنها شيئا ولكن الموضوع ابسط من ذلك .. انه ادارة وتنظيم .. وانت على درجة كفاءة عالية فى كليهما .. تدربت عمليا فى القوات المسلحة .. واستكملت النظرية معنا .. لا أريد اجابة الآن .. ولكن مكر .

أخرج الآخر كارت من حافظته وسلمه اياه .. وقال نتقابل الاسبوع القادم فى مكتبى الساعة الخامسة مساء .. أنا تشرفت بمعرفتك ياباشمهندس .

لم يكن يتصور ان الامور سوف تتطور بهذا الشكل وبهذه السرعة فلقد كان ضد فكرة السفر للعمل بالخارج .. وهو ايضا لا يمكنه ان يقبل ادارة عمل لا يعرف طبيعته .

ولكنه سافر للعراق .

لقد قال له — كل ما أريده الشرف والرغبة فى بذل الجهد وقوة الاحتمال . الناحية الفنية يمكن شراؤها بواسطة المستشارين من اى مكان فى العالم .

. . اتفقا .. استقال .. وقع عقدا معه لمدة عامين .. ولحق به فى بغداد .

استقبله الشيخ بترحاب فى منزله .. رغم الجنديين المصاحبين له ورغم بنادقهما المسددة له استعدادا للرد الفورى على اى محاولة اعتداء.

قدم له شرباتا مثلجا مستوردا شربه رغم تحذيرات الأطباء من الدودة الانزية . فهم يقولون أن هناك مرضا اثريا انقرض من العالم سمعوا عنه من كتب تاريخ الطب — عن دودة تسرى مع الدم وتخترق الجلد فى مواقع مختلفة ولا علاج لها الا لفها على عود كبريت كلما خرج منها جزء على الا تقطع والا تكاثرت وهذا المرض ينتشر عن طريق بيض الدودة الموجود بمياه الآبار فى هذه المنطقة .

طلب منه انذاده باليمنيين الذين وعده بهم لمساعدته .

ووعده الآخر بخمسمائة يمنى ليعملوا معه فى اليوم التالى .

توافد اليمنيون على الموقع .. أعداد كبيرة ولكنها لم تصل للعـــدد الذى وعد به وبمجرد حضورهم انتشروا فى الموقع بين الرجال .. وأحاط كل جندى عدد منهم .. وانطلقت الضحكات وحلقات السمر .. كان من الصعب السيطرة على الموقف .

لم يرفض صديقنا الحوار .. فهم (أى جنود سرية المهندسين) افضل من قدم الى اليمن .. لقد جاءوا للتعمير .. ولا يعقل أن .

ولكنه تذكر تحذير القائد من انه قد يندفع خلف فكرة ما وينسى الامن فصل جنوده وبتعليمات محددة لرقباء السرية منع اختلاطهم باليمنيين ثم حاصر الموقع بمجموعة منهم للحراسة مستعدين للاشتباك .. وطلب من زعماء القبائل المصاحبين للعمال تجميعهم فى مجموعات عمل لكل مجوعة واجب محـــدد .

عندما انتظم الموقع وبدأت الثيران تجر الزحافات وتقطع الأرض وتكومها وقف صديقنا يحيطه جنديان الحارسان يتكلم مع بعض زعمـــاء القبائل .

كان احدهم شابا طويلا نحيلا اسمر ذا رائحة نفاذة وله شعر طويل مسترسل كعادة رجال قبيلتهم .. داعبه الحارســـان .. فوجـــدا فيـــه انسانا اكثر بساطة منهما فبـــدءا يصـــفان له التليفزيون والعمـــارات والاسانسيرات والقطارات بشكل ساذج ومضـــحك .. يزيد من طرافته انعكاسه على الرجـــل .

كانا يصفان التلفزيون بانه صندوق يخرج منـــه الرجال والنســـاء يرقصون ويغنون والعمارة على انها منازل بنيت الواحدة فوق الأخرى .. والأسانسير صندوق تضغط عليه فيرتفع .

كان الرجل مبهورا بما يقصانه عليه .. وكان يسأل الضابطفيصدق على كلامهما بمرور الوقت تسيب الموقف ثانيا .. تجمـــع بعض اليمنيين وبعض الجنود خلف العربات يتحدثون ويضحكون بصوت منخفض حتى لا يشعر بهم الضابط ووجد ان الموقف ميئوس منه وانهم لن يتقدموا وانما يعرض رجاله للخطر .

تجمعهم وحيا اليمنيين واستعد للرحيل .. عندما جـــرى خلفـــه

الشاب الطويل يرجوه أن يتوسط لدى الحكومة اليمنية لتسمح له بالسفر الى مصر لكى يرى السيدات البيضاوات الخارجات من الصندوق يرقصن ويغنين .

عندما سأله صديقنا .. وأين ستقيم وكيف ستعيش .

رد عليه أغرب رد .. قال له ــ عندك .

عندما عادوا الى المعسكر وجدوا أن مجموعة اصلاح قد حضرت من الحديدة ونجحت فى إصلاح البلدوزرين .. فقابلتهم فرقعة الموتورات .. لتعود سيمفونية العمل ثانيا ومن أعلى العربات كان الجنود يرقصون ويهللون .. ويقفزون ليحتضنوا رجال الاصلاح .. فالبلدوزرات بالنسبة لهم لم تعد ماكينة حديد وانما أصبحت كائنات اسطورية رائعة يحققون بها ارادتهم فى التغيير .

فى بغداد كان عليه أن يبدأ من معرفة الواقع .. بدا بدراسة العقد ودراسة المواصفات ثم بمناقشة بعض الخبراء الذين احضرهم الباشا وهذا هو اللقب الذى أطلقه عليه أصدقاؤه .

كان الموضوع ابسط من خيالاته .. انه حفر مكان للعامود ثم رفعه وتركيب كابولى أى ذراع أعلى الأعمدة .. وتركيب موازل .. وشد السلك .. واطلاق التيار .. أنشطة محدودة واضحة .. كانوا سيحفرون بحفار مثل البريمة ويرفعون الاعمدة بالأوناش بعد تركيب الذراع عليها والموازل ثم يسحبون السلك ويركبونه بواسطة فرق متخصصة .

انتاجية العربة المركب عليها البريمة والونش كانت لدى من استخدمها قبلهم من خمسة الى ثمانية اعمدة فى اليوم .

وطلب صديقنا ما تعلمه فى السد .. تجربة أولى .. متابعة سير العمل تعديل طرق الانشاء .. زيادة المعدلات .. تدريب العاملين .. ثم يتركهم للعمل .. بعد مدة تهبط معنويات العمال والمشرفين .. يقيم حفلا لهم ويناقشهم .. ويعدل من نظام حياتهم ويعودون للعمل .. نفس التجربة . ولكنها أدهشت الباشا لقد ارتفع معدل حفر وتركيب الأعمدة الى عشرين وخمس وعشرين عامودا فى اليوم بواسطة عربة واحدة .

وبدأ يتعلم كيف يخطط لبرنامج .. ثم كيف يعدله حسب تغير الموقف .. هناك نقص الأعمدة .. تعدل البرامج .. هناك نقص فى

الاماكن المصالحة للتركيب تنقل الفرق . كل ما تعلمه طبقة ولكن كانت هناك مشكلة للقائمين بفرد وسحب وتركيب السلك أتوا بها من مصر .. معلم ومجموعة من الصبيان .. فرضت أتاوات عليه .. ورفض الاستسلام وتعطل العمل .. لجأ للباشا .. لمفاوضة المعلمين الذى استسلم لمطالبهم وبدأ العمل يتقدم ولكن ببطء لقد كان صديقنا متأكدا انهم يعلمون حساسية الموقف .. لذلك فلقد ذهب للقاهرة وعاد بفرقتين آخريين .. وبدأ العمل يتقدم .. ليتوقف ثانيا .

طلبه قائد سرية الاستطلاع .. كان فى خيمته الشيخ ويمنى آخر وكان على باب الخيمة بلدوزر على كاتينة متربص ومظهره يدل على الاستهتار فى استخدامه .

استقبله الشيخ بالأحضان .. ثم قدم له اليمنى .. انه سائق البلدوزر الواقف فى الخارج وانه بعد مباحثات ومناورات طويلة مع الحكومة اليمنية استطاع أن يحصل عليه لمساعدتهم وطلب منه استلامه .

كاد قلبه أن يقفز فرحا .. لقد ازدادت فرصة انهاء العمل قبل السيول بالقادم الجديد . تفحصه . كان يمنيا تقليديا مع فارق انه يدخن بشراهة وعيناه غير مستقرتين ويتكلم بعصبية .

سأله — أين تعلمت ادارته .. ؟؟

رد — مع الصينيين على طريق الحديدة صنعاء .

احتفل به الرجال .. أعطوه سجائر وطعاما ومياها .. وحبا فى نفس الوقت . ولكن صديقنا كان حذرا لم يتصور انه قادر على ادارة البلدوزر .. ولكنه خيب ظنه عندما بدأ يعمل لقد كان ماهرا جدا .. عمل معهم يومين وفى اليوم الثالث ترك البلدوزر وهرب .. وحل محله احد الصف ضباط .

كان العراق فى ذلك الوقت هو البلد العربى الوحيد الذى يمكن لاى مصرى أن يذهب اليه بدون تأشيره دخول .. ولذلك فلقد امتلأ بالمغامرين الهاربين من تدهور الحالة الاقتصادية والساعين الى اللحاق بسباق التطلعات الطبقية .. كل منهم يقترض اجرة السفر ويركب الطائرة .. وفى بغداد يكتشف أن العمل ليس فى انتظاره وان الذهب ليس ملقيا على الأرض فى الشوارع وتختفى الدولارات المحدودة فى لمح البصر ثم يبحث

عن اى وسيلة تتيح له فرصة اكل ثلاث وجبات والنوم بعدها فى مكـــان مغلق .

ويعرض نفسه فى سوق العمل بتروش ويستغلهم الخرنيونوالنجار وينتشرون فى طول العراق وعرضه .. يمكنك ان تجدهم فى اقصى قرى الجنوب بنفس القدر الذى تجدهم فيه بأقصى قرى الشمال .

وكانت الشركة التى يديرها صديقنا قد بدأت فى الانتشار أيضا ، ورغم أن خمس أو ست شركات مصرية كانت تعمـــل فى ذلك الوقت فى مجالات شتى من الانشاء الا أن شركته الوحيدة التى كان يطلق عليهـــا الشركة المصرية وكان سائقو التاكسيات يتذلون أمام بوابتها بعشرات من المصريين يوميا الباحثين عن عمل أو ثلاث وجبات ومكان للمبيت .

فى البداية كانت رومانسية صديقنا تدفعه لمساعدته م.. ولكن زاد الأمر تعقيدا فتحركت نزعته العملية .. ولم لا يعملون فى فرد وشدوتركيب السلك اختار عددا منهم شبانا وحاصلين على مؤهلات متوسطة دبلـــوم صناعة زراعة تجارة .. وطعم بهم فرق شد السلك التقليـــدية .. كان يراقبهم ويهتم بمن يتقدم منهـــم وبعد فتـــرة اقصر من تصـــــوره كـــان فى استطاعتهأن يكون من مجموعة منهم فرقةمنفصلة رغم اعتراضاتروساء الفرق التلقيدية تقدمت الفرقة شحسن انتـــاجها وزاد وبعـــد مدة كانت الدافع لباقى الفرق التقليدية لزيادة انتاجها حتى لا يغلبهـــم (شـــوية الامندية) .

بمرور الوقت انقســـمت الفرقة لفـــرقتين .. فاربع فرق .. حتى اصبحت معظم الفرق التى تعمل فى هذا النشاط من شباب المتعلمين .. واختفت ظاهرة تأخر شد السلك فى الشركة .

كان للبلدوزر الثالث الفضل فى سرعة تقدم العمل بشكل لا يمكن تصوره لقد كان المعدل قد ارتفع من خمس وعشرين مترا يوميا الى اربعين مترا قبل وصوله .. ثم ارتفع الى مائة بعد أن بدأ المشاركة فى العمـــل وازداد حماس الرجال .. النصر يلهب الحماس ويقود الى مزيد منه وايضا التجربة ترفع الكفاءة .. وقسم قائد المأمورية وصـــديقنا عبء الاشراف عليهما بالتساوى .. لقد اصبح عملهما .. مجرد مصـــاحبة الرجـــال وتحديد الاهداف لهم .. وكانت المأمورية تعمل ورديتين احداهما صباحا من الخامسة حتى الحادية عشر على الاكثر .. ثم من الرابعة ظهرا حتى السابعة وكان لهم روتين خاص .

فصيلة من الجنود بجسناته ومكتشفات الالغام تسبقهم للتأكد من خلو

الطريق من العوائق . عربة الجنود خلفها ثم البلدوزران .. ثم عربة اخرى للجنود وبذلك كانت وحوشهم الاسطورية فى حماية كاملة .. ولم يشـــوا ابدا نصائح قائد الكتيبة . الجنود وجوههم للخارج .. فى ايديهم بنادقهم فى مقـــدمة العربة جنـــدى حـــاملا رشاشه كل منهم على رأسه خـوذته .. عدا الضابط .. كان منظرهم يثير الضحك .. ولكن لم يحدث فى يوم أن حـــاول اى متسلل أو يمنى بالاعتداء عليهم .

وانتهى السد .. هكذا ببساطة .. لقد اصبح اصدقاؤنا اسطورة فى ذلك المكان .. وكان جندى المهندسين يسير رافعا رأسه بين باقى الجنود فهو من بناة السد .

ولم تسقط الأمطار فبدأوا يحسنون فى الموقف .. عمقوا المجـــرى الذى صنعه السيل .. عندما كان هناك سد من قبل ليضمنوا ســـهولة انسياب المياه الى ميدى .

صنعوا سدودا صغيرة توجيهية اى لتوجيه المياه .. وهم يعرفون ان السيل سيقضى عليها بعد فترة ولكنها لمجرد توجيه الماء حتى يتحـــدد المجرى النهائى . ولم تسقط الأمطار .

اصبحوا فى قمة القلق .. لقد انشاوا السد .. وهم فى انتظـــار ان يصمد كان اكثرهم قلقا قائد السرية فهو الذى صمم الســـد قلبـــه من الطفلة وغطاؤه من التربة العادية .

وزار قائد الكتيبة الموقع لساعات لمجرد الاطمئنان .. حضر بطائرة الصباح وعاد بطائرة الظهر .. يهمس فى اذن صديقنا لقد توصى لكما بنوط حســن اداء الواجب وسيرقى الصف ضباط استثنائية .

الحرارة ترتفع المطر ينهمر .. يزداد انهماره .. يتقون عرايا تحت المطر فالجو حار .. يضحكون .. المياه تزحف من أعلى الجبال .. عبر المجرى ببطء .. تكون بركا صغيرة منفصلة .. تتصـــل البرك بعضـــها ببعض .. تترابط المياه تزداد سرعتها .. عربتان من عربات اللواء تغرزان فى مجرى السيل والمياه تحملهما .. الشابين تهرب من المجرى وتهاجم اماكن الاعاشة المياه تصل الى السدود التوجيهية .. تتحول الى المجرى الجديد .. تزداد اندفاعا تحطم السدود .. تصل الى السد .. القلوب تخفق .. قائد سرية المهندسين .. قائد المـــامورية .. صديقنا .. الصف ضباط ..

.. سائقو البلدوزرات جميعهم يقفون فوق جسم السد .. المـــاء يصطدم بالسد يتوقف أمامه .. يرتفع منسوبه .. السد يحجز المـــاء .. المياه تغير مجراها .. تتجه الى ميدى فلاح يمنى يرمى نفسه فى المياه المحولة .. الدموع تطفر من عينى صديقنا الشيخ يشد على يده فيسحبها .. الاطفال يلعبون فى المياه .. نزل حتى وصل الى الفلاح المبتل بالمـــاء والطين .. يشـــد على يده .. مبروك مبروك الرجال يرقصـــون من الفرح .. يتنبه الجميع .

الآن الموعد المناسب لاغتيالهم .. الجنود يحيطون بصديقنا فهو الذى رصدت السعودية عشرة آلاف ريال يمنى على راسه .. ينسحبون بهدوء تاركين اليمنيين يرقصون ويغنون .

لا يستطيعون النوم .. انتهت المـامورية وبنوا السد وتحولت الميـــاه .

فى نهاية الليل كانوا قد خلعوا خيامهم ورتبوا مهماتهم فى العربات ورصوها فى مدخل السرية .. مع الفجر تسللوا خارجين من حرفش فى اتجاه الحديدة كاللصوص حتى لا يشعر بهم الاهالى فمن يعلم .

كان يقرأ كتابا عن اسطورة جلجامش ويستمع الى موسيقى واغانى عراقية من فرقة الانشاد .. كانت المغنية تحكى قصة جسر الحديد الذى انبرى من دوس رجليها وكانت الاسطورة تقص قصة الطوفان الذى قضى على الجنس البشرى عندما تفاجاه الباشا بسؤال ـــ هل انت شيوعى ؟؟

تعجب من السؤال .. فمنذ مدة لم يواجهه احد بمثل هذا السؤال .

أجاب بتردد ـــ من الذى أوحى اليك بهذه الفكرة .. !!

ـــ بعض الضباط المهندسين الذين يعملون بالعراق لقد عرفوك وقالوا انك شيوعى .

ـــ ضحك ثم قال ثانيا .. توقفت الضحكة وبدأ يتكلم بجدية .

ـــ أنا لست شيوعيا أو ماركسيا .. أنا مثقف جزء من تكوينه الفكرى ماركس وانجلز وفرويد وداروين وبرتراند رسل وسارتر وكل ما هو له قيمة فكرية فى هذه الحياة انا لست ماركسيا رغم معرفتى بالنظرية وفهمى لها .. لان المـــاركسى محور حياته الفكرى والثقافى نابع من النظرية وانا لى روافد كثيرة اثرت على فكرى ولست شيوعيا لان الشيوعى ماركسى يعمل على تغيير المجتمع حوله ابتداء من قريته حتى نهاية الكرة الارضية .. وانت تعرف جيدا اننى احاول تغيير المجتمع ولكن ليس قسرا ولا الى الشيوعية .

فوجىء الباشا بهذه المناقشة .. كان قد احبه .. ووثق فيه وسلمه شركته .. وكان يغيب عنه بالشهور ويعود ليجد الامور تسير فى خطها .. لقد اتفقا منذ البداية على ضغط المصاريف .. كل مهندسين لهما حجرة واحدة .. كل اربعة من المشرفين لهم حجرة .. حتى هو شاركه فى استراحته المكتب والضيوف .

وكانت المرتبات التى يمنحونها للجميع اقل من معدل السوق .. كان يغذى العاملين بالاحلام والامل من تعديل مرتباتهم وطريقة معيشتهم عندما يسددون الدفعة المقدمة للعميل .

وكان صديقنا قد تعلم كيف يربط الناس من خلال الكلمات .. تعلم من دورة التوجيه المعنوى ومن خلال رحلته بالقوات المسلحة .. وكانوا يثقون فيه وفى وعوده عندما سأله الباشا هذا السؤال .. كانوا قد اتموا تسديد الدفعة المقدمة لقد كان شرطها غريبا أن تسدد فى نصف المدة .. بدلا من المدة بكاملها .

وكان الباشا يقول اننى لا اريد اكثر من الوفاء بالتزامى تجاه العميل تسديد الدفعة المقدمة وبعد ذلك نقتسم الارباح .. ليصبح كل من عمل بالمشروع راضيا .

وشعر صديقنا بالقلق .. لماذا هذا السؤال الآن .. ؟؟

لقد عرض عليه فى اليوم السابق مشروع تعديل مرتبات العاملين حتى تتساوى مرتباتهم بالسوق فيوقف نزيف الهجرة من شركته الى الشركات العراقية المحيطة التى ترحب بأى فرد من العاملين بالشركة المصرية .

وتحققت المخاوف .. قفل باب الحجرة بالمفتاح .. احتضنه وبكى .

ـ انا وحيد .. اننى اعتمد عليك اعتمادا كاملا .. لقد قمت بالواجب واكثر سأمنحك خمسين الف دينار .. تصبح بها شريكا لى فى شركة جديدة أنشئها .

تملص منه صديقنا ثم واجهه .. لقد وعدتهم .. لقد غنيتهم على الحلم لعام ونصف .. ولا استطيع أن اتراجع .. لا يمكننى أن اكون مخلب القط .

كان صديقنا قد تغير فى العراق .. غيرته الدنانير العراقية .. أصبح يدخن سجائر مستوردة ويستخدم كولونيا مستوردة ويرتدى ملابس باريس ولندن وروما وسافر اكثر من مرة لاوروبا .. اكل الجبن الفرنسى والشيكولاتة

السويسرى . وشاهد افلام البورنو واقتنى بعض المجلات الفاضحة .. وارتاد اماكن فى مصر اثناء اجازاته كانت محرمة عليه .. كان قد بدا يدور فى عجلة الاستهلاك ولكنه .. لم يفقد شرفه ابدا .. ولم يحمل نفسهفوق طاقته المادية .. لقد كان ينفق فى حدود دخله .. لذلك فقد اجاب على الباشا .

— عظيم .. يشرفنى مشاركتك ولكننى وعدت العاملين وعلى الوفاء بالوعد اذا كنت ترفض اعتماد التعديل .. فاننى آسف .. سأضطر لابلاغهم .. من وافق على ذلك وبقى .. فبارادته .. ومن أبى فليتصرف مثلى .. عقدى ينتهى بعد شهرين .. وأبلغكمن الآن اننى لن أجدده .

الفصـــل الثـــامن عشر

فى الحديدة استقبلوهم باحتفال ضخم .. لقد عادوا من منطقة الخطر بعد أن أدوا المهمة ودون أن يخدش لهم جنـــدى .. توافد الضـــباط من الوحدات المختلفة لزيارتهم .. وملوا من رواية الأحداث .. كل مجموعة جديدة تسأل نفس الأسئلة ويجيبون نفس الاجابات .

هل حاول السعوديون ضربكم .. هل رحب بكم اليمنيون . .هـــل حقا رصدت السعودية عشرة آلاف ريال على رأسه .. ما شكل البدو.. وهل ضمد التراب لاندفاع الماء .. ولماذا ترك سائق البلدوزر اليمنى معدته وهرب ..

فالضباط فى الحديدة لم يكن لديهم عمل الا ترديد الاشاعات والقصص التى تشبه الحواديت .

وبدا يدور فى روتين الحياة اليومية ــ الطوابير ــالتدريب ــ السباحة ــ الاستماع الى الحواديته وترديدها فى بعض الأحيان .. متابعة محطات الاذاعة فى العالم ولا مانع من متابعة أخبار الدورى العام فى مصر .. لقد كان نادى الاسماعيلى مكتسحا للدورى ونادى الترســـانة على أعتـــاب الحصول على الكأس .

وشعر صديقنا انه يقضى أجازته السنوية على شاطىء الحديدة .

وكان قائد الكتيبة سعيدا بما حدث .. فخورا برجاله .. يتحـــدث عنهم كما لو كانوا أبطالا .. وفى بعض الأحيان يبالغ امامها فى حجم الانجاز الذين حققوه .

ولكن قائد القوات وقائد الفرقة كان لهما رأى آخر .

لقد قرر قائد الفرقة تكريمهم .. واقاموا لذلك حفلا بمقر الكتيبة .

شكرهم وشكر قائد الكتيبة على الانجـــاز العظيـــم الذى رفع راس فرقتهم عاليا ثم صدق على ترقية جميع الصف ضـــباط الذين اشـــتركوا فى العمل الى رتب أعلى وصرف خمس ريالات لكل جنـــدى وهـــدية رمزية للضابطين .

لقد رفض قائد القوات منحهما نوط حسن أداء الواجب .. فقـــد زادت الأنواط والترقيات عن حدودها وكان عليه البدء فى السيطرة عليها .

علق رئيس العمليات الجديد بعدما لاحظ خيبة الامل فى العيون .. لو انكم وضعتم لغما تحت عربة من العربات او اطلقتم بعض الطلقـــات الفشينك لرقاكم ترقية استثنائية .. ولكن لعدم معرفتكم بأصول اللعبـــة رفضن حتى التصديق على النوطين .

فى ذلك اليوم عرف صديقنا أن الضابط الملحق على المخابرات لعمل الاشراك الخداعية .. ذلك الذى كان يحلم بشمسية على بلاج السويس وترمس ممتلىء بمكعبات الثلج .. وريكوردر .. وزوجة يلجأ الى حضنها .. أتذكرونه .. انفجر فيه آخر شرك خداعى كان يعده قبل سفره .. أطار ساعديه وساقه وأصابه بالعمى وفقد السمع .. وتم نقلـــه الى مستشفى المعادى بالقاهرة .

غطس فى المياه الدافئة أمام معسكرهم . .حاول ان يلملم نفسه .. لم يتصور كيف حدث هذا .. ؟؟ لقد كان ماهراً فى صنعته .. ولكن هكذا قالوا الخطأ الاول فى المرتفعات هو الخطأ الأخير .. لقد تغير صديقنا بعد انتهاء انشاء السد .. ان دوامة العمل لم تتخلله الفرصة للتفكير .وهكذاحالنا جميعا .. نظل نعمل .. ونعمل .. ونعمل .. كما لو كنا نهرب من مواجهة أنفسنا .. وبذا يواجه نفسه .. عندما استزخى فى معسكره بالحـــديدة بدون عمل يذكر .. ماذا يفعلون هنا .. ؟؟

لقد تحول اليمن الى ميدان معركة اشتركت فيه جميع الدول .. كل الجنسيات تعمل .. وتتجسس .. ويرقب بعضها بعضا .

امريكا تمهد طريقا بين صنعاء وتعز تنشئه شركة من شركاتها بواسطة طبقة من الحجر الوردى السائد فى المنطقة فاصبح طريقا ورديا على جانبيه عربات جيش واجهزة لاسلكية واخبار .. عن الجيش المصرى .. وروسيا والصين والمانيا الشرقيةيسارعون لانشاء مشاريعلها نفس الطابع والغرض

والجميع يعلنون ان مهمتهم اخراج اليمن السعيد من سعادة عصور ما قبل التاريخ الى مرارة القرن العشرين .. انهم يعدون لشيىء أكبر من حرب اليمن .

الضباط والجنود لا هم لهم الا شراء سلع لم يشعروا باحتياج لها فى الظروف الطبيعية ومن اجلها يغيرون الاسترلينى والدولار .. وتتغير نظراتهم وتصرفاتهم لتصبح نظرات شره وتصرفات كسل .

كان أحدهم قد رفع صوت الراديو بحيث وصله صوت عبد الحليم حافظ فى اغنيته الجديدة وهو يسبح فى الماء الدافىء .. على حسب الريح متودى الريح متودى .. وياه أنا ماشى .. ماشى ولا مهدى .

لقد تحول الجيش الى جيش متاجر بدلا من جيش محارب .. كل منهم يحاول أن يجنى أكبر قدر ممكن من الفائدة فى أقصر وقت .

لقد ضبطوا احد قواد اللواءات وهو يحاول تهريب عشرة كراتين سجائر تصور .. كل كرتونة تحتوى على خمسين قاروصة .. كل قاروصة عشر علب اى خمسة آلاف علبة سجائر كيلوباترا .

آخرون كانوا يهربون الثلاجات والغسالات والريكوردرات .. لقد كانت طائرة الاتتينوف الضخمة تهبط فى مطار القاهرة فى ممر خاص محملة بأكداس مكدسة من البضائع التى تحملها عربات الجيش المنتظرة فى المطار الى المنازل .. لا تمر على جمرك او نفتيش أو خلافه .. وكان يستقبل الضباط والجنود موظفو الخزينة فى المطار يصرفون لهم شيكات بدل السفر ويخرجون من المطار ليجدوا الآف الأيدى فى انتظارهم لامتصاص ما جلبوا معهم ولاستثمار غيبتهم .. سائقو التكسيات يريدون أجرة مضاعفة وبقشيش وسجائر ق.م (قوات مسلحة) كانوا يقولون انها افضل من السجائر التى تباع فى السوق .. وأهاليهم .. الزوجات والأولاد والبنات يرتدون الهدايا ويختالون بها على الآخرين .. ويعدون كشوف الطلبات الجديدة .

والراقصات وساقطات الكباريهات يفرغن ما فى الجيوب .. وتنتشر الأمراض السرية القادمة من اليمن والتى أحضرها الجنود من بنات ابو منحية .

ويتغير المجتمع .. تستطيع ان تميز العائد من اليمن من طريقة تصرفه ومن شرهه ومن تعاليه على اقرانه .

وتتحول الجنيهات المصرية الى أوراق نقدية اجنبية وتتحول اوراق النقد الاجنبية الى ريالات يمنية .. ثم الى بضائع استهلاكية .. ويغرق الاقتصاد المصرى وتبدأ الشهوة من أجل الاستهلاك .. ويعقبها الانفتاح .

ان صديقنا الذى نجا من اغراءات غزة عندما كان فى سيناء .. ومن طوفان اليمن الاستهلاكى لم يصمد فى العراق .. لقد تعمد الباشا اتلافه أن يغذى انتهازيته .. أن يربطه به .. ليدير سواقى الزيت .. عندما رافقه الى باريس لمناقشة بعض الشركات الفرنسية حرص على ان يجعله يرى فى أول يوم الشانزليزيه .. حيث الثراء الفاجر وبيجال حيث الانحلال الفاجر أيضا .. كان يدخل به الى الأماكن التى يبيعون فيها أغلى البضائع.

يحاول أن يشترى له منها.. على حسابه .. على حساب المشروع .. ورفض صديقنا .. ثم استسلم .. ثم اعتاد .. اعتاد على كريستيان ديور .. وجيفنشى وبيير كردان .. واعتاد على الدرجة الأولى فى الطائرة وعلى أن يحيط نفسه بهالة من الثراء الكاذب .

وكان الآخر يتصور انه اشتراه .. وانه غير قادر على العودة لقالبه القديم فوافق على انهاء عقده .. متصورا أنه سيعود بعد أن يتعلم الدرس.
لقد أنفق صديقنا معظم دخله .. وهو اليوم فى مصر .. بدون عمل دون دخل الا معاشا صغيرا لا يشبع . .والافا محدودة من الدولارات هى كل ما نجا من المذبحة الاستهلاكية .. وأكواما من الاجهزة التالفة او التى ستتلف والملابس التى انتهت موضتها .. وعربة فاخرة .. او كانت فاخرة يوم ان اشتراها جديدة .. وعادات نخرت فى جسده .. واستعبدته .. وكان امامه أحد الخيارين العودة محطما .. او الاستغناء .. وتسلح صديقنا بسلاحه التقليدى .. قوة الاستغناء .. ولكن فى اى مجتمع .. فى مجتمع الانفتاح حيث يقيمون الرجل بما فى جيبه وما يستطيع أن ينفقه .

لقد كان من السهل التسلح بقوة الاستغناء عندما كان المجتمع بالكامل فى وضع الاستغناء . .عندما كان صديقنا فى سيناء واليمن .. ولكن فى مجتمع الفارق فيه بين من يملك ومن لا يملك واسعا .. ومميزا ولا يمكن عبوره او تجاوزه يصبح الاستغناء اقرب للرهينة .. اقرب للقابض على الجمر بيده كما حدثنا الرسول .

وهكذا بدأ صديقنا يعدل من سلوكه .. وبدأ يقبل ما لم يقبله .
كان مدير ادارة المشروعات فى شركة المقاولات قد استقال ايضا .. وكان قد دار دورة قريبة من دورة صديقنا وكون مكتبا استشاريا يعمل فى ادارة التشييد ويقدم خدماته للراغب من مئات الشركات التى طفح بها

الاقتصاد المصرى خلال السنوا تالسابقة .. كان يعلمهم كيف يدرسون مشروعا .. وكيف يخططون برنامجا .. وكيف يتابعون الأعمال .. وكان هذا العمل يمنحه دخلا مناسبا يسمح له بأن يعيش بشكل طبيعى ويقضى اجازة فى الصيف واخرى فى الشتاء فى بلد من بلاد العالم يتعرف عليها وعلى حضارتها ولكن عن طريق شركات السياحة لانها ارخص .

ساعده صديقنا فى عمله .. حتى تعرف على مجموعة شركات استثمار .. طلبت منه أن يكون مستشارا لها متفرغا .. لقاء ألف وخمسمائة جنيه شهريا .

عاد صديقنا الى نمط الحياة الذى اعتاده خلال عمله بالعراق .. غير سكنه ليصبح من قاطنى حى الزمالك .. وجدد عربته . .وارتاد افخر الاماكن وانفق ببذخ .. وزاد رصيده فى البنوك .. وسافر الى معظم بلاد العالم . وتعرف على الشركات الاجنبية واتقن اللغة الانجليزية .. واصبح صديقنا الذى وقع فى يوم ما عقد شراء اسهم الشركة المصرية الامريكية المشتركة وهكذا الايام .. ما لم تغيره غزة واليمن .. غيره الانفتاح .

سألته ــ لقد مضى شهر ولم تجد مشتريا .. ولم تات بجديد عن مشروع المدينة السكنية .. انهم لن يتركوك هكذا .. ان الانجليزى يكرهك ويقلب عليك الجميع .. اننى أعرفهم .. اللهجة التى سألونى عنك بها توحى بعاصفة قريبة .

كان قد انهى دراسة عطاء جديد .. لقد طلب منهم أن يدرس العطاءات بنفسه وفى القاهرة اذا كانوا يريدون عملا جديدا .. وكان فى انتظار احدهم كى يراجعه معه .. ويوافق على التقدم به .

كانت علاقتهما قد بدأت تفتر بعد أن اكتشف كل منهما أن الآخر ليس هدفه .

وبعد أن غرق فى علاقات نسائية أخرى عسى أن تشفيه من آثارها .

قال لها بصراحة ــ انا غير موافق على هذا المنهج . .لا استطيع ان اعمل عملا مخالفا للقانون .. حتى لو لم اكن مقتنعا بالقانون نفسه .

انفجرت ــ قل انك ضعيف ولا تصلح لشىء .. ثم اكملت ..

هذا جزائى ان رشحتك لهم ..ودعمتك .. واحببتك .. كل الرجال

خائنون لا فرق بينك وبين الآخرين .. فليبحث كل منا عن مصلحته .

عندما جاء مندوبهم .. لم يكن اى شخص لقد كان صاحب الشركة صديقها بنفسه لقد استدعته .

قال له ــ اننا لن نتقدم فى هذا العطاء .. دراستك تصلح لشركة مصرية وغير مجزية لشركة امريكية .. سنجد نشاطنا فى بلدكم حتى نستطيع أن نحصل على عملية تمولها المعونة الامريكية لذلك قررنا ان نجد « شريك نائم » هل لديك مانع للتنازل عن اسهمك فى مقابل اعادة الكمبيالة لك وعدم تحملك لأى مصاريف خلال المدة السابقة .

ووافق صديقنا فورا .. لقد كان هذا قراره .. ثم توالت الاحداث سريعا . لقد كانت هى « الشريك النائم » الذى عناه صاحب الشركة .

وتنازل لها عن أسهمه .. لقد طردوه من وظيفة كومبرادور .. وعينوها بدلا منه فهى الاصلح للوظيفة .

الفصـــل التـــاسع عشر

كان يستمع الى كونشرتو الفلوت لموتسارت وهو يقلب كتـــابا عن رينوار ويتأمل راقصة بالية مرسومة بالطريقة التأثيرية .. عنـــــدما هلل الجنود فى المعسكر .. لم يهتم ثم لاحظ هرجا .. احدهم يندفع فى اتجاهه على شاطىء البحر .. لقد استطنا خمسين طائرة يا فندم .

اين .. وكيف .. ولمن ؟؟

لقد قامت الحرب فى سيناء .. كانوا يعلمون ان هناك تحركات وان عبد الناصر هدد اسرائيل لحشدها جيوشها امام الحدود السورية .. وانه اغلق خليج العقبة .. ولكن لم يتصور أن تنشب حرب .

ثم توالت الانباء غارات اسرائيلية على مطارات مصر .. والطائرات الاسرائيلية تسقط كما لو كانت ذبابا اطلقت عليه مبيـــدا حشريا .. وبدأ الضباط والجنود يديرون مؤشرات الراديوات الترانزيستور يستمعون الى اذاعات العالم .

الاذاعة المصرية تتكلم عن الانتصارات .. والاذاعات الاجنبية تصف الهزائم وتبلبلوا من يصدقون .

ثم توالت الاحداث .. وقف اطلاق النار .. الاعتراف بالهزيمة استقالة عبد الناصر .. جماهير ٩ و ١٠ يونيو .

انسحاب تكتيكى من اليمن .. القوات المتوغلة تنسحب تحت حماية القوات القريبة .. الطائرات والبواخر تمتلىء بالعائدين .. مصر فى حاجة اليهم يزداد المجهود الحربى .. يتوتر .. يشحنون المعدات .. العربات

السلاح الجنود .. اسعار البضائع ترتفع بشكل جنونى .. الجنود والضباط ينفقون آخر « بوكشة » يحملونها .

المركب تتحرك خارج الميناء .. بقف ينظر الى مبانى الحديدة وهى تبتعد .

انهم متجهون الى مصر .. يتمتم .. بلادى .. بلادى .. بلادى .. ينفجر فى البكاء .. بكاء عصيبا .. مستمرا .. لا يهدأ الا بعد أن يحقنوه بسائل مخدر .. لينام .

الباخرة ترسو على ميناء الاديبية .. الوجوه حزينة .. الضباط يتحركون فى الخفاء تنتقل الكتيبة الى الجبهة مباشرة .. حركة تنقلات بين الضباط .. قائد الكتيبة ينتقل ليصبح قائد لواء كبارى .. ضباط جدد قادمون من أرض الهزيمة .. القصص لا تنتهى .. العمل الدءوب لاعادة بناء التحصينات .. التدريب على العبور .. حرب الاستنزاف .. صد موجات الطيران الاسرائيلى .. بناء قواعد الصواريخ .. وتستمر الحياة.

تجدد الخلايا التى ماتت وتضمد الجروح التى أثخنت .. وتتمثل فى مستقبل افضل بعد أن أوضحت النكسة انحرافات المسيرة .

ومات الزعيم .. شعر الكثيرون أنهم قد فقدوا السند .. الامل.. الاطمئنان فقدوا الأب الذى تعهد برعايتهم وحل أزماتهم ومواجهة أعدائهم.. وتحقيق انتصاراتهم .. وشعر آخرون بانزياح الغمة البوليسية .. والديكتاتورية وعبادة الفرد .

ولكن الشعب المصرى خرج ليودع آخر الفراعنة كما قال الامريكيون محطما جميع الكردونات التى حاول الجيش والبوليس صناعتها .

كان صديقنا احد المكلفين بصناعة حاجز ما بين الزعيم والشعب .. ولكن عندما شاهد المدفع قادما من بعد .. لم يستطع الا أن ينضم مع الزاحفين هاتفا .. الوداع يا جمال .. يا حبيب الملايين .. لقد احبه ووثق فيه وعمل تحت قيادته اصلب أيام حياته .. واختلف معه قليلا .

وانتهت خدمة صديقنا فى التشكيلات .. نقلوه الى المخازن .. مخازن المهندسين بالهرم .. محطما .. مرعوبا .. ثائرا .. متذمرا .. مما يحدث بعد وفاة القائد .. ثم حمل لقب مشاكس الذى أهله للاحالة الى المعاش .

وهكذا وجد نفسه لاول ثانى رابع مرة بدون دخل .. لقد قطعوا مرتبه يوم أن باع لها أسهمه واستقال .

وتظاهر بعدم الاهتمام .. سيجد وظيفة ما .. وظيفة أفضل .. وانتظرها شهرا .. وآخر .. وآخر .

وبدأت سحب التغير تتجمع .. لقد تضايق من المدينة .. من أنفاسها المشبعة بالعادم والتراب .. وحريق النفايات ونتائج الجباسات ومصانع الأسمنت .

أصبح يتوتر من الأصوات والميكروفونات وأجهزة التنبيه .. وصياح البشر .

وأصبح يتحدث عن التلوث البصرى فى فوضى الانشاء والاعلان والملبس والذوق العام .. والتلوث السمعى بالاغانى والمسلسلات .. والتلوث الخلقى فى التزاحم والتصارع والكذب والخداع .

وأصبح لا يطيق عربته .. ترعبه الشوارع .. ويرعبه السائقون .. ويرعبه الراجلون ويضيق بالميكانيكية والكهربائية .. والمنادين .

وبدأت سحب التغير تمطر .. كان يتكلم عن الهجرة من المدن واللجوء الى البساطة والطبيعة .. وقوة الاستغناء .

وأثرت الأمطار فى تربة نفسه نباع عربته .. وشقته .. واعتزل البشر الا هى . بعينيها الواسعتين المتلئتين دائما بالدموع .. هل تعرفونها .. أخته . وطاف صديقنا يبحث عن مكان يصلح لاقامة البشر .. أسوان .. الأقصر الوادى الجديد .. الواحات .. سيناء .

وفى سيناء الجنوبية وجد ضالته .. أبو زنيمة .. أبو رديس .. الطور شرم الشيخ .. دهب .. نويبع .. أمضى الشهور يتجول بينها .. يرقب بحب أقرب للتصوف .. الجبال الشامخة وعلاقتها بالسهول المنبسطة والبحر شديد الزرقة .. شديد العطاء .

وفتنته حبيبته القديمة سيناء .. كان يقول اننا مجرمون فى حق انفسنا وفى حق هذا الجمال .. كان يتخيل المسارح والقرى والمنازل والحقول والمصانع والمناجم و .. البشر السعداءالطيبين .. ويقول .. هذه هى ملجأنا الأخير بعيدا عن كل نزيف .. بعيدا عن نهر الأباطيل .

وهدأ صديقنا .. لم تعد تبهره الملابس المستوردة/.. ولا الحفلات الصاخبة . ولا العلاقات المبتذلة .. لقد أكتشف فان أقل قدر من الملابس يكفى لوقاية البشر ...وأقل قدر من الطعام يطيل العمر .. وأن هواء المدينة والسجائر تتلف صدر وقلب وعقل الانسان .

وزهد فى العالم .. كانت تقبض كل شهر معاشه وتذهب به اليه.. فينفقه كما لو كان بينه وبين النقود عداء .. وكانت تعجب كيف تحول

الى هذا الحال .. لماذا فقد صلابته .. وكفت عن احضار النقود. .كانت تشترى له احتياجاته .. ملابسه .. طعامه .. وتدور تبحث عنه على الشواطىء المترامية الاطراف حتى تجده جالسا متأملا شيئا ما .. بحرا.. صخرة .. اشعة الشمس .. جبالا عاليا .. طفلا صغيرا .. حيوانا متعبا قادما من الغرب يبحث عن السكينة .

كانت واثقة انه لم يتغير وانما هى لحظة تأمل .. وفى كل زيارة كان يفاجئها بفكرة غريبة .. فى احدى الزيارات حدثها عن الموظفين الرسميين القادمين من وادى النيل يمضون عقوبة ما حكمت بها الاقدار عليهم .. فى زيارة اخرى حدثها عن الجنود المصريين الذين يحمون الاسرائيليات العاريات تماما من نظرات المتطفلين ويأكلوه بأعينهم .

وفى مرة أخرى عن الامكانيات المهدرة التى عرف قيمتها المستعمرون ولا يلقى لها بالا الرسميون .

كانت الأيام تزيده نحولا واستطال شعر راسه وذقنه .. واتسخت ملابسه اصبح مثلهم .. مثل الهيبيز القادمين من الغرب الرافضين لحضارتهم وكان يتكلم مثلهم .. عندما سألها عن رصيده فى البنك خافت .

لقد كان لازال يملك مبلغا ادهشه هو نفسه بعد ان باع العربة والشقة .

لقد قرر أمرا .. قرر أن يخوض الصراع ثانيا ..

ان سيناء مشبعة بالتجدى .. جنود فصل القوات .. عرايا اسرائيل اهمال الرسميون .. لا مبالاة اهل الوادى .

واقام صديقنا مستعمرته على شاطىء ذى رمال بيضاء ناصعة البياض وبحر أزرق متدرج اللون هادىء .. مبنى صغير مريح بسيط .. وعربة نصف نقل لشراء الاحتياجات .. واعلانات على الطريق .

اغسلوا انفسكم فى المياه الطاهرة .. اخلعوا اثوابكم القديمة وارتدوا اثواب العصر .. كفروا عن خطاياكم فالشمس النقية تمحوها .. الى ايها المتعبين وحاملى الاثقال .. فالعمل يخلصكم من احمالكم .

وكانت أول القادمين .. وتبعها آخرون هربوا من سخم المدينة ليبنوا حياة جديدة على الارض المغضوب عليها .. واتسعت المستعمرة لتضم عشرات من الهاربين .. يسبحون .. يتنفسون .. يستمتعون .. ويعملون فى ارض الميعاد بعد أن كانوا على شفا الموت .. على شفا الجنون .

١٩٨٤/٤/٢٢ .

محمد حسين يونس

مطبعة اخوان نورانتى

رقم الايداع ٥/٣٧٩٣

صمت قليلا ثم اشار بيـده وكفه ٠

علينـا ان كنـا نريد الا نغرق فى الطوفان ان نتوقع الآثار المترتبة على ذلك ٠٠

كان يعدد له الآثار بنفس الطريقة التى يحلل بها بنـود عطـاء لتقـدير سعره ٠

- اول هذه الآثار القضاء على المكاسب الاشتراكية أو تجميـدها او تدريبها من مضمونها ٠٠ وسيعانى القطاع العـام الكثير من ذلك ٠

- بعد التجميد ستغرق الدول الصناعية السوق بفائض منتجاتها من كل نوع وصنف ومستوى وسعر ٠٠ فى البـداية سـتكون الأسعار منافسة للمنتجات المحلية وبعد ان تقضى على الصناعة المصرية سترتفع الأسعار تدريجيا بشكل لا يمكن تصوره ٠

علينا ان نستوعب دروس التاريخ عبود باشا خفض سعر الكحول الى مليم للتر ٠٠ كان هذا السعر اقل من التكلفة ٠٠ عندما اغلقت جميع المصانع المنتجة للكحول رفع سعر اللتر الى عشرين مليما بعد ان احتكر السوق ثم اكمل نقـاطه ٠

- سيتغير الهيكل الاقتصادى ٠٠ الزراعة ستزوى ٠٠ الصناعة ستنتهى ولن يبقى الا التجار والوكلاء والسماسرة اى ان البناء التحتى سيصاب بالضعف والتحلل ٠٠

- وسيعقب ذلك تغير البنـاء الفوقى ـ القوانين ـ التقاليـد ـ الفن ـ الأدب ـ الثقافة ـ الذوق العام ٠

سيطفو على السطح كل ما هو غث وسينتحر الشرفاء ٠٠ لن ينجو فرد واحد من الطوفان ٠٠٠ سنغرق جميعا ٠٠ تذكر ٠

١٩٠ قرشا محـلى
٢٥٠ قرشا للتصدير